موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

أحاديث رمضان

أحاديث رمضان ١٤٣٠ هـ

الفوائد لابن القيم الجوزية

الجزء الثاني

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٠١-٣١) : من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٨-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

من فوائد ابن القيم:

أيها الأخوة الكرام، مع درس من دروس الفوائد، كتاب قيم لابن القيم، فمن هذه الفوائد وقبل أن أذكر لكم النص أقدم لهذا النص.

شيء طبيعي جداً أن يشتد العطش بالإنسان ثم يهتدي إلى الماء فيرتوي، وشيء طبيعي جداً أن يشتد العطش بالإنسان ثم لا يهتدي إلى الماء فيموت، كلاهما شيء طبيعي وفق القوانين، اشتد به العطش، بحث عن الماء، وجد الماء، شرب من الماء فارتوى، اشتد به العطش، بحث عن الماء، لم يجد الماء، مات من العطش، لكن الشيء العجيب أن يشتد العطش بالإنسان، وأن يعرف الذي أصابه هذا العطش الشديد مكان الماء، ثم لا يذهب إليه، هنا العجب.

١ ـ من أعجب الأشياء أن تعرف الله ثم لا تحبه وأن تحبه ثم لا تطيعه:

الفائدة الأولى من فوائد ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، ومن أعجب الأشياء أن تحبه ثم لا تطيعه، إن لم تعرفه لا تحبه، شيء طبيعي، أما أن تعرفه ثم لا تحبه، والشيء العجيب أن تحبه ثم لا تطيعه، هذا من أعجب العجب، الفائدة الأولى: من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تحبه ثم لا تطيعه.

٢ ـ من أعجب الأشياء أن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة:

ومن أعجب الأشياء أن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، من أبسط أنواع الدعاء حيّ على الصلاة، دعاء من الله تعال يا عبدي صلِّ، تعال اتصل بي لأذيقك طعم القرب مني، ومن أعجب الأشياء أن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، دعاك إنسان إلى مجلس علم ليزداد إيمانك، لتعرف ربك، لتستقيم على أمره، لتسلم وتسعد في الدنيا والآخرة، ولا تستجيب ! دعيت إلى عمل صالح لا تستجيب ! دعيت إلى مذاكرة القرآن الكريم لا تستجيب ! دعيت إلى صلة الرحم لا تستجيب ! قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: ٢٤)

٣ ـ من أعجب الأشياء أن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره:

الله عز وجل يدعونا إلى الاستجابة لا نستجيب ! يدعونا إلى العمل الصالح نتكاسل، يدعونا إلى حج بيت الله الحرام:

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (٩٧))

(سورة آل عمران)

يدعونا إلى صيام يرقى بنا:

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

(سورة البقرة)

الله عز وجل يدعونا دائماً.

الله عز وجل يدعونا إليه دائماً ليغفر لنا و يرحمنا:

لذلك ومن أعجب العجب وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، شيء عجيب آخر أن تعرف قدر الربح في معاملته، قال تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(١٠)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١))

(سورة الصف)

هناك يبين لك قدر الربح في معاملته:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢))

(سورة فصلت)

أن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره ؟

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

(سورة السجدة)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦))

(سورة القلم)

من عامل الله عز وجل يسر أمره و أيده:

وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره ؟

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦))

(سورة الكهف)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (١٢٣))

(سورة هود)

((يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مَا سَأَلَ لَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً إِلاَّ كما يَنْقُصُ الْبَحْرُ ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ))

[رواه سلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

أيها الأخوة الكرام، من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، من أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه، من أعجب العجب أن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، تعامل جهة أرضية فيها لؤم، فيها كذب، فيها دجل، فيها استعلاء، فيها تهميش لك، أما إذا عاملته فرح بك، ويسر أمرك، ونصرك، وحفظك، و وفقك.

الله تعالى مع المؤمنين بالنصر والتأييد والحفظ والتوفيق:

لذلك قال العلماء هناك معية عامة ومعية خاصة، إذا قال الله عز وجل:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

أي معهم بالنصر، معهم بالتأييد، ومعهم بالحفظ، ومعهم بالتوفيق، من أعجب العجب أن يقول الله لك:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

ثم لا يتقي الإنسان ربه، من أعجب العجب أن يقول الله عز وجل:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩))

(سورة سبأ)

ثم لا ننفق، من أعجب العجب أن يدعوك لجنة عرضها السماوات والأرض ما حرمك شيئاً أودعه فيك لكن سمح لك بالطريق الصحيح، بالطريق النظيف، بالعلاقة الراقية، أودع فيك حب المرأة سمح لك بالزواج، أودع فيك حب المال سمح لك بالكسب المشروع، أي شيء أودعه فيك، أودع فيك الحاجة إلى إثبات الذات سمح لك أن تثبت ذاتك من خلال العمل الصالح، ومن خلال العلم.

الأحمق من ترك باب الله عز وجل ووقف على باب إنسان لئيم مستكبر:

لذلك و من أعجب العجب أن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، تعامل إنساناً لئيماً، قيل ما الذل ؟ قال: يقف الكريم بباب اللئيم ثم يرده.

" والله، والله، مرتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز بريشتين، ونقل بحرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين أهون عليّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين ".

هو يقول لك:

((إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من طالب حاجة فأقضيها له ؟ حتى يطلع الفجر))

[أحمد عن أبي هريرة]

ثم لا تفعل، بل تقف أمام أبواب الشركاء المستكبرين، اللئماء، المترفعين، الذين لا ينتبهون لك، يدعوك الله إلى بابه الكريم تقف على باب غيره ؟

٤ ـ من أعجب العجب أن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له:

من أعجب العجب أن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، ومن أعجب العجب أن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له.

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ))

[مسلم والترمذي وابن ماجه واللفظ له عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

يغش المسلمين:

((من فرق فليس منا))

[الطَّبَرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ]

يفرق بينهم:

((ليس منا من دعا إلى عصبية))

[أبو داود عن جبير بن مطعم]

يدعو إلى عصبية، يقول: أنا، نحن قوم كذا، الشيء العجيب مرة ثانية للتذكير، شيء طبيعي جداً أن يشتد بك العطش ثم تبحث عن الماء فتجد الماء فتشرب وترتوي، وشيء طبيعي جداً أن يشتد بك العطش وتبحث عن الماء فلا تجده فيموت الإنسان عطشاً، شيء طبيعي وفق القوانين التي قننها الله عز وجل، أما شيء غير طبيعي أن تعرفه ثم لا تحبه، أن تعرف كماله، أن تعرف رحمته، أن تعرف حلمه، أن تعرف توبته على التائبين، أن تعرف مغفرته ثم لا تتوب إليه، وأن تحبه ثم لا تطيعه.

تعصي الإله وأنت تظهر حب ه ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطـعته إن المـحب لمن يحب يطيع

***

وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، شاب قال له شيخه: يا بني إن لكل سيئة عقاباً، يبدو وقع في خطأ، زلت قدمه في معصية، انتظر عدة أيام ولم يصب بشيء، أثناء الصلاة ناجى ربه، قال: يا رب لقد عصيتك فلم تعاقبني، قال: وقع في قلبه أن يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟

٥ ـ من أعجب العجب أن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته:

من أعجب العجب أن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، أتحدث اليوم عن أعجب العجب.

مرة ثانية: تطلب العلم، تتعلم، ترتقي، هذا شيء طبيعي، ترفض العلم لا تتعلم، تبقى جاهلاً، شيء طبيعي، أما أن يكون معك إمكانيات عالية جداً تستطيع أن ترتقي بها إلى أعلى عليين ثم لا تطلب العلم هنا الجهل.

٦ ـ من أعجب العجب أن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير الحديث عنه:

من أعجب العجب أن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير الحديث عنه، وعن كماله، اجلس جلسة تتكلم في الدنيا، في مشكلات الناس، في تفلت الناس، في ظلم الناس بعضهم بعضاً، تشعر بضيق، بكآبة، بإحباط، بيأس، تقوم من المجلس ولا تستطيع أن تقف على قدميك، في مجلس آخر تتحدث عن الله، عن رحمته، عن محبته لنا، عن منهجه القويم، عن صراطه المستقيم، عن أهل جنته وأهل طاعته.

من أعجب العجب أن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير الحديث عنه، كل واحد له مواقف، أحياناً بيت متواضع جداً، طعام خشن جداً، يتحدث أناس عن ربهم، يأنسون، يفرحون، يقول: والله لا أنسى هذه الجلسة، وأحياناً طعام نفيس، غيبة، ونميمة، وافتخار، واستعلاء، كل واحد يفتخر بماله، وبإنفاقه، وبما عنده من ثروات، ينتهي المجلس كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يَقْعُدُ قومٌ يذكرون الله عزَّ وجلَّ إلا حَفَّتْهُم الملائكةُ، وغشيتهم الرحمةُ ونزلت عليهم السكينةُ، وذكرهم الله فيمن عنده))

[مسلم والترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري]

((ما من قوم يقومون من مَجلس لا يَذكرونَ اللهَ فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمارٍ))

[أخرجه أبو داود عن أبي هريرة]

والله يا أخوان بعض مجالس الناس مجالس غيبة، ونميمة، حديث عن الدنيا، وتباه، وافتخار، واستعلاء، ينتهي المجلس تشعر بالإحباط لا تستطيع أن تقف على قدميك.

من أعجب العجب أن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير الحديث عنه، ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته ؟

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(١٢٤))

(سورة طه)

٧ ـ من أعجب العجب أن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره:

من أعجب العجب أن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، تعلقت بإنسان قوي لكنه فاسق، غني لكنه فاسق، تعلقت به، عقدت عليه الآمال، تضعضعت أمامه.

وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، ثم لا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، هذا أيضاً من أعجب العجب.

٨ ـ من أعجب العجب علمك أنك لابدّ لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت معرض عنه:

أعجب من هذا علمك أنك لابد لك منه، هو المآل، هو الهدف، المصير إليه، بعد الموت إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها.

من أعجب العجب علمك أنك لابدّ لك منه، وأنك أحوج شيء إليه، وأنت معرض عنه، هل غير الله يرزقنا ؟ يحفظنا ؟ يشفينا ؟ يوفقنا ؟ ينصرنا ؟ يكرمنا ؟ حينما تعلم علم اليقين أن الفوز بمعرفته، والفوز بطاعته، والفوز بالقرب منه، وأن السعادة كل السعادة بالإقبال عليه، تعلم هذه الحقائق، ولا تنطلق إليه، ولا تفر إليه، ولا تقبل عليه، ولا تصطلح معه، ولا تتوب إليه، هذا من أعجب العجب.

من أعجب الأشياء أن تتملك قدرات عالية ثم لا تؤمن ولا تدعو إلى الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام، أعيد عليكم هذه الفائدة، من أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، ومن أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، ومن أعجب العجب أن تحبه ثم لا تطيعه، من أعجب العجب أن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه، ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره، و لا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه، أعجب من هذا علمك أنك لابد لك منه، وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض، وفيما يبعدك عنه راغب، هذا من أعجب العجب.

مرة ثانية: هناك شيء طبيعي قد يكون إيجابياً، وشيء طبيعي جداً قد يكون سلبياً، أما أعجب العجب أن تتملك قدرات عالية ثم لا تؤمن، أن تتملك إمكانات كبيرة ثم لا تنفق، أن تتملك إدراك عميق ثم لا تدعو إلى الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٠٢-٣١) : حب الدنيا رأس كل خطيئة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٨-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أخطر شيء في حياة المسلم أن يعتقد ما يريحه وأن يرفض ما يزعجه:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد الكتاب القيّم لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الفائدة ليس لها نص، ولكنها شرحت، ولعل أقرب نص إليها " حب الدنيا رأس كل خطيئة".

أيها الأخوة الكرام، الإنسان بعقله الباطن يميل إلى أن يعتقد ما يريحه، لو أن إنساناً يبيع مواد غذائية، وقد ألف أن يغش المسلمين، فإذا حضر درس علم، وسمع حديثاً كقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((شفاعتي لأهل الكبائر مِنّ أمَّتي))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أنس بن مالك]

يتعلق بهذا الحديث أشد التعلق، ويغيب عنه أن له معان دقيقة جداً لا تغطيه، لكن يتوهم أن هذا الحديث يغطي غشه فيتمسك به، فالإنسان بعقله الباطن يميل إلى أن يعتقد ما يريحه، ويرفض ما يريحه.

أوضح مثل، إنسانان أرادا أن يشتريا سيارة، الأول اشترى والثاني لم يشترِ، سرت إشاعة في البلد أن هناك تخفيضاً للرسوم ، فالذي اشترى يكذب هذه الإشاعة من دون دليل، لأنه إذا صدقها ينزعج كثيراً، والذي لم يشترِ يصدق هذه الإشاعة من دون دليل لأنها مريحة جداً.

أخطر شيء في حياة المسلمين أن تعتقد ما يريحك، وأن ترفض ما يزعجك، لذلك الإسلام دين عظيم، دين الله، إلا أن الأطراف الأخرى الذين أرادوا أن يكيدوا لهذا الدين ما استطاعوا أن يواجهوه، لكنهم أرادوا تفجيره من الداخل عن طريق الفتاوى، وعن طريق إلغاء السنة، وعن طريق التأويل الباطل، ثلاث وسائل تفجيرية لعظمة هذا الدين ؛ من خلال الفتاوى، ومن خلال التأويلات الباطلة، ومن خلال إلغاء السنة، فلذلك النقطة الدقيقة أن الإنسان إذا حصّل الدنيا أراد أن يبحث عن نصوص تغطي تحصيله للدنيا بطريقة غير مشروعة.

المؤمن لا يسعد إلا بقربه من الله تعالى:

لكن لا بدّ من التنويه إلى حقيقة خطيرة، العالم الرباني يستدل ثم يعتقد، أما الشهواني يعتقد ثم يستدل، هو يريد ما هو عليه، يبحث في النصوص عن نصوص تؤيد مزاعمه، تؤيد سلوكه، فأخطر شيء أن تتصور شيئاً ثابتاً لا تحيد عنه، ثم تبحث عن دليل له، فقد تقبل دليلاً ضعيفاً، وقد تقبل حديثاً موضوعاً، وقد تقبل تأويلاً باطلاً، ذكرت أن إنساناً ذهب إلى فرنسا لينال الدكتوراه، هذه المدينة الواسعة العريقة فيها جامعات، فيها أسواق، فيها معامل، فيها مؤسسات، فيها مسارح، فيها بيوت سكن، علاقته بهذه المدينة نيل الشهادة، نصيبه من هذه المدينة نيل الشهادة فقط، لو حيل بينه وبين هذا الهدف لغادر المدينة، فإذا قلنا لهذا الذي ذهب إلى باريس لينال الدكتوراه: لا تنسى نصيبك من هذه المدينة، نصيبه من هذه المدينة نيل الشهادة فقط.

هناك من يفهم هذه الآية فهماً آخر، لعله مقبول أحياناً لكنه مرفوض في التطبيقات:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (٧٧))

(سورة القصص)

أي استمتع بالحياة، هذا التوجه يناقض أحاديث كثيرة:

((إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

[أحمد عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ]

المؤمن يسعد بقربه من الله، يسعد بزوجة صالحة، بأولاد أبرار، بمأوى نظيف، يسعد بعمل شريف، لكنه لا يسعد بالترف، لا يسعده الترف، وهناك ثمان آيات من كتاب الله المترفون وصفوا وصفاً مذموماً في القرآن الكريم، الترف، البذخ، الإسراف، التبذير.

تفريغ الصلاة من مضمونها يؤدي إلى إضاعتها:

لذلك الآية الأولى المتعلقة بهذا الموضوع:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩))

(سورة مريم)

معنى إضاعة الصلاة أي فرغوها من مضمونها، أجمع العلماء على أن إضاعة الصلاة لا يعني تركها بل يعني تفريغها من مضمونها.

إله عظيم أمرك أن تصلي في اليوم خمس مرات، هل تتصور هذا الأمر ينفذ كما يفعله المسلمون ؟ يقف، ويقرأ، ويركع، ويسجد، وهو في واد آخر، في خواطر أخرى، في هموم معاشه، في مشكلات يعانيها، هذه الصلاة، هذا الأمر بهذا التنفيذ يليق بخالق السماوات والأرض ؟

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكفّ شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

اتباع الشهوات التي لا ترضي الله عز وجل توصل الإنسان إلى الغي:

أيها الأخوة:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩))

(سورة مريم)

فرغت من مضمونها، ومن أدق ما قرأت في قوله تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

(سورة الشعراء)

القلب السليم القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩))

(سورة مريم)

طبعاً ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، بالإسلام لا يوجد حرمان، لكن هناك تنظيم، أودع فيك حب المرأة، قال لك: تزوج، أودع فيك حب المال، قال لك: اكسبه حلالاً.

ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩))

(سورة مريم)

اتبعوا الشهوات التي لا ترضي الله، فسوف يلقون غياً، ولقد لقي المسلمون ذلك الغي.

أيها الأخوة الكرام، هذا القلب السليم لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يُحكّم غير شرع الله، ولا يعبد إلا الله، أكبر إنجاز تحصّله أن تنال من الله قلباً سليماً ليس فيه حقد على أحد، فيه نوايا طيبة، فيه مقاصد نبيلة، فيه طموحات بطولية، فيه التزام، القلب لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يحكم غير شرع الله، ولا يعبد إلا الله.

ابتعاد الإنسان عن التمنيات و التطلعات التي لا توصله إلى شيء:

أيها الأخوة الكرام، آية ثانية تؤكد هذه الحالة أن تعتقد أولاً، أن تتصور أولاً، أن تحب أولاً، أن تقيم شيئاً لا يرضي الله، وتبحث له عن الأدلة، تقبل دليلاً ضعيفاً بتأويل خاطئ، تقبل تأويلاً خاطئاً لآية، المهم أن تغطي نفسك ببعض النصوص، هذه حالة مرضية وما لم ينجُ المسلم منها فهو في مشكلة كبيرة.

أيها الأخوة الكرام، الآية الثانية:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا (١٦٩))

(سورة الأعراف)

والمسلمون في بعض أدعيتهم يا رب نحن عبيد إحسان ولسنا عبيد امتحان، يا رب نحن مقصرون، إن اعترفت بالتقصير ليلاً نهاراً هل تنجو من آثار التقصير ؟ أي طالب لم يدرس أبداً، قبل الامتحان قال: يا رب أنت الكريم، أنت القوي، أنت الموفق، أنا لم أدرس أبداً أريد أن تنجحني، هذا كلام مضحك، هناك أسباب، وقلت قبل هذا الوقت هناك قوانين في دين الله ما لم تأخذ بها لن تصل إلى شيء، أما التمنيات، والتطلعات، والتضعضع أمام النص الصحيح مثلاً، يا رب لا تسألنا عن شيء، الله عز وجل يقو ل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

تريد أن تلغي كتاب الله عز وجل ؟ إذاً:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا (١٦٩))

(سورة الأعراف)

القصد دعك من التعلقات التي لا تقدم ولا تؤخر، هناك قواعد، وهناك قوانين، أنت حينما تسلك هذا السبيل العلمي، حينما تأخذ بالمقدمات تصل إلى النتائج.

الله عز وجل سلسل المحرمات تسلسلاً تصاعدياً:

أيها الأخوة، قد تعجبون حينما يقول الله عز وجل:

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ (٣٣))

(سورة الأعراف)

الفواحش محرمة:

(مَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا (٣٣))

(سورة الأعراف)

كأن الله عز وجل سلسل هذه المحرمات تسلسلاً تصاعدياً:

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا (٣٣))

(سورة الأعراف)

أن تقول على الله ما لا تعلم يقع على رأس المحرمات:

ماذا تتوقعون أن يقع على رأس هذه المحرمات ؟ قال تعالى:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٣))

(سورة الأعراف)

أن تُيَئس الناس من رحمة الله، أو أن تطمعهم بشيء لن ينالوه إلا بعملهم، حينما تتبع حالات، أو طروحات، أو تصورات، أو منطلقات لا أصل لها في الدين، تكون قد قلت على الله ما لا تعلم.

الله عز وجل خلق كل إنسان بإرادة حرة مخيرة بين الحق و الباطل:

إنسان يقول لك: أنا ليس بيدي شيء هكذا كتب الله علي، ماذا تفعل بقوله تعالى؟

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

ماذا تفعل بقوله تعالى ؟

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩))

(سورة الكهف)

ماذا تفعل بقوله تعالى ؟

(و لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ)

(سورة الأنعام الآية: ١٣٢)

ماذا تفعل بقوله تعالى ؟

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية: ١٤٨)

ماذا تفعل بقوله تعالى ؟

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

بطولة الإنسان أن تأتي تصوراته وفق القرآن الكريم:

أيها الأخوة الكرام، البطولة أن تأتي تصوراتك وفق القرآن الكريم، أن تأتي مقاييسك وفق القرآن الكريم، دائماً أي حدث له تفسيرات، له تعليلات، له طروحات، هناك طروحات أرضية، طروحات شركية، طروحات أساسها الهوى، طروحات أساسها الحقد، البطولة أن تعتمد التفسير الإلهي، أحياناً يجتاح بلد، لهذا الاجتياح تفسيرات سياسية، تفسيرات دولية، تفسيرات إقليمية، تفسيرات محلية، تفسيرات طائفية، لكن الله عز وجل ماذا يقول ؟

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

أنا أتمنى أن ترفض أي تحليل أو تفسير أرضي شركي، وأن تعتمد التحليل والتفسير الإلهي في القرآن الكريم.

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

آية أخرى تؤكد هذه الفائدة القيمة في كتاب الفوائد لابن القيم، قال تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا (١٧٥))

(سورة الأعراف)

أي لم يأخذ بها، أخذ بأهوائه:

(فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ(١٧٥)وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا (١٧٦))

(سورة الأعراف)

لو استسلم لنا، لو أناب إلينا، هذه الآيات رفعناه بها:

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ (١٧٦))

(سورة الأعراف)

مرة سألني صاحب مطعم يبيع الخمر قال لي: ماذا أفعل ؟ أنا في هذا المطعم مكان والدي، والدي لا يوافق، هل يمكن أن تنجو من عذاب الله إذا كنت مطيعاً لوالدك في معصية ؟ سيدنا سعد بن أبي

وقاص قالت له أمه: إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت، فقال: يا أمي لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة واحدة ما كفرت بمحمد فكلي إن شئت أو لا تأكلي .

إذاً هناك قضايا خاضعة للمساومة، أما بحياة المؤمن هناك قضايا لا تقبل المساومة أبداً، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، بالقرآن أمثلة رائعة:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(١١))

(سورة التحريم)

فرعون بكل جبروته، بكل قوته، بكل طغيانه، ما استطاع أن يحمل زوجته على عبادته، في أمور الدين والآخرة يقول له: أرضى عليك إن طلقت زوجتك، قال لي: والله زوجتي صالحة، مستقيمة، محجبة، لكن أبي لا يحبها، قلت له: لا تطلقها، قال سيدنا عمر عندما أمر ابنه أن يطلق زوجته طلقها، قلت له: أبوك عمر ؟ أبوك ليس عمر، سيدنا عمر عندما أمر ابنه أن يطلق زوجته لأمر أخروي، لأمر متعلق بالآخرة، أما أبوك لأمر متعلق بالدنيا ليس في الآخرة.

العبرة في المقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني:

لذلك:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ (١٧٥))

(سورة الأعراف)

أي إذا غيرت الاسم يتغير الحكم ؟ مثلاً لو قلت: بعتك هذا الكتاب بلا ثمن، هذا عقد هبة، مع أن باللفظ يوجد بيع، لو قلت: وهبتك هذا المصحف بمئة ليرة عقد بيع لا تقل وهبتك بخمسمئة ليرة، فالعبرة في المقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني، لذلك:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا (١٧٥))

(سورة الأعراف)

فرغها من مضمونها، جعلها بتفسير لا يقدم ولا يؤخر، إذاً هذا الذي يؤول الأمور لصالحه، لصالح شهواته، لصالح مكاسبه، لصالح أهوائه هو من تعنيه هذه الآية.

من فرغ الآيات من مضمونها و غوى بعد الرشد سيفارق الإيمان و لن يعود إليه أبداً:

الشيء الثاني: فارق الإيمان ولن يعود إليه أبداً:

(فَانسَلَخَ مِنْهَا (١٧٥))

(سورة الأعراف)

آية قرآنية تفرغها من مضمونها ؟ الشيطان أدركه، ولحق به، وظفر به، لذلك:

(فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ (١٧٥))

(سورة الأعراف)

وقد غوى بعد الرشد، وأنه سبحانه وتعالى لم يشأ أن يرفعه بالعلم، كان العلم سبب هلاكه، تعلم ليتنصل، تعلم ليلغي حكم آية، هذا العلم الخطير أن تتعلم كي تغير وحي السماء.

شيء آخر، اختار الأدنى، اختار الدنيا:

(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ(١٧٦))

(سورة الأعراف)

إن نصحته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال.

الابتعاد عن الفتاوى المضللة و التصورات الخاطئة:

أيها الأخوة، ابتعد عن تصورات غير صحيحة، ابتعد عن فتاوى ضالة، ابتعد عن تفسيرات خاطئة، إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

((ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[العلل لابن أبي حاتم]

أيها الأخوة، الإنسان حينما يولد كل من حوله يضحك ويفرح وهو يبكي وحده، فإذا وافته المنية كل من حوله يبكي فإذا كان بطلاً يضحك وحده.

((من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدِّر له))

[الترمذي عن أنس]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٠٣-٣١) : عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٨-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها:

١ ـ علم لا يُعمل به:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة قيّمة من كتاب ابن القيم الفوائد، هذه الفائدة عنوانها عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها، أي تاجر حينما يستورد صفقة، ويجهد جهداً كبيراً في بيعها، وفي المحصلة لم يربح بها شيئاً، يتألم أشد الألم، لأنه جهد ضائع، ومال لم ينتفع به، والخسارة مؤلمة جداً، وقبل: الخسارة أن يضيع وقتك سدى، أن يضيع جهدك سدى، لذلك ابن القيم رحمه الله تعالى يقول: عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: أولها علم لا يعمل به.

العلم ما انتفعت به و إذا لم تنتفع به لا قيمة له، مرة وقع تحت يدي كتاب صُدّر بأربعة أدعية مؤثرة جداً، الدعاء الأول يقول: " اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني ".

أي أنت تتعلم، تتعب، تبذل جهداً، تشرح، توضح، تحلل، لكنك لم تطبق هذا العلم، يأتي إنسان لا تعب ولا اجتهد، سمع الحديث فقنع به، طبقه، قطف كل ثماره، مصيبة كبيرة جداً، اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني، لذلك العلم الذي لا يعمل به جهد ضائع.

٢ ـ عمل لا إخلاص فيه و لا اقتداء:

شيء آخر: وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء، إنسان صلى في الصف الأول في صلاة الفجر أربعين عاماً، في أحد الأيام غلبته نفسه فتغيب عن الصلاة فقال: ماذا يقول الناس عني هذا اليوم ؟ معنى هذا أنك في الأربعين عاماً فعلت هذا من أجل أن تنتزع إعجاب الناس، العمل بلا إخلاص لا قيمة له، عمل ضائع:

((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى))

[أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب]

لو الإنسان تتبع أعماله قد يكتشف ـ والحقيقة مرة ـ أنه ليس مخلصاً الإخلاص الكافي، لذلك قالوا: هناك إخلاص يحتاج إلى إخلاص، تبذل جهداً دون أن تشعر من أجل أن تنتزع إعجاب الناس، من أجل أن تصرف وجوههم إليك، من تعلم العلم ليجادل به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف وجوه الناس إليه فليتجهز إلى النار.

ارتباط قيمة العمل بنيته:

النية خطيرة جداً:

((إنما الأعمال بالنيات))

[أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب]

قيمة العمل بنيته، مثلاً لو قدمت لإنسان شراباً لذيذاً، وتعلم أن هذا الشراب يؤذي معدته، وأنت بنية إيذاء معدته تحاسب حساباً شديداً، مع أن الظاهر قدمت له شراباً لذيذاً، ولو أعطيته دواءً وفي نيتك أن يشفى به فازداد مرضه ترقى عند الله رقياً:

((إنما الأعمال بالنيات))

[أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب]

فلذلك قيمة العمل بالرؤيا التي قبله، بالتصور الذي قبله، بباعث الحركة الذي سبقه، لذلك الإخلاص الإخلاص لأنه من دون إخلاص لا ينفعك كثير العمل ولا قليله، ومع الإخلاص ينفعك قليل العمل.

علم لا يعمل به جهد ضائع، حجة عليك، ندم يوم القيامة، أي إنسان على وشك أن يموت عطشاً، فإذا عرف مكان الماء، ولم يذهب إليه، ومات من العطش، قبل أن يموت يزداد ألماً لأنه علم ولم يعمل، لذلك قال تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(٧))

(سورة الفاتحة)

المغضوب عليهم عرفوا وانحرفوا، الضالون ما عرفوا وانحرفوا، الذي عرف وانحرف ندمه أشد، لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ (١٤٥))

(سورة النساء)

علمٌ لا يُعملُ به، وعملٌ لا إخلاص فيه ولا اقتداء.

٣ ـ مال لا ينفق منه:

الآن، ومالٌ لا يُنفقُ منه، إنسان ترك ملايين مملينة وتوفي، رأى صديق المتوفى ابن المتوفى في الطريق سأله سؤال المستفهم إلى أين أنت ذاهب ؟ فقال له: أنا ذاهب لأشرب الخمر على روح والدي.

أنت حينما لا تعلم أولادك هذا المال الذي تركته لهم إثم كبير لأن طريقة إنفاق المال قد تلحق بالمتوفى.

ومالٌ لا يُنفقُ منه، لذلك العلماء فرقوا بين الكسب والرزق، الرزق ما انتفعت به، الطعام الذي تأكله، الثياب التي تلبسها، البيت الذي تأوي إليه، الفراش الذي تنام عليه، هذا الرزق، أما الكسب الرقم في المصرف، حبر على ورق، ثمانية وثلاثون مليوناً، أكل وجبة متواضعة، ونام على سرير واحد، وارتدى ثياباً واحدة، فالكسب محاسب عليه ولو لم تنتفع منه، أما الرزق كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:" ليس لك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت ".

علم جهد ضائع لا يُعمل به، عمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء، مال لا ينفق منه، فلا يستمتعُ به جامعُهُ في الدُّنيا، ولا يقدِّمُهُ أمامه إلى الآخرة.

والبخل والشح أمراض وبيلة يعيش فقيراً ليموت غنياً.

٤ ـ قلبٌ فارغٌ من محبّةِ الله:

شيء رابع، وقلبٌ فارغٌ من محبّةِ الله، ساهٍ ولاهٍ، لذلك قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

(سورة الشعراء)

القلب السليم، هو القلب الذي لا يشتهي شهوة لا ترضي الله، ولا يصدق خبراً يتناقض مع وحي الله، ولا يُحكّم غير شرع الله، ولا يعبد إلا الله، قلب فارغ ليس فيه محبة لله، يتحدث معك ساعات طويلة في أمور الدنيا، لو أن الإمام أطال بالآية هناك من ينتقد الإمام، لكن وهو واقف في الطريق يبقى ساعتين، والحديث عن مشاريع التجارة، وأسعار العملات، والاستثمارات، قلب فارغ من محبة الله مشغول بالدنيا، وحبك الشيء يعمي ويصم.

٥ ـ بدنٌ معطّلٌ من طاعتهِ وخدمة خلقه:

بدنٌ معطّلٌ من طاعتهِ وخدمة خلقه، لا يتحرك إلا بعمولة، لا يتكلم كلمة إلا بأجر، لو دلك على شيء يريد أجراً، لا يتحرك ولا يتكلم ولا يدلك إلا بمال، بدنٌ معطّلٌ من طاعتهِ وخدمة خلقه.

٦ ـ محبّةٌ لا تتقيدُ برضاءِ المحبوبِ:

الآن إذا أحب يحب محبوباً لا يحبه الله، إذا أبغض يبغض جهة يحبها الله، محبته وكراهيته لا علاقة لها بإيمانه يحب من ينتفع منه، يحب من يعظمه، يكره من ينصحه، فحبه وبغضه ليسا متقيدين بالشرع.

إذاً علمٌ لا يُعملُ به، عملٌ لا إخلاص فيه، ومالٌ لا يُنفقُ منه، قلبٌ فارغٌ من محبّةِ الله، بدنٌ معطّلٌ من طاعتهِ وخدمة خلقه.

لو أحب محبته لا تتقيد برضاءِ المحبوبِ وامتثالِ أوامرهِ.

٧ ـ وقتٌ معطلٌ عن استدراكِ ما فرط أو اغتنام عمل صالح:

والآن الوقت: يسهر لساعات طويلة في لعب النرد، في متابعة المسلسلات، وقتٌ معطلٌ عن استدراكِ ما فرط، أنت وقت، أنت بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، فالوقت المعطل عن استدراك ما فرطت سابقاً، إنسان اصطلح مع الله، هذا الوقت الثمين يمكن أن يعوض ما فاته من عمل صالح، من طلب للعلم، أنت بضعة أيام، ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، تزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة، وقتٌ معطلٌ عن استدراكِ ما فرط أو اغتنام برٍّ أو عمل صالح لا يتحرك إلا لمصلحته.

٨ ـ فكرٌ يجولُ فيما لا ينفعُ:

الآن وفكرٌ يجولُ فيما لا ينفعُ، أحياناً الإنسان ينغمس في متابعة الأخبار المحلية، والعربية، والإسلامية، والدولية، يتابع التعليقات والتصريحات، مهما تتبعت الأخبار، مهما تعمقت في فهمها، مهما حللتها، ماذا فعلت في النهاية ؟ ما فعلت شيئاً، اعمل عملاً تتقرب به إلى الله عز وجل، أي فكرٌ يجولُ فيما لا ينفعُ، يقول لك قرأت الأوديسا ؟ ما قرأتها ؟ لا ولله، سبعة آلاف بيت كلها آلهة وشرك لكن صياغتها رائعة، قرأت ديوان فلان ؟ لا والله، مشغول بموضوعات لا تقدم ولا تؤخر، ولا ترتقي بالإنسان، ولا ينتفع بها لكنها ممتعة، لو رأيت الناس كيف يمضون أوقاتهم إما في معاصي اللسان ؛ الغيبة والنميمة، أو في مثيرات تحفزهم إلى المعاصي والآثام، أو في مواضيع لا قيمة لمن أدركها، مرة دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى المسجد رأى نسابة، سأل سؤال العارف من هذا ؟ قالوا: هذا نسابة، فقال النبي وما نسابة ؟ قال: علم بأنساب العرب، قال: ذلك علم لا ينفع من تعلمه ولا يضر من جهل به.

الوقت ثمين.

٩ ـ خدمةُ إنسان لا تقرِّبُك خدمتهُ إلى الله:

شيء آخر ضائع: خدمة من لا تقرِّبُك خدمتهُ إلى الله، أحياناً يخدم إنساناً منحرفاً، فاسقاً، يحب أن يظهر أمامه أنه بطل، همه انتزاع إعجابه، همه أن يبتسم أمامه، هذا الشخص مقطوع عن الله، تخدمه متوهماً أن بيده شيئاً، ولا أحد ينفعك إلا الله، هو المعطي، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعز، هو المذل.

١٠ ـ خوفُكَ ورجاؤك لمن ناصيتُهُ بيد الله:

شيء آخر: خوفُكَ ورجاؤك لمن ناصيتُهُ بيد الله، تخاف من إنسان بيد الله، في قبضة الله، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

هذا الذي تخافه، هذا الذي ترجوه، هذا الذي تعلق عليه الآمال، هذا الذي تتوهم أن رضاه عنك يرفعك إلى أعلى عليين، وأن سخطه عليك يهوي بك إلى أسفل سافلين، أنت واهم هو بيد الله، في قبضة الله، حاول أن ترضي خالقك، حاول أن ترضي من إليه المصير، حاول أن ترضي من وعدك بجنة عرضها السماوات والأرض.

وخوفُكَ ورجاؤك لمن ناصيتُهُ بيدِ الله، وهو أسيرٌ في قبضة الله، ولا يملكُ لنفسهِ ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نُشوراً.

هذا هو الشرك الأصغر، هذا هو الشرك الخفي أخفى من دبيب النملة السمراء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء.

أعظم الإضاعات إضاعتان إضاعةُ القلبِ وإضاعةُ الوقت:

قال: وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان، عشرة أشياء، علمٌ لا يُعملُ به، وعملٌ لا إخلاص فيه، ومالٌ لا يُنفقُ منه، وقلبٌ فارغٌ من محبّةِ الله، وبدنٌ معطّلٌ من طاعتهِ وخدمة خلقه، ومحبّةٌ لا تتقيدُ برضاءِ المحبوبِ، ووقتٌ معطلٌ عن استدراكِ فارطٍ أو اغتنامِ عمل صالح، وفكرٌ يجولُ فيما لا ينفعُ، وخدمةُ إنسان لا تنفعك خدمه، وخوفُكَ ورجاؤك لمن ناصيتُهُ بيدِ الله، هذه عشرة أشياء وهو

أسيرٌ، لكن أعظم هذه الإضاعات إضاعتان إضاعةُ القلبِ وإضاعةُ الوقت، إضاعة القلب حينما تملؤه بحب الدنيا، حينما تؤثر الدنيا على الآخرة، حينما تؤثر حياة قصيرة على حياة أبدية، فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، أما إضاعة الوقت يأتي من طول الأمل.

والله حدثني إنسان عن خططه لعشرين سنة قادمة، وفي المساء قرأت نعوته في اليوم نفسه، طول الأمل.

الفسادُ يجتمع في اتباع الهوى وطولِ الأمل و الصلاحُ يجتمع في اتباع الهدى و لقاء الله:

أيها الأخوة، الفسادُ كلهُ يجتمع في اتباع الهوى وطولِ الأمل، والصلاحُ كلهُ يجتمع في اتباعِ الهدى والاستعداد للقاء الله عز وجل .

لذلك بعد الخمسين هناك ضعف بصر، و نظارات، أحياناً هناك أدوية معينة، هناك التهاب مفاصل، و أشياء متعبة، أنا أرى هذه رسائل من الله أن يا عبدي قد اقترب اللقاء هل أنت مستعد له ؟

إلى متى وأنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقام شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

***

العجب ممن تعرض له حاجة، أي يتمنى أن يرسل في بعثة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يسأله الآخرة، يسأله الدنيا فقط، يسأله زواجاً، امرأة، يسأله مكانة، شهادة، عملاً، فرصة، مالاً، ونسي الآخرة، هذا الذي يقتصر في سؤال الله عن دنياه وينسى الآخرة فقد ضيّع أيضاً وقتاً ثميناً.

أيها الأخوة الكرام، أخطر شيء في حياة الإنسان الشهوات والشبهات، الشهوات نفسية، الشبهات فكرية، فهذه الأشياء العشرة أرجو الله عز وجل بدل أن نضيعها أن ننتفع بها.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٠٤-٣١) : ألا يارب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا يارب مهين لنفسه وهو لها مكرم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٨-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس هناك من طريق إلى إكرام النفس من أن تحجمها في الدنيا وتحملها على طاعة الله:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيم لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ فحوى هذه الفائدة أنه: ألا يا رُبّ مكرم لنفسه في الدنيا وهو لها مهين، ألا يا رُبّ مهين لنفسه وهو لها مكرم، هناك مفارقة واضحة بين الدنيا والآخرة، فالذي يحاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً يكون حسابه يوم القيامة يسيراً، والذي يحاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً يكون حسابه يوم القيامة حساباً عسيراً.

أيها الأخوة، أنت حينما تخطئ وتستغفر ترقى عند الله، وعندما تخطئ، وتكون قوياً، وتتجاهل أنك أخطأت، وتأبى أن تعتذر متوهماً أنك بهذا تكرم نفسك أنت عند الله مهان، هناك مفارقة دقيقة جداً بين الدنيا والآخرة، ليس هناك من طريق إلى إكرام النفس في حياة أبدية فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أن تحجمها في الدنيا، من أن تضبطها، من أن تحملها على طاعة الله، من أن تحملها على أن تعتذر، أن تستغفر، أن تقدم عملاً صالحاً ترمم به ذنبك، ما دمت في الدنيا مستكبراً فأنت تهين نفسك في الآخرة، وما دمت مهيناً لنفسك في الدنيا فأنت مكرم لها في الآخرة.

ألا يا رُبّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رُبّ مهين لنفسه وهو لها مكرم.

بقدر ما تمرغ جبهتك في أعتاب الله يرفع الله لك ذكرك ومكانتك ويعلي شأنك:

لذلك قال ابن القيم: " لا يكرم العبد نفسه بمثل إهانتها ". أنت حينما تتذلل على الله، حينما تقف على أعتاب الله، حينما تمرغ وجهك في أعتاب الله، أنت بهذا تكرمها وتحفظها، وما دمت فيما بينك وبين الله متذللاً فالله يرفع من قدرك:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(١)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(٢)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(٣))

(سورة الشرح)

دقق:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(٤))

(سورة الشرح)

بقدر ما تمرغ جبهتك في أعتاب الله يرفع الله لك ذكرك ومكانتك، ويعلي شأنك، وبقدر ما تعتز بنفسك، بعلمك، باختصاصك، بأسرتك، بانتمائك، بمن حولك، الله عز وجل يمكن أن يحجمك، أو أن يضعك في موقف صعب جداً.

فلذلك يقول ابن القيم: لا يكرم العبد نفسه بمثل إهانتها، بمعنى أن يحجمها، بمعنى أن يتذلل لله، أن يتواضع، أن يمرغ جبهته بأعتاب الله، ولا يعزها بمثل ذلها، التذلل فيما بينك وبين الله عزّ لك، والذي تأخذه العزة بالإثم فلا يستغفر، ولا يعتذر، وهو قوي غني، كأنه في طريق إذلال نفسه، ولا يريحها بمثل ما يتعبها، إن أتعبت نفسك في الدنيا أديت العبادات بشكل متقن، ضبطت لسانك، ضبطت بصرك، ضبطت دخلك، ضبطت إنفاقك، استغفرت من ذنبك، ذكرت الله كثيراً، ناجيته كثيراً، خضعت له كثيراً، أنت في طريق العز، وفي طريق الإكرام، وفي طريق الحرية.

من السذاجة وضعف التفكير والمحدودية أن يتوهم الإنسان أن الجنة تكون بركعتين فقط:

قال بعض العارفين: سأتعب نفسي أو أصادف راحة، أتعب نفسي من أجل أن أصادف راحة ـ أي في الدنيا ـ من واقع الدنيا، طالب طمح أن يكون من المتقفين ثقافة عالية، فاجتهد في سنوات الدراسة في التعليم الإعدادي، والثانوي، والجامعي، والماجستير، والدكتوراه، ترك النزهات، ترك اللقاءات مع أصدقائه، ترك الرحلات، ترك كل مباهج الحياة، من أجل أن ينال درجة عليا، فلما نالها وكان له منصب رفيع، أو دخل كبير، هذا في منطق أهل الدنيا، الآن يستمتع في الدنيا له مكانة، له شأن، يأكل ما يشتهي، يقتني بيتاً جميلاً، يختار امرأة جميلة صالحة، كل هذا العز، وهذا الرفاه، وهذه البحبوحة، جاءته من الضبط من سنوات طويلة عجاف درس وسهر الليل، والإنسان الذي يرتاح في شبابه لا يدرس ـ أتكلم بمنطق الدنيا فقط ـ لا يتابع تحصيله، لا يهتم بمستقبله، ينام إلى الظهر، يأكل ما يشتهي، يكبر لا يوجد شيء، لا علم، ولا تجارة، ولا مكانة، ولا وظيفة، ساعتئذ يتألم على تفريطه فيما مضى.

مرة ضربت مثلاً أن طبيباً درس الطب في جامعة، وتعب تعباً كثيراً، لم يكن ينام الليل، فلما تخرج وكان له شأن كبير، ودخل كبير، مرّ أمام الجامعة و قال: لولا هذه الجامعة، لولا الدراسة في هذه الجامعة، لولا السهر إلى أنصاف الليالي، لولا التعب المضني، لولا المتابعة، ما كنت بهذا المنصب.

من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة:

لذلك المؤمن يوم القيامة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر الآية: ٨٧)

لولا أننا جئنا إلى الأرض، وعبدنا الله في الأرض، وأدينا الصلوات في الأرض، وأنفقنا من أموالنا في الأرض، وأمرنا بالمعروف في الأرض، ونهينا عن المنكر في الأرض، واستقمنا على أمر الله في الأرض، وعملنا الأعمال الصالحة في الأرض، ما كنا في الجنة.

بمنطق الدنيا الذي يتعب كثيراً يجني كثيراً، والذي يرتاح في بداية حياته يتعب في آخر حياته. فلذلك من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، الأمور دقيقة جداً، ومن طلب الآخرة من دون عمل فهو أحد ذنوبه، ألا إن سلعة الله غالية، ألا أن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية، من السذاجة، وضعف التفكير، والمحدودية، أن تتوهم أن الجنة تكون بركعتين وبليرتين وانتهى الأمر، تعيش كما تشتهي، ما لم تنضبط انضباطاً شديداً، ما لم تستيقظ وأكبر همك الآخرة، خسرت كل شيء.

العاقل و الناجح هو الذي يعيش المستقبل ويتكيف معه:

أيها الأخوة، حينما تضغط على نفسك في الدنيا تعزها في الآخرة، حينما تشدد على نفسك في الدنيا تريحها في الآخرة، حينما تحاسب نفسك في الدنيا حساباً شديداً يكون حسابك يوم القيامة يسيراً، حينما تأمن من عقاب الله في الدنيا يكون العقاب في الآخرة، وحينما تخاف من عقاب الله في الدنيا يكون العفو في الآخرة، هناك حالات فيها مفارقات فيما بين الدنيا والآخرة.

قال: لا يشبعها بمثل أن يجيعها، تجوع لتشبع، لا تأمن إلا إذا خفت من الله، لا يؤنسها بمثل وحشتها، هذا المنطق منطق الدنيا والآخرة.

مرة حدثني أخ قال: بيتي في أحد أحياء دمشق، المركبة العامة التي تقلني إلى البيت تقف في مركز المدينة في ساحة المرجة، هذه المركبة تقف باتجاه الشرق، وفي أيام الصيف الحارة تكون الشمس المحرقة على الجانب الأيمن من المركبة، لكن هذه المركبة وهي في طريقها إلى هدفها لا بد من أن تدور دورة حول مركز الساحة، بهذه الدورة تنعكس الآية، يصعد إلى المركبة إنسان فيجد على اليمين شمساً محرقة، وعلى اليسار ظل ظليل، فبدافع رغبته في الراحة يجلس في الظل، بعد دقيقتين حينما تتم دورة المركبة حول النصب التذكاري في المرجة تنعكس الآية، يصاب بأشعة الشمس المحرقة طوال الطريق، يصعد إنسان آخر يفكر، يجلس في الشمس ويدع الظل، عاش المستقبل، بعد هذه الدورة الصغيرة المركبة باتجاه الشرق والطريق باتجاه الغرب فلا بد لهذه المركبة من أن تدور دورة في هذه الساحة، في هذه الدورة تنعكس الآية، من هو العاقل ؟ من هو الذكي ؟ من هو الموفق ؟ من هو الفالح ؟ من هو الناجح ؟ هو الذي يعيش المستقبل ويتكيف مع المستقبل، وما من

تعريف جامع مانع دقيق للذكاء ككلمة التكيف، الذكاء هو التكيف، فالمؤمن يتكيف مع حدث مستقبلي لا بدّ منه هو الموت، معظم الناس يفاجؤون بالموت لكن المؤمن مستعد للموت، من بدأ معرفته بالله بدأ يستعد للموت، يستعد للموت بالعمل الصالح، يستعد للموت بالانضباط، بالاستقامة، بتربية أولاده، بطلب العلم، فالموت يستعد له بهذه الطريقة، فلذلك الإنسان إذا ضحك في أول حياته كثيراً يبكي في آخر حياته كثيراً، والذي يبكي في أول حياته كثيراً يضحك في آخر حياته كثيراً.

بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل ويبحث عن عمل للمستقبل يرفع من قيمة الحاضر:

البطولة أن تعيش المستقبل، والتغني بالماضي والواقع لا يشابهه غباء في غباء، الآن الأمة الإسلامية لها ماض مجيد لا شك فيه أبداً، لكن واقعها ليس مجيداً، واقعها فيه مآس، فيه تخلف، فيه تناحر، فيه خصومات، فيه دماء تسيل، فيه تخلف عام، فيه بطالة عالية، فيه عنوسة عالية، فيه أمية عالية، فالتغني بالماضي والحاضر لا يشبه الماضي سلوك غير ذكي، وغير عاقل، وغير مقبول، بينما البحث عن عمل للمستقبل يرفع من قيمة الحاضر، هذا هو العمل المطلوب، فأنت دعك من الماضي، دعك من التغني بالأجداد، أنت أين منهم ؟ أين أنت منهم ؟ أين أنت من بطولاتهم.

أكاد أؤمن من شك ومن عجب هذه الجماهير ليست أمة العرب

***

العرب لهم أمجاد، لهم شيم، تمتعوا بالشجاعة، بالفروسية، تمتعوا بالكرم، والإباء، عنترة العبسي في الجاهلية قال:

وَأَغضُّ طرفي ما بَدَت لي جارَتي حَتّى يُواري جارَتي مَأواها

***

أسلمت يا فلان على ما أسلفت من خير، خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام، الآن هناك مناظير إذا كان هناك نافذة مفتوحة بالمنظار يرى ما بداخلها، أين وَأَغضُّ طرفي ما بَدَت لي جارَتي؟

فيا أيها الأخوة، دعك من الماضي دون أن يكون هذا الترك تحجيماً له، الماضي عظيم، الماضي مشرف، العرب والمسلمون وصلوا إلى أطراف العالم، إلى أطراف الصين، وإلى أطراف باريس، بفتوحاتهم، لكن وصلوا بانضباطهم، وصلوا بأخلاقهم، وصلوا بطاعتهم لله.

المؤمن هدفه واضح و أسعد لحظات حياته تكون عند الموت:

أيها الأخوة، نحن في أمس الحاجة إلى أن نعرف الله معرفة تحملنا على طاعته في الدنيا، فلذلك الدنيا فيها انضباط، فيها استقامة، فيها عمل صالح، فيها غض بصر، فيها ضبط لسان، فيها ضبط

دخل، فيها ضبط إنفاق، فيها معونة، فيها دعوة إلى الله، أما الذي يفهم الدنيا طعاماً، وشراباً، ونزهات، واستعلاء، وكبر، وتمتع بالدنيا، هذا فهم أحمق، فهم غبي، فهم يدفع ثمنه بعد فوات الأوان.

من كلمات ابن القيم في هذه الفائدة: " سبحان الله ، تزينت الجنة للخطّاب فجدوا في تحصيل المهر كل سعادتهم ".

كيف أن إنساناً يخطب فتاة جميلة جداً، بعد أن يوافق أهلها على الزواج يسعى جاهداً لتأمين الأموال، تأمين البيت والأثاث، هو في أعلى درجات السعادة، وهو يتعب، وهو لا ينام الليل، وهو يضنى من أجل أن يصل إلى هذه الفتاة بعد الدخول.

لذلك المؤمن هدفه واضح، مرة ذكرت مثلاً، لو أن إنساناً يتمتع بقدرات فكرية عالية جداً، وجاءه عرض إن أتيت بالدكتوراه تكون في أعلى منصب، وتسكن أجمل بيت، وتقتني أجمل مركبة، وتتزوج امرأة تروق لك، الشرط أن تنال هذه الشهادة، ولن نعطيك درهماً واحداً حتى تنال هذه الشهادة، تعمل، وتدرس، وتسافر إلى بلد غربي، وتلتحق بالجامعة، وتشتغل في مطعم، وتشتغل حارساً، عمل مضني وشاق ومهين أحياناً، والدراسة في الليل، تمضي سبع سنوات في أصعب مراحل حياتك، ودخل قليل، وبرامج صعبة، ومناهج طويلة، وأساتذة يتفننون بإتعاب الطلاب، درس، بعد سبع سنوات نال الدكتوراه، أخذ المصدقة، صدقها بالخارجية بالسفارة، قطع تذكرة العودة، أقول لكم: حينما يضع رجله في أول درج الطائرة هو أسعد إنسان في الأرض، هذا اليوم يوم فصل بين التعب وبين الراحة، بين الذل ـ أحياناً عامل بمطعم له صاحب قاس جداً يبالغ في إهانته ـ وبين أن يصبح في منصب رفيع، هذه اللحظة لحظة الموت إذا كنت بطلاً تجعل من الموت عرساً ، تجعل من الموت يوم الجائزة، تجعل من الموت يوم التحفة، كل هذا التعب لهذه اللحظة، لذلك الصحابة الكرام كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند موتهم.

الغنى والفقر بعد العرض على الله:

سيدنا سعد بن الربيع تفقده النبي عليه الصلاة والسلام فلم يجده مع أصحابه، كلف أحد أصحابه أن يتفقده في ساحة المعركة، ذهب إلى ساحة المعركة رآه بين الجرحى يئن، قال له: يا سعد، أنت مع الموتى أم مع الأحياء ؟ قال له: مع الموتى، يبدو أن جراحه بالغة لكن أبلغ رسول الله مني السلام أن جزاه الله خير ما جزى نبي عن أمته، يبدو أنه كان في أسعد لحظات حياته، وبلغ أصحابه أنه لا عذر لكم إذا خُلص إلى نبيكم، وفيكم عين تطرف.

فلذلك الإنسان حينما يخطط، حينما يفكر في النهاية، مرة في البرمجة العصبية اللغوية فيها قاعدة رائعة جداً يقول لك: ابدأ من النهاية، كيف أطبق هذه القاعدة في الدين ؟ ابدأ من الموت، مهما حصّلت من أموال الدنيا المصير إلى القبر، مهما ارتقيت من مناصب الدنيا، مهما جمعت من أموال

الدنيا، مهما نلت من درجات الدنيا، هناك قبر، ماذا في القبر؟ فيه عمل صالح، لذلك الغنى والفقر بعد العرض على الله.

من جهد في معرفة الله في الدنيا سعد بجنته في الآخرة:

أيها الأخوة الكرام، ألخص هذا الذي قلته قبل قليل، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم، تنضبط في الدنيا تسعد في الآخرة، تقيد حركتك في الدنيا تكون طليقاً في الآخرة، تجهد في معرفة الله في الدنيا تسعد بجنته في الآخرة، و لا يوجد حدث واقعي يساوي أن تعرف الله.

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء))

[من مختصر تفسير ابن كثير]

الدنيا قصيرة، ومحدودة، وزائلة، وفي الموت تعرف ما قيمة العمل الصالح، ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يمشي مع أصحابه أمام قبر، فقال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[ورد في الأثر]

أي أن تأتي من البيت لتصلي الفجر في وقته، وفي بيت من بيوت الله، وتستمع إلى درس علم، هذا في الدنيا لا أحد يعرف قيمته، معظم الناس نائمون وأنت مستيقظ في بيت من بيوت الله، لكن يوم القيامة هؤلاء الذين عرفوا الله في الدنيا لهم أعلى مكانة، وهناك آية تقول:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس)

هذا الذي غرق في شهواته، وفي مباهج الدنيا، واستعلى على الخلق واستكبر:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٠٥-٣١) : للعبد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٨-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

للعبد ستر بينه وبين الله:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد الكتاب القيم " الفوائد " لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ من هذه الفوائد، للعبد ستر بينه وبين الله، الستر غير ستر، ستر مصدر، عملية إرخاء الستر تسمى ستراً، أما هذا القماش الذي يوضع على النوافذ يسمى ستراً، كالشق والشق، للعبد ستر بينه وبين الله، أي هناك خطوط حمراء المؤمن لا يجتازها، لا يكذب، لا يحتال، لا يخون، لا يستهزئ، لا يستعلي، لا يستكبر، بحياة المؤمن خطوط حمراء كثيرة، الإيمان قيد الفتك لا يفتك، لا يغش، لا يحتال، لا ينتقم، لا يقسو، لا يكيل الصاع بصاعين:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

(سورة الشورى الآية: ٤٠)

الصاع بصاعين، غير صحيح، للعبد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس، أي له مكانة، الناس يهابونه، يحترمونه، يظنون به خيراً، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الستر الذي بينه بين الناس، لمجرد أن تسوء علاقتك بالله، الله عز وجل يعاقبك بأن يفسد العلاقة بينك وبين الناس.

من أصلح علاقته مع الله أصلح الله علاقته مع الناس:

لذلك الأصل أن تكون علاقتك بالله طيبة، لذلك قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال الآية: ١)

أي أصلحوا علاقتكم مع الله، المعنى الثاني واصلحوا علاقتكم مع الخلق، أنا من حين لآخر تأتيني رسالة تهنئة أجيب عليها بما يلي، أقول: أسأل الله أن يجعل علاقتك مع الخالق ومع الخلق علاقة طيبة، البطولة لا أن تكون ذكياً، تتمتع بذكاء اجتماعي، تكون علاقتك بهذا الذكاء مع الخلق طيبة، البطولة أن تكون علاقتك بالله طيبة، من نتائج هذه العلاقة الطيبة الله عز وجل يجعل علاقتك بالناس طيبة، هناك حديث يقول: "من أصلح علاقته مع الله أصلح الله علاقته مع الناس ".

قال: فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه بين الناس.

تذهب مكانتك، يذهب تألقك، تذهب هيبتك، فلذلك الأصل أن تحسن العلاقة مع الله :

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء))

[من مختصر تفسير ابن كثير]

أي علاقتك مع ربك إن صحت تصلح علاقتك مع زوجتك، ومع أولادك، ومع جيرانك، ومع أخوانك، ومع من حولك، ومع من فوقك، ومع من تحتك.

هذه فائدة من فوائد كتاب الفوائد لابن القيم رحمه الله تعالى.

للعبد رب هو ملاقيه وبيت في الدار الآخرة هو ساكنه:

للعبد رب هو ملاقيه، وبيت في الدار الآخرة هو ساكنه، بربكم مثل أضعه بين أيديكم ؛ لو أن بلداً نظام الإيجار فيه عجيب، أي مستأجر في أية ثانية يأمره بها صاحب البيت يخرجه من البيت، ولا يستطيع أن يأخذ معه شيئاً، فرش البيت، الثريات، السجاد، الأثاث الفاخر، الأجهزة الكهربائية، يأمره صاحب البيت أن يخرج فيخرج في ثيابه فقط، فإذا إنسان مستأجر هذا الإيجار معه أموال جيدة، هل من العقل أن ينفقها كلها في هذا البيت الذي سيغادره بأية لحظة ولا يبقى له منه شيء ؟ مستحيل، إن كان لك بيت بعيد وهو على الهيكل ألا ينبغي أن تنفق المال لكسوة هذا البيت وتأسيسه؟ هذا الواقع تماماً، كل شيء تحصّله في الدنيا تخسره في ثانية واحدة، دقق إنسان يسكن في بيت أربعمئة متر، ثمنه يزيد عن مئة مليون، فيه أثاث بعشرة ملايين، فيه أجهزة كهربائية، له إطلالة جميلة، خمس سيارات أمام الباب له ولأولاده، إذا توقف قلبه مصيره إلى القبر، تجمد الدم في أوعيته مصيره إلى القبر، نمت خلاياه نمواً عشوائياً مصيره إلى القبر، كل مكانتك، وهيبتك، وسيطرتك، وحجمك المالي، وحجمك الاجتماعي، وحجمك الإداري، ومرتبتك العلمية، والشهادات التي حصلتها، كل هذا المجد متوقف على ضربات القلب، أو على سيولة الدم، أو على نمو الخلايا، ففي أية لحظة تجد أنك فقدت كل شيء، وليت الأمر ينتهي عند هذا بل دخلت في حساب عسير:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠))

(سورة المدثر)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

الغبي من لا يدخل الآخرة في حسابه:

والله الذي لا إله إلا هو ما على وجه الأرض من غبي أشد غباءً من الطغاة، لأنهم لم يدخلوا في حسابهم أن الله سيحاسبهم، والله ما من قطرة دم تراق على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا وسيسأل عنها إنسان:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦))

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا (١١٥))

(سورة المؤمنون)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

على كل إنسان أن يسترضي ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل الانتقال إليه:

للعبد رب هو ملاقيه وبيت في الآخرة هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، الموظفون الأذكياء في وزارة ما إذا استقالت الوزارة يسألون من الوزير القادم ؟ حتى يقيموا معه علاقة طيبة، لأن أمرهم بيده في المستقبل، الأذكياء في الدنيا هكذا يفعلون، الله عز وجل يقول:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦))

(سورة الغاشية)

إنسان مضطر إلى ثلاثمئة ألف ـ قصة قديمة ـ عنده مزرعة فيها مسبح، وفيها بيت جميل، هو مضطر لهذا المبلغ، عرض أن تكون هذه المزرعة رهناً لهذا المبلغ، فإذا تمّ تسديده يسترجع المزرعة، هناك إنسان دفع المبلغ وقال له: سجلها باسمي كرهن، فسجلها وبعد سنتين أو ثلاث قدم له المبلغ قال له: لا يوجد داع لهذا كل واحد عنده حقه، المزرعة ثمنها مليونا ليرة، أخذها بثلاثمئة ألف، صاحب المزرعة من شدة الألم أصابته أزمة قلبية، وشارف على الموت ومات، قبل أن يموت أوصى ابنه الأكبر، البيت مثلاً في المهاجرين وهذا الخصم اللئيم الذي اغتصب منه المزرعة في أقصى دمشق، قال له: سر بالجنازة إلى باب محله التجاري، وقدم له هذه الرسالة، قال له: أنا ذاهب إلى ديار الحق وسأحاسبك هناك وإن كنت بطلاً لا تلحقني، سمعت أن هذا الإنسان ردّ المزرعة للورثة.

للعبد رب هو ملاقيه، وبيت في الآخرة هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، وأن يعمر بيته قبل الانتقال إليه.

يا أيها الأخوة الكرام، الموت شيء مخيف جداً من كل شيء إلى قبر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أكثروا من ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب ـ مشتت الجماعات))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن سهل بن سعد و البيهقي عن جابر]

إضاعة الوقت أشد من الموت:

فائدة أخرى، إضاعة الوقت أشد من الموت، كلام خطير، والله الذي لا إله إلا هو ترى المسلمين أتفه شيء في حياتهم الوقت، أرخص شيء في حياتهم الوقت، يلعب النرد للساعة الثالثة ماذا فعلت؟ نم، استرح، اقرأ كتاباً، تعلم مسألة، اقرأ قصة مؤثرة هادفة، اقرأ بحثاً في الفقه، أقرا حياة صحابي، اجلس مع أهلك وأولادك، سامرهم، حدثهم.

إضاعة الوقت أشد من الموت، لماذا ؟ قال: لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، غفلت عن سرّ وجودك وعن غاية وجودك، والموت يقطعك عن الدنيا، الموت الذي هو أكبر مصيبة ينهي حياتك الدنيا، لكن إضاعة الوقت تنهي الآخرة بأكملها، لذلك الوقت في حياة المؤمن ثمين جداً، الله عز وجل قال:

(وَالْعَصْرِ(١)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(٢)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣))

(سورة العصر)

الخسارة ناتجة أن مضي الزمن يستهلك الإنسان، لكن الإنسان يتلافى هذه الخسارة إذا عمل في الوقت الذي سينقضي عملاً ينفعه بعد مضي الوقت، ما العمل الذي ينفعك بعد مضي الوقت ؟

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

بحثوا عن الحقيقة،

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

ودعوا إليها

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣))

صبروا عن البحث عنها، والعمل بها، والدعوة إليها، هذه عند الإمام الشافعي أركان النجاة.

لذلك إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غمّ ساعة:

الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة فكيف بغم العمر ؟ أي لا سمح الله ولا قدر لو أصبت بالتهاب عصب من أعصاب أسنانك، والأطباء لم يتيسر لك أن تتصل بهم بعد الساعة الثانية ليلاً، والآلام لا تحتمل، وكنت حاضراً مئة وليمة، لو تذكرت هذا الطعام الذي أكلته هل ينتهي الألم؟ لو تذكرت هذه الولائم التي استمتعت بالطعام فيها هل هذا التذكر ينسيك آلام الأسنان ؟

قلت مرة: لو إنسان أعطيناه خمس سنوات، يستمتع ما يشاء بالدنيا، أعطيناه مبلغاً فلكياً، و قلنا له: سافر إلى أي مكان، وانزل في أجمل مكان، ومارس أي شهوة من دون قيد، ولا شرط، ولا حساب، لكن بعد هذه السنوات الخمس هناك شهر تعذيب لا يحتمل، هل تقبل ؟ خمس سنوات استمتاع بالحياة، وشهر تعذيب لا يحتمل، فكيف لو كان العكس سنوات معدودة في الدنيا يستمتع بها ويأتي عذاب أبدي ؟ الله عز وجل يقول:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(سورة البقرة)

الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة.

الأشياء المكروهة عند أهل الدنيا يوم القيامة تكون محبوبة و ترقى بها عند الله تعالى:

أيها الأخوة الكرام، من الحكم الرائعة محبوب اليوم يعقبه المكروه غداً، الشيء المحبوب، الآن هناك أفلام، هناك مواقع إباحية، إطلاق بصر في الطريق، انغماس في الملذات، سهرة مختلطة فيها غمز ولمز وتطلع إلى عورات النساء، الأشياء التي يرغبها أهل الدنيا أهل الضلال مكروهة يوم القيامة، والمكروهات في الدنيا جالس في البيت، مستريح، مقعد وثير، فواكه أمامك، زوجتك، أولادك، قم والبس واذهب إلى المسجد، اسمع درساً، تركب أول سيارة والثانية ساعة، وعلى الأرض لا يوجد كأس شاي ولا قهوة، واسمع الدرس وارجع إلى البيت مرة ثانية، نمت الساعة الثانية الفراش وثير ودافئ، أذن الفجر انزع اللحاف عنك، وتوضأ، واذهب إلى الجامع، وصلِّ، والله شيء صعب، صم طوال النهار، تشتهي كأس ماء، كأس شراب، كأس شاي، الطعام بالثلاجة أمامك، والماء بارد في الثلاجة، لا تستطيع أن تشرب لأنك صائم، تمر امرأة جميلة في الطريق قال الله لك: غض بصرك، تغض بصرك عنها، معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين، الأشياء المكروهة عند أهل الدنيا يوم القيامة تكون محبوبة، بها ترقى عند الله، هذه البطولة أساساً أن تعمل عملاً في الدنيا ينفعك إلى الأبد.

الأحمق من باع الجنة بشهوة ساعة:

أيها الأخوة الكرام، قال: كيف يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة؟

ألا يا رُبّ شهوة ساعة أورثت حزناً عميقاً، إنسان سافر وارتكب الفاحشة في السفر، وانتقل له مرض جنسي خطير، يقول لصديقه: أكاد أذوب كيف لو علمت زوجتي أنني خنتها، والمرض خطير، وينتشر في الجسم، ومعروف، لذلك ألا يا رُبّ شهوة ساعة أورثت حزناً عميقاً.

لكن هناك ملاحظة أذكرها لكم، كان الإنسان إن سافر إلى بلاد الغرب، وطرق باب غرفته ليلاً، فإذا كان مؤمناً يقول: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، وكأنه وقف موقف سيدنا يوسف، يشعر باعتزاز، يشعر بقرب من الله، يشعر أن الله غال عليه، الآن يمكن أن يرفض لكن يخاف من الإيدز فقط، أحبط الله أعماله، كانوا يخافون من الله فيرتقون بهذا الخوف الآن يخافون من الإيدز فقط.

فوائد قيّمة:

١ ـ الله عز وجل إذا خفته أنست به و اقتربت منه:

قال: المخلوق إذا خفته استوحشت منه وهربت منه، لكن الله عز وجل إذا خفته أنست به واقتربت منه، فرق كبير بين أن تخاف من مخلوق فيوحشك ويخيفك، وبين أن تخاف من خالق السماوات والأرض فيؤنسك ويقربك.

٢ ـ ارتباط العلم مع العمل مع الإخلاص:

قال: لو نفع العلم بلا عمل لما ذمّ الله عز وجل أحبار أهل الكتاب، علم بلا عمل لا قيمة له، ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذمّ الله المنافقين.

٣ ـ بطولة الإنسان أن يراقب نفسه و أن يكون حريصاً على سلامة قلبه:

آخر فقرة وفائدة دافع الخاطرة، قد تأتيك خاطرة لا ترضي الله ادفعها عنك، فإن لم تفعل انقلبت الخاطرة إلى فكرة، ادفع عنك هذه الفكرة، فإن لم تفعل انقلبت الفكرة إلى شهوة فحاربها، فإن لم تفعل صارت الشهوة عزيمة وإرادة فإن لم تدفعها صارت فعلاً، فإن لم تتداركه بضده صارت عادة وعندئذ يصعب الخروج منها.

الخاطرة إلى فكرة إلى شهوة إلى إرادة إلى فعل إلى عمل، فالبطولة أن تراقب نفسك وأن تكون حريصاً على سلامة قلبك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٠٦-٣١) : التقوى ثلاث مراتب إحداها - حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحارم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٨-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

مراتب التقوى:

١ ـ حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد الكتاب القيّم، الفوائد لابن القيم ـ رحمه الله تعالى يقول هذا العالم الجليل: التقوى ثلاث مراتب، إحداها حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات، الاستقامة، القلب حميته ألا يحقد على أحد، ألا يحتقر أحد، ألا يستكبر على أحد، هناك أمراض تصيب القلب ليست أقل من أمراض وبيلة تصيب الجسم، كما أن هناك أمراض قاتلة كالورم الخبيث هناك أمراض تصيب القلب مدمرة، لكن أمراض الجسم تنتهي عند الموت إلا أن المشكلة الكبيرة أن أمراض القلب تبدأ بعد الموت وإلى أبد الآبدين، فألف حالة مرضية تودي بصاحبها إلى الموت، وقد يكون بعد الموت الجنة أفضل ألف مرة من مرض قلبي فيه حقد، فيه استكبار، فيه احتيال، هذا المرض يبدأ بعد الموت فيودي بصاحبه إلى النار.

القلب له عبادة وعبادته الإخلاص:

لذلك التقوى ثلاث مراتب إحداها حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات، القلب له عبادة، عبادته الإخلاص، القلب له عبادة ألا يحقد على أحد، ألا يضمر الشر لأحد، ألا يستكبر على أحد، أمراض القلب لا تعد ولا تحصى، لكن الذي يألفه الناس أمراض الجسم، أما أمراض القلب مدمرة ومهلكة، هذا نوع من أنواع التقوى أن تستقيم على أمر الله، دخلك حلال، إنفاقك حلال، بيتك إسلامي، أولادك ربيتهم تربية إسلامية، بناتك محجبات، الوضع العام جيد، حرفتك مشروعة، لا يوجد خطأ بحرفتك، لا تأكل أموال الناس بالباطل، لا يوجد إلقاء الرعب في قلوب الناس من أجل أن تبتز أموالهم، الحرف التي لا ترضي الله لا تعد ولا تحصى، و أقول لكم هاتين الكلمتين: ألصق شيء في حياتك زوجتك وحرفتك، لأنهما لصيقتان بك، البيت يبدل، المركبة تبدل، أما حرفتك تعيش منها، فإن كانت مشروعة هذا من فضل الله عز وجل، والزوجة تعيش معها، فإن كانت مؤمنة

صادقة هذا من نعم الله الكبرى، فلذلك أية حرفة هي في الأصل مشروعة، وسلكت بها الطرق المشروعة، وابتغيت منها كفاية نفسك، وأهلك، وخدمة الناس، ولم تشغلك عن فرض، أو واجب ديني، انقلبت إلى عبادة، فعادات المؤمن عبادات بينما عبادات المنافق سيئات، عبادات المنافق المحضة الصلاة، والصوم، والحج، يعبد الله بهذه العبادات ليرائي تعد سيئات، بينما عادات المؤمن لو اشترى ثياباً لأهله، لو أخذهم نزهة، هذا يعد من العبادات لأنه في سبيل تمتين علاقته بهم.
التقوى مستويات ثلاثة ؛ إحداها حميّة القلب والجوارح، القلب معروف مركز النفس، مكان الحركة، الإنسان بقلبه ينوي أن يفعل كذا وكذا، فالقلب عبادته سلامة الصدر، وعبادته الإخلاص، والجوارح العين ينبغي أن تغض بصرك عن محارم الله، اللسان ينبغي أن تضبطه، الأذن ألا تسمع شيئاً لا يرضي الله، اليد ألا تبطش بها، الرجل ألا تمشي بها إلى مكان لا يرضي الله.

٢ ـ حمية النفس عن المكروهات:

أما المستوى الثاني من التقوى حمية النفس عن المكروهات، كنت بعيداً عن المحرمات، والآثام، والفواحش، والنفاق، الآن حمية القلب عن المكروهات، هذا مستوى بالاستقامة أعلى، أي أن تدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

((الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ))

[متفق عليه عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ]

الحلال بين، أن تشتري طعاماً بمال حلال وأن تأكله أنت وأهلك، والحرام بين، الزنا حرام، والقتل حرام، شرب الخمر حرام:

((وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ))

[متفق عليه عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ]

تشبه الحق من جانب والباطل من جانب:

((لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ))

[متفق عليه عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ]

نهر عميق جداً مخيف، له شاطئ مائل زلق، وشاطئ مستو جاف، شاطئ مستو جاف ثم شاطئ مائل زلق ثم النهر، فمن مشى على الشاطئ المستوي الجاف استبرأ لدينه وعرضه، ومن حام حول الحمى انتقل إلى الشاطئ المائل الزلق، احتمال أن يقع في النهر كبير جداً.

٣ ـ حمية النفس عن الفضول و ما لا يعني:

إذاً المرتبة الثانية حمية النفس عن المكروهات، أما المرتبة الثالثة حمية النفس عن الفضول وما لا يعني، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣))

(سورة المؤمنون)

قال علماء التفسير: اللغو ما سوى الله، مرتبة ومرتبة ومرتبة، قال: أما الأولى تعطي العبد سلامته، ما دام المال حلالاً، والبيت إسلامياً، والزوجة صالحة، والأولاد أبراراً، والإنفاق حلالاً، فأنت سليم، الاستقامة تحقق السلامة.

وأما الثانية تفيد قوته، عندما ترك المكروهات قوي مركزه أمام الله، أثبت بورعه محبته لله، أثبت بتركه ما لا بأس به حذراً مما به بأس أنه مع الله، المرتبة الثانية جعلته قوياً عند الله، جعلته في مرتبة عالية:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ(٥٥))

(سورة القمر)

قال: وأما الثالثة أن تستغني بالله عما سواه.

بطولة الإنسان أن يبحث عن علم ممتع نافع مسعد هو أن يعرف الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣))

(سورة المؤمنون)

كل ما سوى الله لغو، هناك اهتمامات عند الناس والله لا تقدم ولا تؤخر، يشغل حياته في ديوان شعر لشاعر، ماذا قدم لك هذا الشاعر على علو قدر الشعر أحياناً ؟ أنا لا أقلل من قيمة الشعر لكن الشعر الهادف، الشعر الذي يحرك فيك المشاعر، الشعر الذي يجعلك تقف موقفاً بطولياً، النبي عليه الصلاة والسلام قال: " إن من الشعر لحكمة ". أما شعر هجاء، شعر غزل، يا أخي أروع قصيدة قال فلان:

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

كل علم ممتع، لو قرأت الإلياذة لهوميروس آلاف الأبيات، شعر ممتع جداً لكن كله شرك وآلهة، كل علم ممتع لكن ما كل علم ممتع نافع، وما كل علم ممتع نافع مسعد، بطولتك أن تبحث عن علم ممتع نافع مسعد هو أن تعرف الله عز وجل.

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

أيها الأخوة، التقوى مستوياتها ثلاثة، حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات، حمية القلب عن المكروهات، حمية القلب عن الفضول وما لا يعني، فالأولى تحقق سلامتك، والثانية تحقق سعادتك، والثالثة تكون مع الأتقياء الأبرار، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

تناقض الطبع مع التكليف ثمن الجنة:

أيها الأخوة، قال: إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد، سيدنا علي يقول: " الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين".

طبعاً أحياناً الدخل كبير، والصحة طيبة، والبيت واسع، والأولاد كثر، ومركبات كثيرة، وإمكانيات عالية، سفر، نزهات، لقاءات، ولائم، سهرات، يقول: الله مفضل عليّ، طبعاً مفضل عليك، شيء طبيعي أي إنسان أعطاه الله هذا العطاء تجد شاكراً، بطولتك كمؤمن لا أن تشكر في العطاء، أن يراك الله في الشدة، السيارة القوية لا تمتحن في الطريق الهابطة، الدراجة تمشي وبسرعة، السيارة القوية تمتحن في طريق صاعدة، فلذلك لا بد من أن تمتحن.

قيل للشافعي: " يا إمام، أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى ". أقول لكم هذه الكلمة: وطن نفسك أيها المؤمن الصادق، وطن نفسك يا من أردت أن تصل إلى الله، أن هذا الطريق ليس محفوفاً بالورود، هناك ورود، وهناك واحات من حين لآخر، وهناك سرور، لكن هناك امتحانات وهناك ابتلاءات أيضاً.

((ألا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ألا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

[مسلم عن أنس بن مالك]

أن تصلي الفجر في وقته شيء ليس سهلاً، والله هناك أناس لا يستطيعون أن يستيقظوا على صلاة الفجر مهما كلف الأمر، يقول لك: هذا شيء صعب، أما المؤمن يوقظه الله على صلاة الفجر، الطاعات فيها متاعب، فيها كلفة، بل سميت تكاليف، لك طبع يميل إلى النوم ومعك تكليف يدعوك أن تستيقظ، لك طبع يدعوك إلى أخذ المال والتكليف أن تنفقه، لك طبع يدعوك إلى أن تملأ عينك من محاسن المرأة الأجنبية والتكليف أن تغض البصر، هذا التناقض من الطبع والتكليف هو ثمن الجنة:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١))

(سورة النازعات)

ما من مصيبة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا من أجل أن تشدك إلى الله:

لكن بالمناسبة ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل قناة نظيفة تسري خلالها، ليس في الإسلام حرمان ولكن في الإسلام تنظيم، أودع في الإنسان حبّ المرأة سمح له بالزواج، العلاقة المشروعة الإسلامية بين الذكر والأنثى الزواج، لا يوجد علاقة ثانية، لا يوجد بالإسلام خليلة، يقول لك: نحن لا يوجد عندنا تعدد، لا يوجد عندكم تعدد صح لكن عندكم زوجة واحدة و خمسين واحدة تهريب، أما المسلم عنده تعدد، إذا كانت الأولى لا تحصنه أفضل ألف مرة أن يتزوج امرأة ثانية من أن يزني طبعاً، فالإنسان حينما يأتيه شيء مكروه هنا البطولة، هنا معرفة الله عز وجل، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، إذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن شكر اقتناه.
أن تشكره على مصيبة، صدقوا ولا أبالغ ما من مصيبة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا من أجل أن تشدك إلى الله، لذلك قالوا: كل شدة وراءها شَدة إلى الله، وكل محنة وراءها منحة من الله، لكن من هو الشقي ؟ الذي لا تحدث المصيبة في نفسه موعظة، من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، صار هو المصيبة، يقول لك: الدهر يومان يوم لك ويوم عليك، قلب لي الدهر ظهر المجن، كلام فارغ، سخر القدر مني، كلام فارغ، من هو الدهر ؟ إنه الله، " يسبني ابن آدم إذ يسب الدهر وأنا الدهر "، ما هذا الدهر، يقول: الدهر قلب له ظهر المجن، الدهر جهة، إله الدهر ؟ الله هو الإله.

قانون التيسير والتعسير:

في الإسلام تيسير وتعسير:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(١)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(٢)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(٣)إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(٤)فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(٧)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠))

(سورة الليل)

قانون التيسير والتعسير، آمنت أنك مخلوق للجنة، فاتقيت أن تعصي الله، بنيت حياتك على العطاء، الله عز وجل ييسر لك أمور زواجك، وعملك، وأولادك، وزوجتك، وصحتك إلى آخره، الآن كفرت بالآخرة، وآمنت بالدنيا، فاستغنيت عن طاعة الله، بنيت حياتك على الأخذ، الآن كل الطرق أمامك مغلقة غير سالكة:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد:

١ ـ التوحيد:

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد، أول مشهد التوحيد، هذا من فعل الله، لا تحقد على أحد، لك أن تؤدب الذي أساء إليك، مسموح لك أن تؤدبه لا أن تحقد عليه، بالضبط القصة كما يلي: إنسان تلقى ضربة بعصا، إذا حقد على العصا الخشبية يكون أحمقاً، ينبغي أن تحقد على من أمسك العصا وضربك بها، فإذا كان الطغاة عصي بيد الله يؤدب بهم عباده، ينبغي أن تتعظ من هذه الشدة التي نالتك، طبعاً يجب ألا تقبل بالخطأ لكن لا تحقد، الحقد يتناقض مع التوحيد وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

هذا القوي ما كان له أن يصل إليك لولا أن الله سمح له، وما كان الله ليسمح له لولا أن هناك مشكلة أراد الله أن يطهرني منها، هذا الموقف الحقيقي الدقيق، لذلك مشهد التوحيد علاقتك مع جهة واحدة ولو أن الله عز وجل سلمك للأقوياء كيف يقول لك أغضبتني؟

قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

الآن:

(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

وحينما تؤمن أن الأمر بيده ترتاح نفسك، الآن مشكلتي مع الله يوجد تقصير، الله عز وجل سمح لهذا القوي أن يصل إليّ، أقوى دليل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

أول مشهد مع المصيبة التوحيد، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

٢ ـ العدل:

المشهد الثاني مشهد العدل:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت الآية: ٤٠)

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر الآية: ١٧)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً)

(سورة النساء)

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

(سورة النساء)

ولا تظلمون بمقدار قطمير، لا يوجد ظلم.

٣ ـ الرحمة:

المشهد الثالث مشهد الرحمة، هذه المصيبة التي آلمتك، أولاً: من فعل الله، اطمئن، وثانياً: فيها عدل، الله غني عن تعذيبك، وثالثاً: فيها رحمة، رحمة بك:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الأنعام)

معقول أب ابنه لم ينجح بالدراسة لا يتكلم ولا كلمة، لا يقيم عليه الدنيا ولا يقعدها، لو قال له: كما تشاء لا تدرس، حينما يكبر هذا الطفل يجد نفسه بلا شهادة، ولا علم، ولا تجارة، لا يوجد بيده شيء، ليس عنده بيت، ولا عنده زوجة، يحقد على أبيه لما لم تحاسبني يا أبتي ؟ لما لم تضربني حينما قلت لك لا أحب الدراسة ؟ فلذلك أي مصيبة فيها مشهد التوحيد، ومشهد العدل، ومشهد الرحمة.

٤ ـ الحكمة:

وفوق هذا وذاك مشهد الحكمة، كل شيء وقع أراده الله، والذي وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، والذي وقع لو لم يقع لكان الله ملوماً، الدليل:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة القصص)

المصائب التي تأتي هي رسائل من الله، وهناك آية أخرى:

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى(١٣٤))

(سورة طه)

٥ ـ الحمد:

مشهد التوحيد، مشهد العدل، مشهد الرحمة، مشهد الحكمة، وهناك مشهد الحمد، الله عز وجل يحمد على السراء والضراء:

((عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لغير المؤمن))

[أحمد عن صهيب]

وحينما قال الله عز وجل:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٢٠))

(سورة لقمان)

النعم الباطنة هي المصائب، لذلك قال ابن عطاء السكندري: "ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء ".

المشهد الخامس مشهد الحمد:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة يونس الآية: ١٠)

٦ ـ الأمر كله بيد الله سبحانه:

توحيد، عدل، رحمة، حكمة، حمد، المشهد الأخير، نحن عباد لله ما بيدنا شيء، ما بيدك شيء إطلاقاً، الأمر بيده لكن مع العدل، بيده مع الحكمة، بيده مع الرحمة، فلذلك الإنسان ينبغي إن أصابه شيء يكرهه أن يقول الحمد لله رب العالمين، هذا محض حكمة، ومحض رحمة، ومحض عدل.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٠٧-٣١) : الناس سواسية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٨-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

العباد جميعاً متساوون عند الله و ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له:

أيها الأخوة الكرام، هناك أصول في عقيدة المسلم، من هذه الأصول أن الناس سواسية، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يحب سيدنا سعد بن أبي وقاص، وكان يداعبه و يقول: "هذا خالي أروني خالاً مثل خالي "، وفداه بأبيه وأمه إذ قال له:

((ارْمِ سَعْدٌ فِدَاكَ أبي وَأمّي))

[الشيخان عن علي بن أبي طالب]

لكن الذي يلفت النظر أن سيدنا عمر بعد وفاة رسول الله، قال له: " يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له ".

أنت حينما تؤمن أن العباد جميعاً عند الله متساوون، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم، هذا المعنى مريح جداً، والمعاني الأخرى التي تستنبط من مجتمعات الجاهليين ؛ التفرقة، والطبقية، والفئة التي تحكم، والقوي، والضعيف، والمستغِل، والمستغَل، هذه المقاييس الأرضية تحطم الإنسان، إنما مقاييس القرآن الكريم:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: ١٣)

البشر عند الله نموذجان:

لذلك هذا الموضوع يقودنا إلى أن البشر عند الله نموذجان على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، واتجاهاتهم، وتياراتهم، كل هذه التقسيمات الأرضية ما أنزل الله بها من سلطان:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية: ١٣)

لذلك قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤))

(سورة الليل)

صباحاً ألق نظرة على طريق مزدحم، كل إنسان ينطلق إلى هدف يسعى له، هذا لشراء سيارة، هذا للالتحاق بجامعة، هذا للزواج، هذا للإيقاع بين اثنين، هذا لابتزاز أموال الآخرين،

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

. إذاً هناك ستة آلاف مليون إنسان على سطح الأرض، ستة آلاف مليون ملف، ستة آلاف مليون هدف، وستة آلاف مليون تحرك،

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

. لكن كل هذا التنوع في السعي يندرج في خانتين اثنتين:

١ ـ رجل عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦))

(سورة الليل)

لك أن تنفق من مالك، ولك أن تنفق من علمك، ولك أن تنفق من خبرتك، ولك أن تنفق من أي شيء منحك الله إياه،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى)

المؤمن يعطي، يبني حياته على العطاء، يسعد إذا أعطى، يرى نفسه قريباً بقدر ما يعطي، بل إن قيمة الإنسان عند الله لا بقدر ما يأخذ بل بقدر ما يعطي، وأنت حينما تعطي هناك من يعطيك.

((أنفق بلالُ ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))

[أخرجه الطبراني عن بلال]

((أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ))

[متفق عليه أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ))

[حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ عن أبي كبشة الأنماري]

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩))

(سورة سبأ)

المؤمن لا يتحرك بحواسه يتحرك بعقله:

إذاً:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى)

اتقى أن يعصي الله، إذا اقترب من مخالفة يقول: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، هذه السنوات المعدودة التي يمضيها الإنسان في طاعة الله تثمر حياة أبدية في جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

أيها الأخوة الكرام، للتقريب إنسان يركب دراجة، وصل إلى طريقين ؛ طريق هابطة وطريق صاعدة، هنا على مفترق الطرق، كل شيء في الطريق الهابطة يدعو راكب الدراجة إلى سلوكها، مريح ـ راكب الدراجة يرتاح كثيراً في الطريق الهابطة ـ والطريق فيه ورود، ورياحين، والطريق معبد، والنسيم عليل، والطريق الصاعد متعب فيه عقبات، وأكمات، وغبار، وحر، وطبعاً الواقع، والفطرة، والمعطيات تدعوك أن تسلك هذا الطريق، لكن هناك لوحة كتبت عند مفترق الطريقين، هذا الطريق الهابط ينتهي بحفرة ليس لها من قرار، فيها وحوش كاسرة وجائعة، وسوف تلتهم من وصل إلى هذه الحفرة، أما الطريق الصاعدة على أنها صاعدة فيها عقبات، وفيها أكمات، وفيها غبار، وفيها حر، تنتهي بقصر منيف هو لمن وصل إليه، هذه اللوحة ينبغي أن تعكس قرارك، القرار قبل اللوحة بحسب المعطيات ينبغي أن تمشي في الطريق الهابطة، لذلك:

((إنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عباس]

غفلة عن الله، المعصية محببة، لولا أنها محببة لما وقع الإنسان في المعصية، لذلك هذه اللوحة يجب أن تعكس قرارك، أن تتخذ قراراً بسلوك الطريق الصاعدة، فما قولك لو وضع مع اللوحة منظار فإذا وضعته على عينيك رأيت الحفرة السحيقة، ورأيت القصر المنيف ؟ صار عندك نص وعندك رؤية، نص ورؤية فلذلك المؤمن لا يتحرك بحواسه يتحرك بعقله.

من هنا قالوا: هناك محبة حسية، ومحبة عقلية، هناك طعام لذيذ وطيب جداً لكنه يؤذي القلب، فالعاقل يخاف على سلامة قلبه، فيبتعد عن هذا الطعام مع أنه يحبه، أبغضه بعقله، أما حواسه تحبه، وأحب الأكل الذي يريح قلبه، أحبه بعقله مع أن حواسه لا تحبه، فكلما ارتقى مستوى الإنسان أحب بعقله ولم يحب بحواسه، وأبغض بعقله ولم يبغض بحواسه.

لذلك الملك ركب من عقل بلا شهوة، والحيوان ركب من شهوة بلا عقل، أما الإنسان، ركب من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

فلذلك الإنسان يختار الطريق الصاعدة، الآن هذا القصر المنيف الرائع الذي فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، طريق الوصول إليه قد يكون مشياً، وقد يكون على دراجة، أو على دراجة نارية، أو بسيارة متواضعة، أو بسيارة حديثة، أو بطائرة، لكن أصحاب هذه الوسائل إذا وصلوا جميعاً لهذا القصر سقطت قيمة هذه الوسائل، النتيجة أنه وصل، لذلك كل واحد من المؤمنين يتمكن أن يصل إلى الجنة بآلاف الطرق، الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، امرأة مؤمنة أنجبت خمس بنات، ربتهم تربية إيمانية، بحثت لهم عن أزواج أطهار، مؤمنين، زوجتهم، رعتهم بعد الزواج، ثم توفاها الله، فهي في طريقها إلى الجنة مع أنها ما تكلمت ولا كلمة، فالأمومة الراقية طريق إلى الله، والأبوة الراقية طريق إلى الله، والبنوة الحانية طريق إلى الله، الآن والمرأة إذا رعت زوجها وأولادها في طريق إلى الله، والصانع إذا أتقن صنعته ونفع بها المسلمين له طريق إلى الله، والمزارع إذا أتقن زراعته ولم يضع مواد تسرطن له طريق إلى الله، والتاجر حينما يكون صادقاً وأميناً ونصوحاً له طريق إلى الله، لذلك ورد في الأثر:

((إن أطيب الكسب كسب التجار ؛ الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند ضعيف]

هؤلاء مع النبيين، التاجر الصدوق مع النبيين.

عادات المؤمن عبادات وعبادات المنافق سيئات:

أنا أريد أن أقول لكم: الجنة لكل المسلمين، لكل الحرف، إذا أتقنت حرفتك، وابتغيت بها نفع المسلمين، ولم تكذب من خلالها، ولم تغش، ولم تبتز أموال الناس بإيهامهم بأشياء ليست صحيحة، هذه الحرفة كانت عبادة لك، والذي أقوله دائماً: حرفتك الذي ترتزق منها إذا كانت في الأصل مشروعة، وسلكت بها الطرق المشروعة، وابتغيت منها كفاية نفسك، وأهلك، وخدمة الناس، ولم تشغلك عن واجب ديني، ولا عن فريضة، ولا عن عمل صالح، ولا عن طلب علم، انقلبت إلى عبادة، أريد أن أقول: كل واحد منكم ؛ الطالب في مدرسته، العامل في معمله، الصانع في مصنعه، الموظف في مكتبه، حينما تخدم الناس عامة، والمسلمين خاصة، حينما تقدم لهم خدمات عالية فأنت في طريق الجنة، عظمة هذا الدين أن أعمالك اليومية تنقلب إلى عبادات لذلك قالوا: عادات المؤمن عبادات، وعبادات المنافق سيئات.

من تعرف على الله وانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه تولاه الله تعالى:

فلذلك:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦))

(سورة الليل)

أول زمرة، شيء لطيف القرآن الكريم واضح، بطولتك أن تعتمد مقاييس قرآنية، أي إنسان من أي مكان، في أي زمان، من أي قبيلة، من أي أسرة، من أي إقليم، من أي مصر، من أي صقع، من أي أمة، من أي طائفة، من أي مذهب، أي إنسان حينما يتعرف على الله، وحينما ينضبط بمنهجه، وحينما يحسن إلى خلقه، يتولاه الله:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦))

(سورة الليل)

صدق أنه مخلوق للجنة، فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(٧))

(سورة الليل)

من استقام على أمر الله فحقه على الله ألا يعذبه:

أنا أخاطب الشباب، أنت شاب في مقتبل حياتك، تطمح إلى عمل، إلى وظيفة راقية، إلى شهادة عليا، إلى زواج ناجح، إلى بيت مريح، هذه الطموحات متوافرة عند الله، أي لا أنسى أن النبي عليه الصلاة والسلام أردف معاذ بن جبل وراءه، قال: " يا معاذ ! ما حقّ الله على عباده ؟ قال: الله ورسوله أعلم، سأله ثانية، وثالثة، ثم أجابه، قال: يا معاذ! حقّ الله على عباده أن يعبدوه، وألا يشركوا به شيئاً، ثم سأله: يا معاذ ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه ؟ ما حقك على الله إذا عبدته؟ فكان جواب النبي عليه الصلاة والسلام ألا يعذبهم ".

ألا تريد أن تنال حقاً على الله ؟ أنت حينما تستقيم حقك على الله ألا يعذبك، والله أيها الأخوة الكرام، آية في القرآن لو لم يكن في القرآن آية إلا هذه لكفت:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

هذا يتناقض مع وجود الله:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١))

(سورة الجاثية)

حياة المؤمن متميزة، حياة المؤمن فيها توفيق، حياة المؤمن فيها حفظ، حياة المؤمن فيها تأييد، حياة المؤمن فيها نصر، حياة المؤمن فيها عزة:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذه الآية تكفي الشباب:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

(سورة الطلاق)

أول زمرة آمنت أنها مخلوقة للجنة، فاتقت أن تعصي الله، وبنت حياتها على العطاء، فكان الرد الإلهي الكريم التيسير، التيسير لما خلقت له، التيسير لجنة عرضها السماوات والأرض، التيسير للفوز يوم القيامة، لذلك الله عز وجل يسوق المؤمن إلى أن يصل إليه، قد يضيق عليه، قد يخيفه أحياناً، قد يمرضه، قد يفقره من أجل أن يدفعه على الدار الآخرة.

٢ ـ و رجل غفل عن الله فتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فهلك في الدنيا والآخرة:

الزمرة الثانية:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩))

(سورة الليل)

كذب بالجنة، كذب بالآخرة، كذب بالحسنى، الحسنى هي الجنة، فلما كذب بها استغنى عن طاعة الله، فلما استغنى عن طاعة الله عكس الأهداف، بدل العطاء الأخذ، فغير المؤمن لم يؤمن بالجنة آمن بالدنيا، استغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ، الرد الإلهي:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

صدقوا ولا أبالغ ولن تجد نموذجاً ثالثاً:

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنِ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

(سورة الليل)

تقسيمات الأرض لا قيمة لها إطلاقاً وإنما المقاييس المعتمدة هي مقاييس القرآن الكريم:

لذلك أيها الأخوة، هذه المقاييس أنت حينما تتعمد مقاييس القرآن الكريم، القرآن قال:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١))

(سورة الأحزاب)

أيها الأخوة الكرام، اسمعوا هذه الكلمة مستحيل وألف ألف مستحيل وألف ألف مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، ومستحيل أيضاً أن تعصيه وتربح، سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، ولك الحمد على ما قضيت.

لذلك هذه الفائدة في هذا اللقاء إن شاء الله تؤكد أن الناس سواسية وأن هناك تقسيمين لبني البشر لا ثالث لهما، عرفته، فانضبطت بمنهجه، فأحسنت إلى خلقه، فسلمت وسعدت في الدنيا والآخرة، غفلت عنه، تفلّت من منهجه، أسأت إلى خلقه، فشقيت، وهلكت في الدنيا والآخرة، ولن تجد نموذجاً ثالثاً.

لذلك تقسيمات الأرض لا قيمة لها إطلاقاً، و كلما سافرت إلى بلاد كثيرة قلت هذه المقولة: الإنسان هو الإنسان في أي زمان ومكان، والله عز وجل فطرك فطرة سليمة رائعة، هذه الفطرة تؤكد أنه حينما تطيع الله، تصطلح مع نفسك، لأنك مفطور على منهج الله، هناك توافق عجيب بين خصائصك وبين منهج الله، فسواء أطعت الله أم اصطلحت مع نفسك المؤدى واحد، أنت مبرمج، مفطور، مولف على طاعة الله، فإذا أطعت الله عز وجل اصطلحت مع نفسك، لذلك هذه السعادة التي تغشى المؤمن حينما يطيع الله هي في الحقيقة انسجام المنهج مع فطرة الإنسان.

أيها الأخوة، قال بعض الشعراء وقد ذكر ابن القيم هذين البيتين:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الحسيب أبا لهب

***

((سلمان منَّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١))

(سورة المسد)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٠٨-٣١) : كيف يفعل من اصابه هم أو غم ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد القهر و عبد الشكر:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيم لابن القيم رحمه الله تعالى. هذه الفائدة صيغت على شكل سؤال كيف يفعل من أصابه هم أو غم ؟

((ما أصاب عبداً هم ولا حزن ، فقال اللهم إني عبدك، ابن عبدك ، ابن أمتك، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همّي وغمّي ، إلا أذهب الله همّه وغمّه ، وأبدله مكانه فرحا، قالوا يا رسول الله أفلا نتعلّمهن ؟ قال: بلى ، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلّمهن))

[رواه أحمد وصحيح أبي حاتم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه]

أيها الأخوة،

((اللهم إني عبدك، وابن عبدك))

هناك عبد القهر، وهناك عبد الشكر، وشتان بين العبدين، عبد القهر بحكم أنه في قبضة الله، حياته بيد الله، رزقه بيد الله، مرضه بيد الله، صحته بيد الله، زواجه بيد الله، استمرار حياته بيد الله، كن فيكون، زل فيزول، فكل إنسان مسلم أو غير مسلم، مؤمن أو غير مؤمن، مستقيم أو غير مستقيم، موحد أو غير موحد أو ملحد في قبضة الله، لأن كل إنسان في قبضة الله بأي ثانية ينهي حياته، يقطع رزقه، يصيبه بأمراض وبيلة، إذاً هو في قبضة الله هذه عبودية ولكنها عبودية القهر، قال تعالى:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت)

لكن الإنسان إذا عرف الله اختياراً، بمبادرة منه محبة، شوقاً، واستقام على أمره، وأقبل عليه، وتقرب إليه بالأعمال الصالحة، هذا عبد آخر، هذا عبد الشكر:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر الآية: ٤٢)

عبد الشكر يجمع على عباد، بينما عبد القهر يجمع على عبيد:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت)

أما:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)

(سورة الحجر الآية: ٤٢)

من علامات أنك عبد لله أن تلتزم طاعته و تخضع له و تنيب إليه و تمتثل أمره:

أيها الأخوة، النقطة الثانية:

((اللهم إني عبدك، وابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك))

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية: ١٢٣)

أنت في قبضة الله

((ناصيتي بيدك))

ضربات القلب بيدك، الشرايين بيدك، انسداد الشرايين بيدك، سيولة الدم بيدك، الخثرة بالدماغ بيدك

((ناصيتي بيدك))

رزقي بيدك، صحتي بيدك، زوجتي بيدك، أولادي بيدك، من حولي بيدك، من فوقي بيدك، من تحتي بيدك، الأقوياء بيدك، الطغاة بيدك، المؤمنون بيدك،

((ناصيتي بيدك))

هذا هو التوحيد، أن ترى أن كل أمرك عائد إلى الله، التوحيد علاقتك مع جهة واحدة، أروع ما في هذا الدين أن علاقة المؤمن مع جهة واحدة هي الله، يرضي الله فإذا أرضى الله أرضى الله عنه كل الخلائق، وإذا أحب الله ألقى محبته في قلوب الخلائق، وإذا هاب من الله ألقى هيبته في قلوب الخلائق، وإذا اتصل بالله جعل الله علاقته بمن حوله من أعلى ما يكون، هذا التوحيد، الدين توحيد. فلذلك من علامات أنك عبد لله أنك تلتزم طاعته، وتلتزم الخضوع له، والإنابة إليه، وامتثال أمره، ودوام الافتقار إليه، واللجوء إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والعياذ به وألا يتعلق قلبك بغيره، بل تحبه، وتخاف منه، وترجوه، وتعظمه، هذا معنى العبودية لله عز وجل هذا معنى عبد الشكر.

من معاني العبودية لله:

١ ـ أن الأمر كله لله و ليس لك منه شيء:

أيضاً أنا يا رب عبدك من جميع الوجوه، والإنسان المؤمن عبد لله صغيراً كان أم كبيراً، حياً أو ميتاً، مطيعاً أو عاصياً، معافى أو مبتلىً، عبد لله بقلبه، بجوارحه، بلسانه، من معاني العبودية لله ليس لك من شيء، الأمر كله لله:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

لو تعمقنا كثيراً في مفهوم العبودية النبي عليه الصلاة والسلام في أعلى درجة وصل إليها بشر عند سدرة المنتهى، قال تعالى:

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

العلاقة عجيبة كلما خضعت لله رفعك الله، كلما تذللت أمامه في مناجاتك أعلى قدرك، ورفع ذكرك، وثبط عدوك، ووفقك ونصرك.

٢ ـ أن كل ما تملك لله:

من معاني العبودية أن كل ما تملك لله، مرة إنسان سأل عالماً قال له: كم الزكاة سيدي ؟ قال له: عندكم أم عندنا ؟ قال له: عجيب ! ما عندنا وما عندكم ؟ قال له: عندكم ربع العشر، أما عندنا العبد وماله لسيده. وهذا معنى:

(إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

المؤمنون الصادقون السابقون أوقاتهم لله، قدراتهم لله، خصائصهم لله، طلاقة ألسنتهم لله، حكمتهم لله، رحمتهم من أجل إكرام عباد الله.

٣ ـ أن كل ما أنت فيه من إنعام الله عليه:

من معاني العبودية لله أنت الذي مننت عليّ بكل ما أنا فيه، كلك حسنة من حسنات الله، جعلك من أب أو أم من نعمة الله الكبرى، أعطاك سمعاً أو بصراً من نعمة الله الكبرى، أعطاك عقلاً، أكرمك

بزوجة تسرك إذ نظرت إليها، تحفظك إذا غبت عنها، تطيعك إذ أمرتها، أعطاك أولاداً يملؤون البيت فرحة، أي أنت مننت علي بكل ما أنا فيه، هذا معنى العبودية، هذا ما يقول عنه علماء القلوب الفناء، أي فني في محبة الله، كل ما أنا فيه يا رب من إنعامك.

٤ ـ عدم التصرف بشي إلا بأمر الله تعالى:

شيء آخر من معاني العبودية أنني لا أتصرف يا رب فيما خولتني من مال ونفس إلا بأمرك، والعبد الصادق، الأمين، المخلص، لا يتصرف إلا بإذن سيده، وإني لا أملك يا رب لنفسي نفعاً يا رب ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، هذا من معاني العبودية لله عز وجل.

((اللهم إني عبدك، وابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك))

من منا يملك حواسه ؟ بأي لحظة يفقد أحد أعضاءه، بأي لحظة قد يفقد عقله، الأب المحترم يسعى من حوله أن يضعوه في مستشفى الأمراض العقلية، عقلك بيده،

((ناصيتي بيدك))

أنت المتصرف كيفما تشاء، أما أنا لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً.

التوكل على الله أساس الدين:

أيها الأخوة، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن))

[مسلم عن عائشة]

أي هذا الذي أمامك قوي هو بيد الله فإذا كنت مع الله ألقى هيبة عليك، هذا الذي يريد أن ينال منك بيد الله لا يستطيع أن يتحرك إلا بإذن الله عز وجل، فلذلك حتى الأقوياء الطغاة موتهم وحياتهم بيد الله عز وجل، هذا الذي قاله سيدنا هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

الدين أن ترى أن يد الله تعمل وحدها وأنه لن يقع شيء في الكون إلا إذا سمح الله له:

أيها الأخوة الكرام، الدين توحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، الدين ألا ترى مع الله أحداً، الدين أن ترى أن يد الله تعمل وحدها، الدين أن ترى أنه لن يقع شيء في الكون إلا إذا سمح الله له

أن يقع، كل شيء وقع أراده الله، بمعنى سمح به، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، متى شهد العبد أن ناصيته ونواصي العباد بيد الله وحده يصرفها كيف يشاء عندئذ لن يخاف أحداً إلا الله، الموحد قوي الشخصية، لا يتضعضع، لا يتذلل، لا ينبطح، لا ينافق، لا تضعف شخصيته، لأنه مع الله عز وجل.

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

متى شهد العبد أن ناصيته بيد الله وأن نواصي العباد بيد الله أيضاً يصرفها كيف يشاء لم يخفهم، ولم يعلق أمله عليهم، ولم ينزلهم منزلة المالكين بل منزلة عبيد مقهورين، المتصرف فيهم هو الله، والله مدبر شؤونهم، فمن شهد هذا المشهد صار فقره إلى ربه لازماً له، كل من في الكون بيد الله، أنت إذاً افتقر إلى الله، لذلك الصحابة الكرام في بدر فوضوا أمرهم إلى الله، وافتقروا إليه، فانتصروا، قالوا الله، فالله تولاهم، هم هم ومعهم سيد الخلق في حنين قالوا: نحن كثرة لن نغلب من قلة فتخلى الله عنهم:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(٢٥)ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٢٦))

(سورة التوبة)

ارغب فيما عند الله يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس:

أيها الأخوة، من شهد هذه المعاني لم يفتقر إلى الناس، ولم يعلق أمله عليهم، ولم يرجو ما عندهم، لذلك ارغب فيما عند الله يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس.

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يُسأل يغضب

* * *

وازهد فيما عند الناس يحبك الناس، ارجُ ما عند الله يحبك الله، لذلك سيدنا هود قال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

عظمة الله عز وجل أنه قوي وعلى صراط مستقيم و له الملك و الحمد:

بالمناسبة كلمة على إذا جاءت مع لفظ الجلالة تعني أن الله ألزم ذاته العلية بما جاء في الآية: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). أي أن الله جل جلاله ألزم ذاته العلية بأن يكون على صراط مستقيم بالاستقامة:

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية: ٩)

ألزم الله ذاته بهداية الخلق:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية: ٢٣)

((ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك))

أي إذا حكم الله على عبد:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد الآية: ١١)

((يا عبادي ! لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسَكم وجِنَّكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أدخلَ البحرَ ذلك لأن عطائي كلام، كن فيكون، وأخذي كلام، يا عبادي، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

أيها الأخوة، (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). مع أنه قوي أحياناً القوي ليس مستقيماً، القوي لا يخشى أحداً، لا يعلق أهمية على أحد لأنه قوي، لكن عظمة الله عز وجل أنه قوي وعلى صراط مستقيم، له الملك وله الحمد.

أيها الأخوة، هو على صراط مستقيم في أقواله، في أفعاله، في قضائه، في قدره، في أمره، في نهيه، في ثوابه، في عقابه، خبره صادق، قضاؤه عدل، أمره كله حكيم.

أيها الأخوة، كما قالوا: الشريعة عدل كلها، مصلحة كلها، رحمة كلها، حكمة كلها، أية قضية خرجت من العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى خلافها، من الرحمة إلى القسوة فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل.

الحياة الدنيا فيها متاعب وأحزان وهموم والمؤمن إذا أصابه همّ أو حزن عليه بهذا الدعاء:

أيها الأخوة،

((ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك))

هذا الحديث الرائع لمن أصابه غم أو هم، أعيد عليكم نص الحديث:

((ما أصاب عبداً هم ولا حزن ، فقال اللهم إني عبدك، ابن عبدك ، ابن أمتك، ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همّي وغمّي ، إلا أذهب الله همّه وغمّه ، وأبدله مكانه فرحاً))

[رواه أحمد وصحيح أبي حاتم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه]

فلذلك طبيعة الحياة الدنيا فيها متاعب، فيها أحزان، فيها هموم، فالمؤمن إذا أصابه هم أو حزن عليه بهذا الدعاء الذي علمنا النبي عليه الصلاة والسلام إياه.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٠٩-٣١) : معرفة الله نوعان الأولى معرفة إقرار والثانية معرفة توجب الحياء منه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة الله تعالى نوعان:

١ ـ معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس و هي معرفة لا تقدم ولا تؤخر:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيم لابن القيم رحمه الله تعالى. هذه الفائدة تقول: معرفة الله تعالى نوعان، النوع الأول معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس ، البر والفاجر ، والمطيع والعاصي، كل أهل الأرض إلا قلة قليلة ممن عطلت عقلها تؤمن بالله:

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(سورة الزمر الآية: ٣٨)

إبليس آمن بالله رباً، قال ربي:

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص)

(أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤))

(سورة الأعراف)

إبليس آمن بالله خالقاً، قال:

(خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢))

(سورة الأعراف)

هذه المعرفة التي هي مشتركة بين كل الخلائق معرفة لا تقدم ولا تؤخر، وكأن هذه المعرفة لا تحمل على طاعة الله.

من لم يستقم على أمر الله لا قيمة لإيمانه إطلاقاً:

الإيمان بالله من دون أن تلتزم، من دون أن تقف عند الحلال والحرام، من دون أن يراك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، لا قيمة لها إطلاقاً وقد أكد هذا كثيراً حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَارَ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم عن أبي هريرة]

النقطة الدقيقة جداً أنك إن لم تستجب، إن لم تستقم، إن لم تلتزم، إن لم يراك الله حيث أمرك، ويراك حيث نهاك، فهذا الإيمان لا جدوى منه إطلاقاً والدليل:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠))

(سورة الكهف)

لا بد من عمل صالح وفي هذا العمل الصالح استقامة على أمر الله.

٢ ـ معرفة توجب محبة الله و تعلق القلب به و خشيته و الإنابة إليه:

معرفة الله نوعان ؛ نوع تسمى معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها جميع الناس البر والفاجر ، والمطيع والعاصي، لكن المعرفة التي أرادها الله التي دفعنا إليها، التي طلبها منا، معرفة توجب الحياء من الله، توجب المحبة له، توجب تعلق القلب به، توجب الشوق إلى لقائه، توجب خشيته، توجب الإنابة إليه، توجب الأنس به، توجب الفرار من الخلق إليه، هذه المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم هي المطلوبة، معرفة تثمر طاعة، معرفة تثمر محبة، معرفة تثمر شوقاً، معرفة تثمر حياءً، فما لم يكن هناك نتائج إيجابية لهذه المعرفة، هذه المعرفة لا تقدم ولا تؤخر.

التفكر في آيات الله الكونية و القرآنية و التكوينية طريق الإنسان لمعرفة الله عز وجل:

أيها الأخوة، هذه المعرفة لها بابان واسعان، والحقيقة التي أقولها كثيراً، هناك آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات قرآنية، والآية الدالة على عظمة الله هذا الكون، فهو مظهر لأسماء الله الحسنى، وأفعال الله عز وجل فيها حكمة بالغة، لأن كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

وآياته القرآنية كرمه، آياته بشكل مطلق أنواع ثلاثة، خلقه نوع، وأفعاله نوع، وقرآنه نوع، آيات الكون ينبغي أن تتفكر بها، الدليل الأول:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١))

(سورة آل عمران)

يقول النبي عليه الصلاة والسلام: "الويل لمن لم يتفكر بهذه الآية".

أي طريق معرفة الله أن ترى صنعته، أن ترى حكمته، أن ترى علمه، أن ترى قدرته، أن ترى غناه، أنت حينما تتعرف على أسماء الله الحسنى تقبل عليه، تماماً كما لو أن طالب علم يتحرق على مسكن يؤوي إليه، بلغه أن محسناً كبيراً عنده بيت هيأه لطالب علم، هذه المعلومة تجعله ينطلق إلى هذا المحسن، هو طالب علم، وما عنده بيت، أحياناً المعلومة الدقيقة عن الله عز وجل تدفعك إليه، تدفعك إليه بكل ما تملك.

وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا: من معاني هذه الآية:

١ ـ حينما تعرف أسماء الله الحسنى تقبل عليه وتعرفه و ترضى بأفعاله:

لذلك:

(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٠)

أنت حينما تعرف أسماء الله الحسنى، تعرف صفاته الفضلى، تعرف كمالاته، تسعى إليه، تقبل عليه، تسأله وحده، تتوكل عليه وحده، تعلق الأمل عليه وحده، لا بدّ من أن تعرفه حتى تقبل عليه، لا بدّ من أن تعرفه حتى تستسلم لقضائه وقدره، لا بدّ من أن تعرفه حتى ترضى بقضائه وقدره، حتى ترضى بأفعاله، المعرفة هنا من أجل أن تنطلق إليه، الإنسان ينطلق إلى القوي، إلى الغني، إلى القدير، إلى الحكيم:

(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٠)

هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني كيف تتقرب إلى الله ؟ تتقرب إلى الله بكمال مشتق من كماله، هو رحيم فأنت إذا رحمت من حولك يحبك الله:

((إن كنتم تحبون رحمتي فارحموا خلقي))

[الديلمي عن أبي بكر]

هو عدل، فإذا كنت عادلاً بين أولادك، بين أصهارك، إذا كنت عادلاً حينما تحكم في موضوع إذا كنت منصفاً إنصافك هو قربة إلى الله.

٢ ـ حينما تعرف أسماء الله الحسنى تقبل عليه بكمالات مشتقة من كمالاته:

المعنى الثاني:

(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: ١٨٠)

أي أقبلوا عليه بكمالات مشتقة من كمالاته.

النظر في أفعال الله عز وجل و التدبر في آياته:

أيها الأخوة، الباب الأول أن تتفكر في خلق السماوات والأرض، الباب الثاني أن تنظر في أفعاله، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

صناديد قريش، أقوياء قريش، زعماء قريش، سادة قريش، الأغنياء الأقوياء حينما وقفوا في وجه الحق أين مصيرهم ؟ إلى مزبلة التاريخ، الضعاف الشباب المؤمنون الذين آمنوا بالله عز وجل والتفوا حول رسول الله أين هم اليوم ؟ في السجل الذهبي للبشرية، نقول: سيدنا أبو بكر، سيدنا عمر، سيدنا عثمان، سيدنا علي، سيدنا طلحة، سيدنا ابن الزبير، فلذلك:

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ)

هؤلاء الذين طغوا وبغوا ما مآلهم ؟ وفي التاريخ المعاصر هذا الذي هدم بيوتاً لا يعلمها إلا الله، وقتل أناساً بريئين، وهذه السنة السادسة لم يمت بعد:

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

فأفعال الله ينبغي أن تنظر إليها، الباخرة العملاقة التي قيل عنها إنَّ القدر لا يستطيع إغراقها، غرقت في أول رحلة من رحلاتها، وتحمل على متنها نخبة أغنياء أوربا، قدروا ثمن الحلي بالمليارات، مدينة صنعت بشكل لا تحتاج إلى قوارب نجاة، لأنه بحدِّ زعمهم إن القدر لا يستطيع

إغراقها، فارتطمت بجبل ثلجي، وانشقت شطرين، وغرقت، وسمعت خبراً قبل أيام أن آخر إنسان نجا من ركابها مات قبل يومين، إغراق هذه الباخرة فيها حكمة بالغة، فأنت مع خلق الله تتفكر، ومع أفعاله تنظر، ومع آياته تتدبر.

عطاء الله عز وجل ابتلاء و حرمانه دواء:

قال تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦))

(سورة الفجر)

جاء الرد الإلهي بكلمة ردع ونفي، قال:

(كَلَّا)

(سورة الفجر)

أن يا عبادي ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء، وحرماني

دواء:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤))

(سورة الحاقة)

مصير المؤمن،

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤))

صليت الفجر في وقته، صليت الفجر في مسجد، كنت مستقيماً، كنت صادقاً، كنت أميناً، كنت مخلصاً، كنت متقناً لعملك.

على كل إنسان عندما يقرأ آيات القرآن الكريم أن يعرض نفسه عليها أين هو منها:

أيها الأخوة، هذه الأعمال تثمر العطاء الإلهي، إذاً معرفة الله عن طريق التفكر بآياته الكونية، والنظر بأفعاله، وتدبر آياته القرآنية، إذاً ولهذه المعرفة بابان واسعان باب التفكر والتأمل في آيات الله بأنواعها، والباب الثاني باب التفكر والتأمل في آياته المشهودة و تدبرها، أي لك أن تقرأ القرآن قراءة تعبد هذا شيء طيب، لكن لا بدّ من أن تقرأه قراءة متأنية، قراءة تدبر، أن تقف عند آية آية أين أنا منها ؟ الله عز وجل يصف المؤمنين:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ (٢))

(سورة الأنفال)

يا ترى أنت حينما تقرأ القرآن هل يضطرب قلبك ؟ هل تدمع عينك ؟ هل تتشوق إلى الله ؟ هل تعيش حالة راقية مع الله عز وجل ؟ فإذا قرأت هذه الآية ينبغي أن تعرض نفسك عليها أين أنت منها ؟ أنت مطبق لها، التدبر يعني أن تعرض نفسك على الآيات آية آية.

إغلاق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء:

١ ـ اشتغال الناس بالنعمة عن شكرها:

أيها الأخوة، أما الإنسان حينما لا يستقيم على أمر الله، لا يطيعه، لا يقبل عليه، لا يتوكل عليه، هناك أسباب ذكرها ابن القيم في كتابه الفوائد ـ رحمه الله تعالى ـ قال: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها. الله عز وجل قال في الفاتحة:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الفاتحة)

الحمد موجود يرى هذه النعم، والكافر يرى هذه النعم، بل إن الكافر يستمتع بهذه النعم أضعافاً مضاعفة لكنه لا يعزوها إلى الله، لا يعبرها إلى المنعم، المؤمن يعبر النعمة إلى المنعم، استيقظ صباحاً، له جاهزية عالية، سمعه، بصره، قوته، يمشي، يتكلم، يأكل، يشرب، النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

سمح لي أن أعيش يوماً جديداً:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي))

سمعه، بصره، نطقه، حركته، أجهزته، قلبه، رئتيه، معدة، أمعاؤه:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

سمح لك أن تستيقظ كي تصلي، فالمؤمن ينتقل من النعمة إلى المنعم، ببيته زوجة الحمد لله، عنده أولاد الحمد لله، يحمل اختصاصاً معيناً يرتزق منه جيداً، يتقن صنعة، سمعته طيبة، ينتقل من النعمة إلى المنعم، فالمؤمن دائماً مع الله شاكراً، يا رب لك الحمد، الذي أغلق على الناس باب التوفيق اشتغالهم بالنعمة عن المنعم، ما رأوا المنعم رأوا النعمة، إنسان في الصحراء على وشك أن يموت

جوعاً، وجد مائدة عامرة بما لذّ وطاب، أكل، ألا يقتضي أن يسأل من جاء بهذه المائدة ؟ من هيأها؟ من قدمها لي ؟

٢ ـ رغبتهم في العلم وتركهم العمل:

الآن رغبتهم في العلم ، وتركهم العمل. العلم يعمل وجاهة، من تعلم العلم ليماري به السفهاء، أو ليجادل به العلماء، أو ليصرف وجوه الناس إليه، فليتجهز إلى النار، اشتغل بالعلم ولم يعمل به، اشتغل بالعلم ليحصل مكانة، الآن هناك ألقاب ؛ فلان دكتور، فلان رئيس قسم، فلان أستاذ ذو كرسي، لكن انشغل بالعلم، ومكانته، وعباراته، وألقابه، ولم يعبأ بتطبيقه، فلذلك السبب الثاني أنهم رغبوا بالعلم وتركوا العمل.

٣ ـ المسارعة إلى الذنب و تأخير التوبة:

الآن: وسارعوا إلى الذنب وأخروا التوبة، مع أن الله عز وجل يصف المؤمنين بأنهم:

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ)

(سورة النساء الآية: ١٧)

يحدث عند كل خطأ توبة.

٤ ـ الاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بهم:

اغتروا بصحبة الصالحين، وتركوا الاقتداء بهم، شيء مألوف أن الناس يحبون العلماء، وضع جيد وطيب، لكن يدعوه، يمدحه، يثني على أخوانه، لكن لا يطبق منهجه، حياته الخاصة تختلف عن حياة العالم في بيته، في علاقاته، في ولائمه، في احتفالاته، في سفره، في إقامته، لكن يهمه إذا عمل عقد قران أن يكون فلان أحد المتكلمين، وإصراره عجيب على حضور العلماء فلان حضر، فلان حضر، يعتز بهم، شيء جيد، لكن أنت في واد وهم في واد، أي اغتروا بصحبة الصالحين وتركوا الاقتدار بهم.

٥ ـ الحرص على الدنيا حرصاً لا حدود له:

الدنيا تدبر عنهم، الإنسان في سن الخمسين أو الستين يوجد خمسين علة بجسمه، وهو حريص على الدنيا حرصاً لا حدود له، الدنيا تدبر عنهم وهم يتعلقون بها، والآخرة تقبل عليهم، وهم معرضون عنها، والله بلغني عن إنسان بالثمانين أسس كازينو، ماذا بقي لك للقبر ؟ هذا وقت توبة، وقت صلة

بالله، وقت أعمال صالحة، وقت إنفاق مال، فالذي يصر على الدنيا، فهذه الأشياء الست منعت عنهم التوفيق.

٦ ـ ترك الرغبة فيما عند الله والرهبة منه:

لذلك هذا الوضع المتردي في الإنسان أصله ترك الرغبة فيما عند الله، والرهبة منه، لا هو راغب فيما عنده، ولا هو خائف منه، وأصل هذا ضعف اليقين، وأصل ضعف اليقين ضعف البصيرة، وأصل ضعف البصيرة مهانة النفس، أنت لا تعلم أنك المخلوق الأول، لأنك من بني البشر، إنك المخلوق الأول:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية: ٧٣)

أيها الأخوة، أي الذي يتوهم أنه يعرف الله ولا يطيعه يعلم علم اليقين أنه لا يعرفه، فمن أعجب العجب أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تحبه ثم لا تطيعه.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١٠-٣١) : تفسير موجز لسورة التكاثر من كلام ابن القيم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الدنيا بعد الإيمان بالله:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيم لابن القيم رحمه الله تعالى، هذه الفائدة تشرح سورة التكاثر، الله عز وجل حينما قال:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١))

(سورة التكاثر)

الحقيقة حينما وصفت الحياة الدنيا من قِبل الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ (٣٦))

(سورة محمد)

ما اللهو ؟ أن تشتغل بالخسيس وتنسى النفيس، أن تلهو بالخسيس وتعرض عن النفيس، أن تشتغل بجمع الأصداف وتنسى اللآلئ، فأي إنسان اشتغل بالدنيا ونسي الآخرة فهو في لهو، اشتغل بزخرف الدنيا ونسي حقيقة الآخرة فهو في لهو، اشتغل بما يحقق متعته في الدنيا ونسي العمل الصالح فهو في لهو، أنت حينما أتيت إلى الدنيا جئت من أجل العمل الصالح، بدليل أن الإنسان حينما يأتيه الموت يقول:

(رَبِّ ارْجِعُون (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

بعد الإيمان بالله علة وجودك العمل الصالح، لأن العمل الصالح ثمن الجنة، ولأن العمل الصالح يرفع الإنسان، ولأن العمل الصالح هو السبيل إلى الله عز وجل، والدليل:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف الآية: ١١٠)

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح:

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح، والغنى غنى العمل الصالح، والفقر فقر العمل الصالح، فلذلك الإنسان في الدنيا يلهو، يشتغل بالخسيس وينسى النفيس، يشتغل بزخرف الدنيا وينسى الآخرة، لذلك أكبر خسارة يعاني منها الإنسان أن يخسر الدار الآخرة:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

(سورة الزمر الآية: ١٥)

الإنسان أحياناً يعمل في التجارة لسنوات عديدة، ويشتري، ويبيع، ويسافر، ويُحصّل الديون، وفي نهاية الحسابات لم يربح شيئاً، شيء مؤلم جداً، فإذا كان هناك خسارة كبيرة يقول: ليتني لم أضع وقتي في هذه التجارة أو في هذه الصفقة، فعدم الربح مؤلم والخسارة أشد إيلاماً، فالإنسان حينما يأتيه ملك الموت، ويكتشف أنه نسي الهدف الأول من وجوده في الدنيا، هذا الحال لا يحتمل، قال: " إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى ".

ألم الندم لا يحتمل، جئت إلى الدنيا لسنوات معدودة، أمضيتها في اللهو، في اللقاءات الفارغة، في متابعة المسلسلات، في لعب النرد، في الغيبة والنميمة، في السفر والسياحة، ثم جاء ملك الموت، فإذا أنت أمام حياة أبدية لا تنقضي، وليس معك من عملة هذه الدار شيء، قد يكون معك مليارات مملبرة هذه العملة تصلح في الدنيا عندما يأتي ملك الموت كل هذه الأموال لا تقدم ولا تؤخر:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

(سورة الزمر الآية: ١٥)

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف وتسخير تكريم:

أخوتنا الكرام، أنت حينما تحقق الهدف من وجودك قال تعالى:

(مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ)

(سورة النساء الآية: ١٤٧)

الله عز وجل سخر لك هذا الكون تسخيرين ؛ تسخير تعريف وتسخير تكريم، ينبغي من تسخير التعريف أن تؤمن، وينبغي من تسخير التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، والشكر أنواع ؛ أن يمتلئ القلب امتناناً من المنعم، هذا شكر، والشكر أيضاً أن تنطق بكلمة الحمد لله، لكن أعلى أنواع الشكر:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً)

(سورة سبأ الآية: ١٣)

أن تقابل نعم الله عليك بعمل صالح ينفع عباده الصالحين، فلذلك أعلى مستوى من الشكر أن تكون في خدمة عباده، لأن:

((الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك]

بطولة الإنسان أن يعرف سرّ وجوده وغاية وجوده:

إذاً:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١))

(سورة التكاثر)

أيها الأخوة الكرام، ليس محرماً أن تسعى لرزقك، ولا أن تسعى لشراء مأوى تأوي إليه، وليس محرماً أن تبحث عن زوجة صالحة تسعدك إذا نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إذا أمرتها، إن المشكلة في التكاثر، بعد مرحلة معينة، بعد كسب المال، بعد تحقيق ربح كبير، يدخل الإنسان في متاهة التكاثر، قال تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢))

(سورة الزخرف)

إنسان يترك مليارات ماذا يأكل ؟ يأكل وجبة واحدة لا تزيد عن خمسمئة غرام، يرتدي ثوباً واحداً، ينام على سرير واحد، له مكان واحد يؤوي إليه، هذا الرزق، الرزق ما انتفعت به، والكسب الرقم الذي في حساباتك، هذا الرقم لا يعني شيئاً أنت محاسب عن طريقة كسبه ولم تنتفع به، فلذلك البطولة أن تعرف سرّ وجودك وغاية وجودك، أن تعرف لماذا أنت في الدنيا ؟ أنت في الدنيا من أجل أن تعرف الله، ومن أجل العمل الصالح.

خسارة الإنسان الكبيرة أن ينسى الآخرة ويدخل في متاهة التكاثر:

لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

(سورة العصر)

إلهنا وربنا وخالقنا يقسم بمطلق الزمن لنا، ونحن بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منا، يقسم ويقول:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

(سورة العصر)

قال: لأن مضي الزمن يستهلكه، إذاً:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١))

(سورة التكاثر)

ليس عاراً أن تبحث عن زوجة صالحة، أن تبحث عن مأوى، أن تبحث عن عمل ترتزق منه، لكن الخسارة الكبيرة أن تنسى الآخرة، وأن تدخل في متاهة التكاثر، التكاثر بالأموال، بالأولاد، بحجم الأرباح، بالمتع الرخيصة، بالبيوت، بالمركبات:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١))

(سورة التكاثر)

الموت نهاية كل شيء:

النهاية:

(حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢))

(سورة التكاثر)

تصور سباق مضحك، طريق عريض وطويل، و سباق سيارات كبير، سيارات من كل الأنواع كبيرة، وصغيرة، وحديثة، وقديمة، وجميلة، وغير جميلة، ومتقنة، وغير متقنة، السيارة الأولى هذا الطريق ينتهي بقاطع بعمق مئة متر، السيارة الأولى سقطت، والثانية سقطت، والثالثة سقطت، والرابعة سقطت، وكل هذه السيارات سقطت في هذه الحفرة العميقة هذا سباق مضحك، يجمع أموالاً طائلة، يقف قلبه، كل هذه الأموال ليست له، يصل إلى منصب رفيع بعد جهد جهيد، كل هذه المكاسب من هذا المنصب يموت ينتهي منصبه، يقترن بأجمل زوجة يموت فيفارقها، أو تموت فتفارقه:

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١))

(سورة التكاثر)

النهاية ثم ماذا، ماذا بعد الغنى ؟ القبر، ماذا بعد المتع الرخيصة ؟ القبر، ماذا بعد القوة أي أن تكون قوياً في العالم ؟ القبر، ملوك يموتون، ماذا بعد الوسامة ؟ القبر، ماذا بعد الذكاء ؟ القبر، ماذا بعد طلاقة اللسان ؟ القبر.

والله مرة قرأت كتاباً عن قصص العرب، و هو عبارة عن أربعة أجزاء، كتاب فيه ما هبّ ودبّ، قصص الأذكياء، والأغبياء، والأغنياء، والفقراء، والأقوياء، والضعفاء، والعقلاء، والمجانين، قديماً وحديثاً، بعد أن انتهيت من قراءة هذه الكتاب وجدت أن الأقوياء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والأغنياء ماتوا، والفقراء ماتوا، والأذكياء ماتوا، والحمقى ماتوا، والذين استمتعوا بالحياة ماتوا، والذين لم يستمتعوا ماتوا، هذا الموت ينهي كل شيء، ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغنى الغني، وفقر الفقير، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، ينهي كل شيء:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(٢))

(سورة التكاثر)

تفاوت الناس في الاستعداد للموت:

والله أيها الأخوة، في بدايات طريق الإيمان تعلمت أن أزور المقابر كثيراً، إنسان يوضع في النعش، يفتح غطاء النعش، يفتح القبر، يوضع في القبر، توضع قطعة من الحجر كبيرة تغطي فتحة القبر، يهال التراب على الميت وانتهى، هذا الملف انتهى، من بيت أربع غرف، وزوجة، وأولاد، ومنصب، وتجارة، ومكتب سفر، وولائم، وسهرات، واحتفالات، وأمسيات، ومسامرات، وطرف، إلى القبر، البطولة أن تعيش المستقبل، ابدأ من النهاية، بعض قواعد البرمجة اللغوية العصبية تقول: ابدأ من النهاية وتأقلم مع النهاية، لا يستطيع أحد على وجه الأرض أن ينكر حدث الموت، ولكن العقلاء يستعدون للموت، الناس يتفاوتون في الاستعداد للموت، هناك من يستعد له بطلب العلم، بالعمل الصالح، بتربية أولاده، بإنفاق المال:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(٢))

(سورة التكاثر)

القبر يزار، بعد الزيارة هناك خروج من القبر، كلمة زرتم كلمة دقيقة جداً، أنت تزور القبر، لكن بعد القبر هناك جنة وهناك نار، والإنسان حينما يولد أمام خيارات عديدة لا تعد ولا تحصى، أما حينما يأتيه ملك الموت أمام خيارين لا ثالث لهما:

((و الذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار))

[أخرجه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم]

تحذير الله عز وجل الإنسان من نسيان الآخرة و اللهو بالدنيا:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(٢) كَلَّا (٣))

(سورة التكاثر)

(كَلَّا)

أداة ردع ونفي، إياك أن تُلهى بالتكاثر، إياك أن تنسى الموت، أن تنسى الدار الآخرة، أن تنسى الصراط المستقيم، أن تنسى الجنة التي أعدها الله للمتقين، أن تنسى النار التي فيها كل المجرمين:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(٢) كَلَّا (٣))

(سورة التكاثر)

(كَلَّا)

أداة ردع ونهي:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣))

(سورة التكاثر)

تعلمون عند الموت أن هذه الدنيا لا قيمة لها، في بدايات الحياة ترى أن المال كل شيء، وفي منتصف الحياة تراه شيئاً، ولكن على مشارف الموت لا ترى المال شيئاً، في البدايات ترى المرأة كل شيء، بعد حين من الوقت تراها شيئاً وليست كل شيء، أما عند الموت لا ترى هذه المتعة شيئاً ترى طاعة الله هي كل شيء، كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[ورد في الأثر]

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(٢)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤))

(سورة التكاثر)

أهل الأرض عند الموت يعرفون الحقائق التي جاء بها الأنبياء:

كل أهل الأرض عند الموت يعرفون الحقائق التي جاء بها الأنبياء:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية: ٣٨)

عندما أدركه الغرق قال:

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩٠))

(سورة يونس الآية: ٩٠)

فقيل له:

(أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ (٩١))

(سورة يونس الآية: ٩٠)

الإنسان يوم القيامة على مشارف الجنة أو مشارف النار لا محالة:

أيها الأخوة الكرام:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣))

(سورة التكاثر)

لا بدّ من أن تكتشف الحقائق التي جاء بها الأنبياء بشكل قطعي، مسلم، غير مسلم، ملحد، علماني، جهلاني، لا بدّ من أن تكتشف الحقيقة عند الموت:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤))

(سورة التكاثر)

يوم القيامة وأنتم على مشارف الجنة أو مشارف النار:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر الآية: ٨٧)

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤))

(سورة الحاقة)

النار عاقبة من يبني مجده على أنقاض الآخرين و غناه على فقرهم:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(٢)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ(٦))

(سورة التكاثر)

تصور إنساناً يقود مركبة في طريق هابط، شديد الانحدار، والسرعة متعاظمة، ثم اكتشف أن المكبح معطل، وهذا الطريق الهابط ينتهي بمنعطف حاد، بالمئة مليون الحادث حتمي، يقول لك: انتهينا:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ(٦))

(سورة التكاثر)

هذا المرابي لو يعلم علم اليقين لرأى الجحيم، هذا الذي يعتدي على أعراض الناس، يظن نفسه ذكياً، لو يعلم علم اليقين لرأى الجحيم، هذا الذي لا يؤدي ما عليه من حقوق، هذا العاق لوالديه، هذا

الذي يؤذي المسلمين، هذا الذي يبني مجده على أنقاض الآخرين، يبني غناه على فقرهم، يبني حياته على موتهم، يبني عزه على ذلهم:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(٦))

(سورة التكاثر)

المثل واضح، مركبة منطلقة بسرعة عالية جداً، في طريق شديد الانحدار، وينتهي بمنعطف حاد، واكتشف السائق أن المكبح معطل يقول لك: انتهينا:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(٦)ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(٧))

(سورة التكاثر)

أي شيء في الدنيا تتنعم به سوف تحاسب عليه:

يوم القيامة:

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ(٨))

(سورة التكاثر)

وقت الفراغ كيف أمضيته ؟ الصحة ماذا فعلت بها ؟ سخرتها لطاعة الله أم لمعصية الله ؟ تقويت بصحتك على معصية الله أم على طاعة الله ؟ وقت الفراغ، هذه الزوجة التي أكرمك الله بها هل أكرمتها ؟ هل قصرت طرفك عليها ؟ هل عاملتها كزوجة ؟ هل أحسنت إليها ؟ الأولاد الذين أنجبتهم هل علمتهم ؟ هل ربيتهم ؟ هل عرفتهم بربهم ؟ المال الذي بين يديك هل أنفقته في سبيل الله ؟ طلاقة اللسان التي أوتيتها هل كانت دعماً للحق أم للباطل ؟ أي شيء حتى قال بعض العلماء: لتسألن عن الماء البارد. دخلت إلى البيت عندك ثلاجة وفيها ماء بارد هل شكرت الله على هذا الماء البارد ؟

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(٢)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(٦)ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(٧)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ(٨))

(سورة التكاثر)

الفراغ نعيم، والمتزوج نعيم، متزوج ويزني ؟! عجيب أنت محصن، الذي يأكل الربا غني ومعه أموال طائلة يأكل الربا ؟! أي شيء في الدنيا تتنعم به سوف تحاسب عليه، لذلك هذه السورة القصيرة والله من أبلغ السور، بل إنها تنطوي على مواعظ بليغة جداً:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(١)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(٢)كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٣)ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٤)كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(٥)لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ(٦)ثُمَّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(٧)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ(٨))

(سورة التكاثر)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١١-٣١) : الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العلائق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام بناء شامخ و منهج كامل:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيم لابن القيم رحمه الله تعالى.

هذه الفائدة تقول: الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العلائق.

أيها الأخوة، عامة المسلمين يصلون، ويصومون، والغني منهم يحج بيت الله الحرام، ويؤدي زكاة ماله، ومظاهر الإسلام واضحة في بيوتهم، هناك لوحة أسماء الله الحسنى، لوحة آية الكرسي، في مركباتهم مصحف، في محلاتهم التجارية إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، يوم الجمعة يرتدون ثياباً إسلامية، يتعطرون، هذا الوضع لا يكفي لأن الإنسان كلفه الله أن يعبده، والعبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

العبادة غاية الخضوع لله، غاية الحب، العبادة ليست كما يتوهم معظم المسلمين تلك العبادات الشعائرية من صلاة، وصيام، وحج، وزكاة ليس غير، هذه أركان الحياة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ))

[البخاري عن عبد الله بن عمر]

هذه أعمدة، أما الإسلام بناء شامخ، الإسلام بناء أخلاقي، الإسلام صدق، الإسلام أمانة، الإسلام إنصاف، الإسلام ورع، الإسلام أداء الحقوق، الإسلام أداء الواجبات، الإسلام منهج كامل يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية، فلذلك هذه الجنة التي وعد الله بها المؤمنين والتي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، هذه الجنة لا تنال بركعتين ودفع ليرتين، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية.

ما دامت الحياة الغربية مسيطرة على حياة المسلمين فالطريق إلى الله ليس سالكاً:

الله عز وجل عزيز لا يمكن أن يتجلى عليك، أن ينزل عليك السكينة، لا يمكن أن تقطف ثمار هذا الدين بعبادات شكلية، أما في حياتك اليومية تعيش كما تشتهي، هناك مخالفات في العلاقات،

مخالفات بكسب الأموال، مخالفات بإنفاق الأموال، مخالفات بعقود الزواج، مخالفات بالمناسبات السارة والحزينة، مخالفات بالرحلات، ما دامت الحياة الغربية مسيطرة على حياة المسلمين، وعلاقة المسلمين بالإسلام هذه الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، وهذه المظاهر الدينية، فالطريق إلى الله ليس سالكاً:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤))

(سورة التوبة)

الوصول إلى المطلوب منا موقوف على هجر العوائد:

الحكمة اليوم متعلقة لا بعامة المؤمنين متعلقة بالسالكين إلى الله، بالسالكين إلى الله سلوكاً حقيقياً، متعلقة بكبار المؤمنين، متعلقة بالذي أراد وجه الله عز وجل، متعلقة بالذي قال:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

فالوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد.

لنأخذ بعض الأمثلة: في هذه البلاد أَلِف الناس في عقود القران أن يجلس العريس مع العروس على منصة، وأمامه كل المدعوات من النساء الكاسيات العاريات، هذا الذي ألفه الناس من عوائد الزواج عند المسلمين، هذه مخالفة صريحة للشرع، شاب في مقتبل الحياة يرى معظم النساء بأبهى زينة، بثياب فاضحة، هذا المألوف ! هذه عادة من عوائد المسلمين! يمكن أن نصور اللقاء الطيب، أو عقد القران بفيلم، والفيلم متداول والرجل يرى هذا الفيلم، هذه من ؟ زوجة فلان، ما شاء الله أحسن اختيارها، هذه من ؟ أقسم لكم بالله الإسلام ليس في المسجد، في المسجد تتلقى التعليمات فقط والإسلام في بيتك، الإسلام في أفراحك، الإسلام في تجارتك، الإسلام في محلك التجاري، الإسلام في معملك، الإسلام في وظيفتك، الإنسان إذا أراد أن يكون مسلماً عادياً هذا سهل جداً يمكن أن يصلي، ويصوم، ويحج، الناس كلها صائمة، كيف سهروا الليلة، على أي مسلسل ؟ على أي لقاء ؟ على أي حديث ؟ على أي غيبة ؟ على أي نميمة ؟ على أي اختلاط ؟ على أي غمز ؟ على أي لمز؟ صائم، هذا النمط في الإسلام عند الله مرفوض، هذا الإسلام إسلام اجتماعي، إسلام لقاءات، إسلام ولائم، إسلام دنيا، أما الدرس اليوم للسالكين إلى الله، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية.

المؤمن الصادق السالك إلى الله يرفض كل العادات التي تتناقض مع دينه:

المؤمن الصادق السالك إلى الله كل العادات التي تتناقض مع دينه تحت قدمه، هل من الممكن مصمم أزياء في باريس يتحكم بثياب المسلمات ؟ مسلمة تنتمي لدين عظيم هل يجب أن يكون الثوب ضيقاً وإلا فهي متخلفة ؟ يجب أن يكون هناك فتحة، هناك تقصير، هناك تطويل، هل من الممكن إنسان يتحكم بثياب المسلمات ؟ هذا الوضع لا يستأهل أن ينصرنا الله عز وجل، كم كبير، مليار وخمسمئة مليون مسلم لا وزن لهم عند الله، ليس أمرهم بيدهم، ليست كلمتهم هي العليا، للطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، لا يوجد استقامة، هناك مظاهر دينية صارخة، والله دخلت إلى مسجد في بلد في شمال إفريقيا، يعد من أكبر المساجد في العالم، مئذنته جامعة، المئذنة فقط وإذا جلست في الحرم ترى البحر، هو فوق البحر، شيء يفوق حدّ الخيال، مساجد كبيرة مزخرفة، احتفالات، مؤتمرات، كنت في مؤتمر إسلامي الصحفية بأبهى زينة، بثياب فاضحة، تجري مقابلات مع رؤساء الوفود، شيء طبيعي جداً، المؤتمر إسلامي لكن الجو غير إسلامي.

أنا أقول: الدين أصبح عادات، وتقاليد، وتراث، وعبادات شعائرية، مظاهر الدين الآن صارخة، تجد برامج دينية، محاضرات إسلامية، شيء رائع جداً، لكن يا ترى سلوك المسلم اليومي منضبط ؟ بأي جلسة هناك غيبة ونميمة، والغيبة أشد من الزنا في بعض الأحاديث، هناك بهتان، و هناك كبر.
أنا أقول: السالك إلى الله ما لم يضع تحت قدمه كل التقاليد والعادات، كل العوائد، كل شيء ألفناه، المؤمن متميز لا بصلاته وصيامه فحسب، بل متميز بأخلاقه، متميز بمنطلقاته النظرية، متميز بقيمه، الفرق صارخ جداً، الفرق بين مسلم وغير مسلم ليس فرقاً شكلياً، هذا يصلي وهذا لا يصلي، فرق كبير جداً بالمبادئ والقيم، إنسان يقول: أنا ساكن في بيت صاحبته في تركيا، ثمنه تقريباً سبعة ملايين، استطعت أن أخلصه بسبعمئة ألف، يفتخر بهذه القصة، يسكن في بيت ثمنه سبعة ملايين، استطاع بذكاء، واحتيال، وإيهام أن يشتريه من صاحبته بسبعمئة ألف، ويظن أن هذا شطارة، لذلك الاستقامة مئات البنود بل آلاف البنود بل مئات ألوف البنود، في طعامك هناك أحكام شرعية، في نومك هناك أحكام شرعية، في علاقتك بزوجتك هناك أحكام شرعية، فحينما ترى الإسلام عملية عبادات تؤديها وانتهى الأمر، مرة بلغني أن شخصاً يصلي في الجامع في الصف الأول حرفته يبيع أقراص مدمجة إباحية، الشاب يشتري هذا القرص، أين صلاته ؟ وأين صيامه؟ وأين قراءة القرآن؟ انتهى، أنت تخرب الفطرة السليمة في الإنسان وأنت تصلي؟ الذي أعجب منه أشد العجب كيف الإنسان يتوازن بعمل يبنى على إفساد الناس وهو يصلي ؟ مسبح مختلط عمل فيه مولداً، ودعا من يتكلم ويثني عليه، الحالة بهذا الشكل مؤلمة جداً.

الشيء إذا عمّ و شاع لا ينقلب إلى حلال بل يبقى حراماً:

فلذلك الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد، أي ما ألفناه من عادات، المؤمن يعمل، تمحيص هذه العادة تناقض شرع الله تحت قدمك، هذه الثياب ممنوعة في الإسلام ولو أنها حديثة جداً، والله مرة كنت في الصين لفت نظري أن هناك مؤسسات كبيرة جداً للطعام الحلال، في الصين ثمانون مليون مسلم، هذا الشيء مألوف أما الذي لفت نظري أكثر أن هناك معامل عملاقة للثياب الحلال، إذاً هناك طعام حلال وهناك ثياب حلال، فإذا أحب الإنسان أن يشتري لزوجته ثياباً كل شيء يباع في الطرقات خلاف المنهج، يمكن هذا الثوب أن يُرتدى للزوج فقط أما لغير الزوج لا يجوز هناك محارم، الزوجة لها ابن كبير، لها أخ، لها ابن أخت، المشكلة أننا نحن ألفنا الدين في المسجد، يدخل للمسجد، النبي عليه الصلاة والسلام علمنا إذا دخلت المسجد:

((إذا دخَل أحدُكم المسجد، فلْيَقُلْ: اللَّهمَّ افتح لي أبواب رحمتك))

[مسلم عن أبي حميد]

أنت تأتيه مرتين، مرة لتأخذ تعليمات الخالق، ومرة لتقبض الثمن، نفذت التعليمات الآن دخلت لتصلي في الصلاة يأتي الثمن، أما حياتي في واد والإسلام في واد وأنا مسلم، هذه المشكلة، لذلك العوائد السكون إلى الدعة، إلى الراحة، إلى ما ألفه الناس من أوضاع جعلوها مقدسة كالشرع تماماً، إن لم تعمل عقد قران للنساء لم يعد هناك اختلاط وكأنك خارج المنظومة، خارج السرب، فأي شيء تفعله وفق الشرع كأنك فعلت منكراً، هذه مشكلة كبيرة جداً، ألف الناس الاختلاط، ألف الناس الغناء، الغناء شيء طبيعي جداً، الغناء ليس طبيعياً، الغناء محرم، المشكلة أن الشيء إذا عمّ وإذا شاع لا ينقلب إلى حلال يبقى حراماً، لذلك:

((إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

حينما تشعر بالغربة هذا الشعور صحي:

((عبادة في الهرج كهجرة إلي))

[مسلم عن معقل بن يسار]

العبادة في الفتن، في زمن النساء الكاسيات العاريات، في زمن إطلاق البصر، تغض أنت البصر، غض البصر فيه آية قرآنية:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية: ٣٠)

غض البصر من صفات المؤمن.

الإسلام منهج و تشريع خالق السماوات والأرض:

أيها الأخوة، هذه الأوضاع، والعادات، والتقاليد المخالفة للشرع ألفها الناس، وأصبحت هي الأصل، وإذا إنسان الآن لم يرضَ أن يجلس بسهرة مختلطة يذمه والده الذي يصلي في المسجد، الأب يصلي في المسجد في الصف الأول فإن لم يجلس ابنه مع أقاربه اللواتي لا يجوز أن يلتقي بهن يقيم عليه الدنيا، من أين جئتم بهذا الدين ؟ من يهاجمه ؟ أقرب الناس إليه، رواد المساجد، يجب أن تكون مثل أهلك.

الإسلام منهج، والله أيها الأخوة، بخبرتي المتواضعة في الدعوة إلى الله ما من شيء نهى الله عنه إلا عندي عنه مئات القصص من الأوضاع الخطيرة التي نتجت عن هذه المخالفة، هذا تشريع خالق السماوات والأرض.

العوائد و العلائق:

أيها الأخوة الكرام، العوائد ما ألفه الناس من عادات، هناك كلمة مشهورة العادات والتقاليد، هذه يجب أن تمحص، ما كان موافقاً منها للشريعة على العين والرأس، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا))

[ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو]

((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))

[أحمد عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

الشجاعة شجاعة والكرم كرم، وإذا كان بعاداتنا إسلامي فمرحباً به لا يوجد مشكلة نحن ضد الخطأ، ضد التفلت، ضد ابتزاز أموال الناس، يقول لك: إذا لم أغش لا أستطيع أن أعيش، مسلم تغش المسلمين بأسلوب ذكي جداً وبظنك إذا لم تغش لا تعيش ؟ لا تستطيع تعيش بدون غش ؟ هذه العوائد.

٢ ـ العلائق أن تحب شيئاً لا يرضي الله:

أما العلائق تحب شيئاً لا يرضي الله، تحب سهرة لا ترضي الله، تحب نزهة لا ترضي الله، تحب احتفالاً لا يرضي الله، تحب هواية لا ترضي الله.

الجنة لا تأتي بركيعات مع غفلة ولا بدريهمات تنفقها بل تأتي بالتزام كامل بمنهج الله تعالى:

عندنا عوائد جمع عادة وعادات، وعندنا علائق، أشياء تحبها لا ترضي الله عز وجل، و عندنا عقبات، كل مخالفة عقبة، القصة أنت تطلب جنة عرضها السماوات والأرض، تطلب حياة أبدية،

تطلب أعلى عطاء إلهي، الإنسان هو المخلوق الأول، كلفه حمل الأمانة وقبل حملها، فهيأ له الجنة، أنت مخلوق للجنة، فهذه الجنة لا تأتي بركيعات مع غفلة، ولا بدريهمات تنفقها، تأتي بالتزام كامل، فهذا الدرس للسالكين إلى الله، حينما ترى أن شهوة أغلى عليك من الله عز وجل اعلم أن الطريق إلى الله غير سالك:

(فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

لذلك ورد في بعض الآثار القدسية: " وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه ".

أي إذا أكرمنا الله عز وجل، وعالجنا، وامتحننا، وضيق علينا، وشدد علينا، حتى أوصلنا إلى شفير القبر ونحن طاهرون، هذا أكبر عطاء إلهي تأتي بعده جنة عرضها السماوات والأرض.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١٢-٣١) : الأغترار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

بطولة الإنسان أن يملك رؤيا صحيحة تمكنه من معرفة الحق و الباطل:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيم لابن القيم رحمه الله تعالى، والفائدة تتحدث عن الاغترار، الله عز وجل يقول:

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(٥))

(سورة فاطر)

الاغترار أن ترى الشيء بحجم أكبر من حجمه، هناك رؤيا.

أيها الأخوة، الإنسان حينما يتحرك ليعمل، أو حينما يتحرك ليسرق، أو حينما يتحرك ليتزوج، أو حينما يتحرك ليزني، أو حينما يتحرك ليكسب مالاً حلالاً، أو حينما يتحرك ليكسب مالاً حراماً، ما الذي حركه ؟ رؤيا سبقت الفعل، هذه الرؤيا إن صحت سلمت وسعدت، وإن لم تصح هلكت وشقيت، فالبطولة أن تملك رؤيا صحيحة، البطولة أن ترى الحق حقاً والباطل باطلاً، لأن هناك من يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، المجرم حينما يقدم على جريمته ماذا يرى ؟ رأى أنه سيقتله، ويأخذ ماله، وينعم بهذا المال إلى نهاية حياته، ولم ير أنه سيقبض عليه ويعدم، لم ير هذه الرؤيا. أحياناً تجد إنساناً في أعلى درجة من الذكاء، ويتحرك حركة وفق خبرات عالية جداً، لكن لأنه لم يتصل بالله لم يرَ رؤيا صحيحة، فكان دماره بضعف رؤيته، فالذي ينجينا جميعاً رؤيا صحيحة، فرعون قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

و قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية: ٣٨)

أما حينما أدركه الغرق:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩٠))

(سورة يونس الآية: ٩٠)

البطولة أن ترى الرؤيا الصحيحة قبل فوات الأوان، لكن كل الخلائق يرونها بعد فوات الأوان، البطولة أن تجيب عن السؤال في أثناء الامتحان، أما كل الطلاب الكسالى الذين رسبوا يعودون إلى البيوت ويقرؤون الجواب الصحيح متى عرفوا الجواب الصحيح ؟ بعد فوات الأوان.

أخطر شيء في حياة أي إنسان رؤيته:

فيا أيها الأخوة، أكاد أقول إن أخطر شيء في حياتك رؤيتك، الذي يغش المسلمين ماذا رأى ؟ رأى أن هذا المال الكبير الذي سيُحصله من غش المسلمين رآه أكبر عنده من الله، لذلك الإسلام كلمة كبيرة جداً، هذه الكلمة مع مضي الزمان، ومع التفلت، ومع الجهل، ومع محبة الدنيا، فرغت من مضمونها، ألا يقول كل مسلم صبيحة عيد الأضحى وعيد الفطر: الله أكبر الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله وبحمده بكرة وأصيلاً ؟ هذا المسلم الذي أطاع زوجته وعصى ربه ماذا رأى ؟ ماذا رأى ؟ رأى أن طاعة زوجته أكبر عنده من الله، هذا المسلم الذي غش المسلمين، أضاف مواد مسرطنة للمواد الغذائية التي يصنعها ماذا رأى ؟ رأى أن هذا الربح الذي يحققه من سعر هذا المادة الغذائية بعد أن ابيضّ لونها بمادة مسرطنة أكبر عنده من الله، لذلك هذا الذي يقول الله أكبر ويعصي الله ما رأى الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، الإنسان حينما يعصي الله رأى أن هذه الشهوة أكبر عنده من طاعة الله، فلذلك كل الخطأ يأتي من رؤيا فاسدة، الرؤيا الفاسدة تحركها الشهوة، الرؤيا الصحيحة يحركها نور يقذفه الله في قلب المؤمن.

عدم استقامة الحياة إلا بالإيمان:

الذي أتمنى أن يكون واضحاً هذه الصلوات الخمس التي أمرنا بها، قد يقول قائل: أنا أصلي لا أشعر بشيء، هل تصدق أن خالق السماوات والأرض، الإله الذي خلق هذا الخلق المعجز، يقبل منك أن تؤدي حركات الصلاة أداءً شكلياً ؟ أي أن تقف، وأن تقرأ، وأن تركع، وأن تسجد، وأنت في واد آخر بعيد عن معاني هذه الآيات، هل ترضى أن تصلي صلاة شكلية ؟ ماذا قال الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥))

(سورة العنكبوت)

هذا النهي قال عنه العلماء: الوازع الداخلي، الحياة تقوم على طريقتين، على رادع خارجي، وعلى وازع داخلي، الرادع الخارجي سهل جداً لكن لن يحل المشكلة، نحن نردعك أن ترفع السرعة إلى درجة عالية، ما دام هناك آلات تصوير فأنت منضبط، وإن لم يكن هناك آلة تصوير فأنت متفلت. مرة إنسان تجاوز الإشارة الحمراء، و هناك شرطي أوقفه ليحاسبه، قال له: ألا تراها حمراء ؟

قال: رأيتها حمراء لكن لم أرك، هذه الإشارة مربوطة بالشرطي، النظام الوضعي مربوط بالرادع الخارجي، إن لم يكن هناك رادع فليس هناك انضباط، أوضح مثل لو أن الصيام فرضته الدولة مراعاة لصحة المواطنين، كم شخص بالعشرين مليون سيصوم ؟ ولا شخص، يدخل الحمام يشرب ماء، انظر إلى الإيمان، الإنسان يدخل إلى بيته بالصيف، والحر لا يحتمل، يكاد يموت من العطش وحده في البيت لا أحد يراه، والثلاجة فيها ماء بارد، ولا يقدر أن يضع بفمه قطرة ماء.

أنا أرى أن هذه الحياة لا تستقيم إلا بالإيمان، قال له: " بعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت لصدقني فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟ ".

النظام العالمي قائم على الرادع الخارجي والدين الإلهي مبني على الوازع الداخلي:

الآن عندنا ما يسمى بالعالم الغربي ضبط إلكتروني، سوق فيه بمئات المليارات بضائع، لكن كل سلعة عليها لصاقة فيها مادة، إن لم تدفع الثمن هذه المادة تُفعّل، فإذا فُعّلت صدرت أصوات مخيفة، وأغلقت الأبواب، تجد في هذا السوق خمسة آلاف إنسان لا يوجد واحد إلا ويدفع ثمن ما أخذه، لا لأنه مؤمن أبداً، لا لأنه يخاف الله، بدليل عندما قطعت الكهرباء في مدينة بأمريكا تمت مئتا ألف سرقة، المبلغ كان ثلاثين ملياراً، سرقت بضائع بثلاثين مليار في ليلة واحدة، لأنه لا يوجد مراقبة، فالنظام العالمي قائم على الرادع الخارجي والدين الإلهي مبني على الوازع الداخلي، والله في هذه البلدة الطيبة سمعت أن سائقاً وجد بمركبته كيساً أسود، فيه عشرون مليون ليرة، ثلاثة أيام يبحث عن صاحبه ووصل إليه، وأعطاه المبلغ، هذا الدين يقوم على الوازع الداخلي.
عامل بفرن دخل إلى الحمام، و لم يغسل يديه، وتابع العجين بيده، يمكن أن يصاب ثلاثمئة مواطن بأمراض خبيثة من جراء انتقال بقايا تلوث يديه إلى الناس، هذا الدين لا بدّ منه لاستقامة الحياة، بائع بقال وقعت فأرة في مستودع الزيت من يرى ذلك ؟ بإمكانه أن يبيع هذا الزيت زيتاً، أما المؤمن يبيعها إلى معمل الصابون، لا تستقيم الحياة من دون إيمان، المؤمن يرى أن الله سوف يحاسبه.

بطولة الإنسان أن يأخذ منهج الله تعالى ويستقيم على تفاصيله من أجل سلامته وسعادته:

أقول لكم بصدق: الذي يدعو الناس إلى الاستقامة خوفهم من الله، وأي شيء آخر أنا لا أعتدّ به كثيراً، يقول لك: تربية منزلية، صح على ألف ليرة يمتنع عنها، أما خمسة ملايين يفكر، يبحث عن فتوى، التربية المنزلية لا تقف أمام شيء مغر، لا تقف أمام ملايين، لا تقف أمام منصب رفيع، فالتربية المنزلية بالأشياء البسيطة، أما الكبيرة فقد تخترق هذه التربية المنزلية، أما حينما تعلم علم اليقين أن الله لا بدّ من أن يحاسبك فتراجع نفسك مئة مرة قبل أن تقدم على أي فعل.

المثل الشهير، نحن في الحياة المدنية نركب مركبتنا، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، وهناك شرطي آخر على دراجة نارية، وضابط مرور ثالث في السيارة، وأنت مواطن، لا يمكن أن تجتاز الإشارة، بسبب أنك تعلم علم اليقين أن واضع قانون السير علمه يطولك، من خلال هذا الشرطي وقدرته تطولك من سحب الإجازة، أو حجز المركبة، فأنت حينما توقن أن القوي يعلم وسيحاسب لن تعصيه أبداً، فلذلك الإنسان حينما يعصي الله تضعف رؤيته، حينما يبتز أموال الناس ينطلق من رؤيا مشوهة.

هناك مجرم قبل أن يعدم ما الذي يأتي إلى خاطره ؟ هو خطط ألا يعدم، خطط أن يقتل، وأن ينهب هذا المال الطائل، لكن ما أدخل برؤيته الإعدام، لا يوجد إنسان يغش المسلمين أدخل في حسابه أن الله سيتلف ماله، فالبطولة أن تأخذ منهج الله عز وجل، وأن تستقيم على تفاصيله من أجل سلامتك وسعادتك.

ذكر الله أكبر ما في الصلاة:

المؤمن يتمتع برؤيا والحقيقة الآية الكريمة:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية: ٤٥)

قال علماء التفسير: ذكر الله أكبر ما في الصلاة، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

الصلاة ذكر، الصلاة قرب:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

والصلاة عقل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ (٤٣))

(سورة النساء)

يجب أن تعلم ما يقرأه الإمام، والصلاة طهر، الصلاة طهور، إنسان متصل بالله عنده كبر ؟ مستحيل، عنده احتيال ؟ مستحيل، عنده مكر ؟ مستحيل، عنده تذلل ؟ مستحيل، عزيز النفس:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

ما من إنسان يعصي الله إلا ويتوهم أنه لن يحاسب فإذا جاء الحساب أدرك أنه كان خاطئاً:

الإنسان الموصول باله لن يكون ذليلاً، ولن يكون مستكبراً، ولن يكون محتالاً، ولن يكذب أبداً، المؤمن لا يكذب:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا))

[أحمد عن أبي أمامة]

هناك مؤمن أنيق جداً، و مؤمن أقل أناقة، و مؤمن ينفق بغير حساب، و مؤمن ينفق بحساب دقيق، الكل على العين والرأس:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا))

[أحمد عن أبي أمامة]

هناك مؤمن اجتماعي، ومؤمن يرغب أن يبقى وحده، مؤمن يحب السفر، ومؤمن يحب الإقامة، هناك طباع بأناقتك، بثيابك، بلباسك، بطعامك، بشرابك، هناك إنسان يحب الراحة زيادة، وإنسان يحب العمل، قال لي أخ منذ يومين: والله أنا بكل حياتي أنام أربع ساعات، الساعة الخامسة يختل كل مزاجي، أربع ساعات متفوق جداً:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عن أبي أمامة]

فإذا كذب و خان ليس مؤمناً، العبرة أنت حينما تتحرك، حينما توقع تصريحاً كاذباً ماذا ترى ؟ ترى أنك نجوت بهذا التصريح، فإذا علمت أن الله سيحاسبك، وسوف يكشف أمرك، أيها الأخوة الكرام، لا يوجد إنسان يعصي الله إلا ويتوهم أنه لن يحاسب، فإذا جاء الحساب أدرك أنه كان خاطئاً ومغروراً.

الابتعاد عن مباهج الحياة التي تبعد الإنسان عن الآخرة:

لذلك:

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(٥))

(سورة فاطر)

والله هناك قصة أرويها كثيراً ؛ لي صديق ـ توفي رحمه الله ـ يوم كان شاباً كان يعمل في محل في سوق الحميدية، عنده روح دعابة، فكان يجمع القمامة يضعها في علبة أنيقة جداً، يلف هذه العلبة بورق هدايا ثمين، ويضع شريطاً أحمر له عقدة، يضع هذه العلبة على الرصيف، يمر إنسان يتوهم فيها ألماس، أو ذهب، أو شيء ثمين، يأخذها ويعدو يتبعه بعد مئتي متر يفك الشريط الأحمر، وبعد مئتي متر ثانية ينزع ورق الهدايا الثمين، و المئتين الثالثة يفتح العلبة، يرى بها قمامة المحل عندئذ

يغضب، ويسب، ويزمجر، هو يتمتع بهذا الموقف، هذه المفاجأة والله سوف يراها كل إنسان اغتر بالدنيا.

بالبدايات المال كل شيء، يبيع دينه، يبيع عرضه، في البدايات المرأة كل شيء، في البدايات الوجاهة كل شيء، المنصب كل شيء، بمنتصف الحياة هذه كلها أشياء لكن ليست كل شيء، الدليل تجد إنساناً معه مليارات، يتمنى أن يلتقي بعالم، والسبب أنه لا يملك شيئاً لكن هو عنده فراغ بنفسه، هذا الفراغ لا يملأه المال، تجد إنساناً يحتل منصباً رفيعاً جداً إذا التقى بعالم يعتني به، يتمنى منه أن يجلس معه، السبب هذا معه سلطة كبيرة، هذا العالم لا يوجد معه سلطة، و هو عنده فراغ لا يملأه لا المال ولا السلطة، الغارق في مباهج الحياة عنده فراغ.

بطولة الإنسان أن يقذف الله في قلبه نوراً يرى به الحق حقاً والباطل باطلاً

فلذلك أيها الأخوة الكرام، بطولتك أن ترى رؤيا صحيحة، بطولتك ألا تندم، كل إنسان يندم قطعاً كان يرى رؤيا خاطئة، أعرف شخصاً كان يعيش في الستينات، ترك مئة مليون، و الدولار كان في ذلك الوقت بثلاث ليرات، فكلمة مئة مليون بالستينات تساوي ألف مليون الآن، أو عشرة آلاف مليون، نظر إلى أولاده ـ و كان قد أهمل تربيتهم ـ وهو على مشارف الموت قال لزوجته: أخطأت خطأً كبيراً حينما جمعت المال وأهملت أولادي، هذه رآها متى ؟ عندما ترك بعض الأولاد ومعهم مئة مليون و ليس فيهم دين إطلاقاً، رأى أن هذا المال سينفق على المعاصي والآثام، وهو تعب وجهد في جمعه، ويأتي أولاده ليتلذذوا في المعاصي من خلال هذا المال.

لذلك بطولتك أن ترى رؤيا صحيحة، بطولتك أن يقذف الله في قلبك نوراً ترى به الحق حقاً والباطل باطلاً.

العاقل من حرص على أن يملك رؤيا صحيحة تتطابق مع كلام الله عز وجل:

لذلك:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية: ٤٥)

ذكر الله لك وأنت في الصلاة أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية، لكنه إن ذكرك منحك الحكمة، منحك النور، منحك الأمن، منحك الرضا، منحك الاستقامة، منحك السكينة، فلذلك احرص على أن تملك رؤيا صحيحة تتطابق مع كلام الله عز وجل، الله ماذا قال ؟

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

(سورة الأحزاب الآية: ٧١)

الآن فيما أتصور إذا إنسان اشترى أرض بخمسة ملايين، بعد عشر سنوات صار ثمنها خمسمئة مليون، يرى أنه فاز فوزاً عظيماً، أحد الورثة نصيبه من الميراث يقدر بتسعين مليوناً، قريبه ترك ألف مليون، هو عنده محل تجاري متواضع، أغلقه نهائياً، ومشي بالمعاملة، تسعون مليوناً، ستة أشهر عمل شاق، تأمين الوثائق، وبراءات الذمة، إلى آخره، وافته المنية قبل أن يقبض قرشاً واحداً:

(خَيْرُ الْوَارِثِين)

(سورة الأنبياء)

الله عز وجل هو الوارث الحقيقي.

الشفاعة لها معنى آخر غير المعنى الذي يفهمه عوام المسلمين:

فيا أيها الأخوة، الرؤيا الصحيحة:

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(٥))

(سورة فاطر)

لا تراها بحجم أكبر من حجمها،

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

.الشيطان يعدك أن هناك شفاعة، الشفاعة لها معنى آخر غير المعنى الذي يفهمه عوام المسلمين.

أيها الأخوة الكرام، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بهذه الآية:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

لا ترونها بحجم أكبر من حجمها،

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

أوضح مثل عندما يقول طالب كسول لزميله: لا تدرس الأستاذ آخر السنة يعطينا الأسئلة بهدية ثمينة، فسمع كلامه و لم يدرس، وقبل الامتحان بيوم طرق باب المعلم حتى يعطيه الأسئلة، فتلقى صفعتين من الأستاذ، كان مغتراً طوال العام، وأكثر الناس يغترّوا أن الله غفور رحيم:

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النحل)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١٣-٣١) : لا تحزن إن الله معنا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

لا تحزن إن الله معنا:

أيها الأخوة، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيم لابن القيم رحمه الله تعالى.

هذه الفائدة معنونة بقوله تعالى:

(لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا (٤٠))

(سورة التوبة)

وهذه الآية أو الكلمات من آية تشير إلى موقف في الغار، وكيف أن الصديق قال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا، قال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟.

الحقيقة أريد أن أمهد لشرح هذه الكلمات من آية كريمة، الإنسان عنده دافع قوي إلى الطعام والشراب يأكل فيشبع، عنده دافع قوي جداً إلى الزواج يتزوج وينجب، عنده دافع ثالث من أهم الدوافع سماه علماء النفس تأكيد الذات، فأنت تريد أن تكون شيئاً مذكوراً، تريد أن تكون إنساناً مهماً، تريد أن تكون إنساناً خطيراً، هذه حاجة أساسية بالإنسان.

إنسان يشار له بالبنان، إنسان متفوق، إنسان قوي، فهذا الشعور أو هذه الحاجة للتفوق يمكن أن تلبى من خلال التدين الصحيح أعلى تلبية، سيدنا الصديق إنسان وقف مع النبي عليه الصلاة والسلام، أحب النبي، أخلص له، رافقه، قدم له ماله، زوجه ابنته، فكان هذا الصحابي الجليل كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:" لم تطلع شمس على أحد بعد نبي أفضل من أبي بكر ".

لذلك هناك حديث ورد في البخاري، ورد أنه لما بايع النبي عليه الصلاة والسلام أهل العقبة، أمر الصحابة بالهجرة إلى المدينة، فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا، وأنهم سيمنعونه، فأعملت آراءها في استخراج الحيل، منهم من رأى حبسه، منهم من رأى نفيه، ثم اجتمع رأي على قتله، فأخبر الله نبيه، وأمره أن يغادر، والصديق رفيقه، والقصة معروفة أمامكم.

من كان الله معه فمن عليه ؟

أيها الأخوة، عظمة الله عز وجل تتبدى أن هذه الدعوة العظيمة، أن هذه الرسالة الخاتمة، كان من الممكن أن تنتهي بقتل النبي عليه الصلاة والسلام، لكن دقق في أن هذه الدعوة نجت لا بحرب ضروس، ولا بقوى كبيرة، ولكن نجت ولحكمة أرادها الله بأسباب صغيرة، ما الذي حدث ؟ أن العنكبوت نسجت نسيجها على فم الغار، وأن الحمامة نصبت عشها على طرف الغار، وأن الله عز وجل حمى نبيه، وحمى دعوته بسبب صغير، وعظمة هذا الدين أن الله يمكن أن يدمر إنساناً بسبب تافه، ويمكن أن تنجو دعوة كبيرة عملاقة بسبب صغير، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ لكن البطولة أنت مع من ؟ أكلت، وشربت، وتزوجت، وأنجبت، الآن ولاؤك لمن ؟

الله عز وجل من خلال حديث رسوله بين أن حقائق الإيمان شيء، وأن حلاوة الإيمان شيء آخر، حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

من وصل إلى الله و أقبل عليه ذاق حلاوة الإيمان:

أيها الأخوة الكرام، والله لا أبالغ لو أن أحدنا ذاق حلاوة الإيمان لكان إنساناً آخر، لو أنه ذاق حلاوة الإيمان لغدا بيته جنة، وقد يكون بيته لا يزيد عن ستين متراً، ولغدت حياته جنة، وقد يكون دخله لا يزيد عن بضعة آلاف قليلة من الليرات، أكلنا، وشربنا، واستمتعنا، وتزوجنا، وأنجبنا، وسافرنا، هل حاولت أن تذوق حلاوة الإيمان ؟ الصحابة الكرام ذاقوا حلاوة الإيمان فأصبحوا فرساناً في النهار رهباناً في الليل، حققوا بطولات العقل لا يصدقها، فئة قليلة لا تزيد عن عشرة آلاف تصل راياتها إلى أطراف الأرض، لسنا قادرين كمسلمين أن نحافظ على استقلالنا، الآن خمس دول إسلامية محتلة، ليس أمرنا بيدنا، وللطرف الآخر علينا ألف سبيل وسبيل، أين عظمة الدين ؟ حينما ذاق الصحابة حلاوة الإيمان أصبحوا أبطالاً شجعاناً، أصبحوا شخصيات فذة، للتقريب الذي درس دكتوراه يعرف معنى الدكتوراه، عندما تجد حرف دال إلى جانب اسم إنسان، ما معنى هذه الدال ؟ أي معه وثيقة إتمام المرحلة الابتدائية، ومعه شهادة إعدادية، ومعه شهادة ثانوية، ومعه مجموع عال جداً دخل جامعة، ومعه ليسانس، ومعه دبلوم، ومعه ماجستير، وعندما نال الدكتوراه ألّف كتاباً، والكتاب الذي ألفه موضوعه جديد لم يسبق إليه، كلمة دال أو حرف دال يعني كل هذا، هل تصدق أن كلمة مؤمن ماذا تعني ؟ تعني مرتبة عند الله مرتبة أخلاقية، كلمة مؤمن تعني مرتبة علمية، كلمة مؤمن تعني مرتبة جمالية، عرف الحقيقة العظمى، عرف سرّ وجوده، عرف غاية

وجوده، عرف لماذا هو في الدنيا، عرف حقيقة الدنيا، عرف حقيقة الإنسان، عرف حقيقة الكون، عرف ما ينبغي وما لا ينبغي، عرف ما يجوز وما لا يجوز، عرف الحلال من الحرام، عرف الخير من الشر، عرف الحق من الباطل، مؤمن، مرتبة علمية، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلمه :

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ (٧٩))

(سورة الأنبياء)

سعادة كل إنسان أن يصل إلى الله و يستقيم على أمره ويخطب وده:

أيها الأخوة الكرام، مرة قلت: لو سألت طفلاً صغيراً كم تملك ؟ يقول لي: معي مبلغ عظيم، أنا أقدر هذا المبلغ بمئتي ليرة، طفل صغير والده مدرس عقب العيد قال لك يا عم أنا معي مبلغ عظيم ستقدره بمئتي ليرة، فإذا قال مسؤول في البنتاغون: أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً أي ما يقدر بمئتي مليار، نفس الكلمة قالها طفل فقدرتها بمئتي ليرة وقالها مسؤول كبير في البنتاغون فقدرتها بمئتي مليار دولار، فإذا قال الله عز وجل:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

صدق ولا أبالغ أعظم إنجاز تصل إليه أن تعرف الله:

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

أن تعرفه، أن تعرف كمالاته، أن تعرف أسماءه الحسنى، أن تعرف صفاته الفضلى، أن تعرف رحمته بنا، أن تعرف أنه خلقنا للجنة:

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

[من كنز العمال عن ابن عمر]

ما الذي جعل الصديق يقف هذا الموقف البطولي ؟ ما الذي جعل الصديق يقدم ماله كله ؟ يقول له: يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ قال: أبقيت الله ورسوله.

صدقوا ولا أبالغ أنتم حينما تصلون على النبي ماذا تقولون ؟ وعلى أسعدنا، والسعادة هدف كل منا، هل خطر في بالك أن السعادة كل السعادة، والراحة كل الراحة، والفوز كل الفوز، أن تصل إلى الله، أن تستقيم على أمره، أن تخطب وده، أن تخدم له عباده، أن تكون خدمة الخلق، إنسان ناجى ربه قال: يا رب لا يحلو الليل إلا بمناجاتك، ولا يحلو النهار إلا بخدمة عبادك، لك عمل

صالح لا تبتغي به إلا إرضاء الله ؟ كل واحد منا يتحرك أما تحركاته تصب في النهاية في مصالحه، يرفع مستوى بضاعته فيزداد ربحه، يكبر بيته، يجمل بيته، يقتني سيارة حديثة، يعمل نزهات، كل هذه النشاطات تصب في النهاية لمصلحته، لك عمل صالح لا تبتغي به إلا وجه الله ؟ لك عمل صالح يخفف عن هذه الأمة متاعبها ؟ لك عمل صالح يقدم لهذه الأمة بعض الخير ؟ لو أن الله أوقفك يوم القيامة ماذا فعلت من أجلي ؟

الحياة من دون حب ليس لها معنى:

أيها الأخوة الكرام، القلب الآن ينبض، ما دام ينبض كل شيء ممكن، فإذا جاء ملك الموت انتهى كل شيء:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّين)

(سورة الفاتحة)

مالك الدنيا، ومالك الآخرة

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّين)

(سورة الفاتحة)

أنا أقرأ عن الصديق ما هذه المكانة التي حباه الله بها ؟ ما هذا الموقف النبيل في الهجرة ؟ كان يمشي أمام النبي، يتصور الرصد، هناك من يرصده يمشي أمامه، ثم يتصور من يلاحقه يمشي خلفه، ثم عن يمينه، ثم عن يساره، في الغار دخل قبله ليتأكد، ما هذا الحب ؟

أيها الأخوة الكرام، الحياة من دون حب ليس لها معنى، عندنا أستاذ في الجامعة أحد خمسة أشخاص بالعالم في علم النفس، تقاعد فأقيم له حفل وداع، ألقى كلمة قال: أي إنسان لا يشعر بحاجة إلى أن يُحِب أو إلى أن يُحَب ليس من بني البشر، هل تحب الله حقيقة ؟ هل تحب عباده ؟ هل تحب مخلوقاً ضعيفاً تعينه على صلاح حياته ؟

من اتصل بالله عز وجل أذاقه الله حلاوة الإيمان:

أيها الأخوة الكرام، سيدنا الصديق هو أعلى مؤمن بعد رسول الله، سدوا علي كل خوخة غير خوخة أبي بكر، ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك، بطولتك أن تكون مع الحق، تكون جندياً للحق، تكون داعماً للحق، الله كريم، أحياناً الإنسان الأضواء مسلطة عليه لكن حوله أناس يعاونونه، هؤلاء عند الله مقربون إلى الله، نحن فريق عمل، والمفهوم الدقيق الآن يجب أن يكون المؤمنون فريق عمل، كل واحد باختصاصه يقدم شيئاً، أحياناً يقول لك أخ: أنا أعمل بالكهرباء، أي شيء بالجامع أنا بخدمتكم، قدم شيئاً، اعرض شيئاً، تقرب إلى الله بهذا الشيء، قدم عملاً، لذلك:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

والله هناك كلمة أقولها: لا أعرف مدى قبولها عندكم، إذا كان عندك شهوة مصر عليها، وتعلم أنها لا ترضي الله، وآثرتها على طاعة الله، اعلم علم اليقين أن الطريق إلى الله مسدود:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

(سورة التوبة الآية: ٢٤)

والله يأخذني العجب حينما أرى مسلماً يغش المسلمين في البيع والشراء، أين الله أكبر ؟ رأيت هذا المال الذي حصلته من هذا الغش أكبر عندك من الله ؟ نحن حياتنا فيها سلبيات كثيرة جداً، أنت حينما تستقيم تتصل مع الله، وإذا اتصلت أذاقك الله حلاوة الإيمان، سيدنا الصديق ذاق حلاوة الإيمان.

الآية التالية شهادة الله عز وجل لسيدنا الصديق:

أيها الأخوة، هل هناك من شهادة لهذا الصديق الكبير كقوله تعالى:

(ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ(٤٠))

(سورة التوبة)

إلى آخر الآيات، الله ينتظرنا.

((لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إليّ، هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف بالمقبلين؟))

[ورد في الأثر]

من دعا إلى الله و عمل صالحاً أيده الله و وفقه:

أيها الأخوة الكرام، هذا شهر البطولات، شهر يحفزك إلى أن تكون بطلاً من الصباح:

((من أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وأكبر همه الدنيا، جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له))

[أخرجه ابن ماجة عن الترمذي]

والله حديث شريف قرأته قبل أربعين عاماً تقريباً:

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[من الدر المنثور عن عمر بن الخطاب]

أنت تشتغل بعمل صالح، تشتغل بدعوة إلى الله، تشتغل بخدمة الخلق، تشتغل بأن ترحم من حولك، ولا ترى من الله تأييداً وتوفيقاً ودفاعاً وتقريباً وإكراماً ؟ شيء مستحيل.

أيها الأخوة الكرام،

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

أن يكون الله في قرآنه، و الرسول في سنته، أحب إليه مما سواهما:

((...وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

على كل إنسان أن يعمل عملاً فيه جهد وليس له منه أي مردود إلا إرضاء الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام، الدين من غير المعقول أن تكون عباداته شكلية، ليس من المعقول أنت إنسان عادي جداً لكن تصلي إن لم يكن لك ميزة تفوق حدّ الخيال عن غير إنسان لن يكون إيمانك قوياً، أنت إنسان وصلت إلى الله، عرفت الله، اتصلت بالله، استعنت بالله، توكلت على الله، أقبلت على الله، سعدت بالقرب من الله، يجب أن تقول: أنا أسعد الناس.

فيا أيها الأخوة: من لم يبلغ هذه الدرجة في رمضان متى يبلغها ؟ عندما صعد المنبر قال: أمين، قالوا: يا رسول الله، علام أمّنت ؟ قال: جاءني جبريل فقال لي: خاب وخسر من أدرك رمضان، ولم يغفر له، إن لم يغفر له فمتى ؟

يا أيها الأخوة الكرام، فكر صباحاً بعمل صالح، يا رب هب لي عملاً صالحاً أتقرب به إليك، فكر بعمل فيه جهد وليس لك منه أي مردود إلا إرضاء الله عز وجل، فهذا الصديق قدوتنا، أول صحابي سارع إلى الإيمان بالنبي، وإلى خدمته، وإلى دعمه، وإلى نصرته، وإلى إنفاق ماله عليه، وتزويجه ابنته هو الصديق، لذلك قال: ما ساءني قط، هناك أحاديث كثيرة جداً تشيد بهذا الصحابي الجليل، يكفيه أن الله ذكره فقال:

(ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ(٤٠))

(سورة التوبة)

وأنا أقول لكم أيها الأخوة، إذا كنت مع الله لا تحزن إن الله معك، جرب أن تقيم علاقة وشيجة مع الله عز وجل، أن تقيم مناجاة كل يوم لله عز وجل، أسأل الله لي ولكم النجاح، والتوفيق، وقبول الصيام، والعتق من النار.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١٤-٣١) : التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد أساس الإسلام و قوام الدين:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى، عنوان هذه الفائدة التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه.

أيها الأخوة الكرام، حقيقة الدين أنه دين التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد نهاية العلم، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، التوحيد أن تتمثل قوله تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية: ١٠)

التوحيد أن تستوعب قوله تعالى:

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

التوحيد أن تعيش قوله تعالى:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: ٥٤)

الأمر له، كل شيء خلقه بيده، أمره بيده، التوحيد أن تعيش قوله تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

التوحيد أن تطرب لقوله تعالى:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦))

(سورة الكهف)

التوحيد أن ترى كل ما يجري في الأرض قد سمح الله به، سمح به أي أراده لحكمة بالغة بالغة، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، التوحيد إنك إذا رأيت إنساناً قوياً يخطط يجب أن تعلم علم اليقين أن خطة الله استوعبت خطته، التوحيد أن لا ترى رازقاً إلا الله، ولا معطياً إلا الله، ولا مانعاً إلا الله، ولا رافعاً إلا الله، ولا خافضاً إلا الله، ولا معزاً إلا الله، ولا مذلاً إلا الله، التوحيد أن

تتجه إلى الله وحده، أن تعلق عليه الأمل وحده، أن تخافه وحده، أن ترجوه وحده، التوحيد يأخذك إلى أعلى درجات العلم.

الدين الذي أكرمنا الله به هو دين التوحيد:

لذلك هذا الدين الذي أكرمنا الله به هو دين التوحيد، أما أن تؤمن أن الله خلق السماوات والأرض، لا يوجد إنسان في الأرض إلا ويؤمن بهذا، إلا قلة قليلة ركبت رؤوسهم من الملحدين، أما ولئن سألتهم، هؤلاء الذين يعبدون الأوثان:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّه)

(سورة لقمان الآية: ٢٥)

الموحد مستحيل أن يكذب، علاقته مع الله وأمره بيد الله، الموحد مستحيل أن يخاف:

(فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(١٧٥))

(سورة آل عمران)

الموحد لا يخشى إلا الله، التوحيد كل علاقتك في الدنيا مع جهة واحدة هي الله، إن أرضيتها بسخط الناس رضيت عنك وأرضت عنك الناس، من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، التوحيد أن ترى هذا الإله العظيم الذي يسيّر السماوات والأرض هو:

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية: ٨٤)

التوحيد هو فحوى دعوة الأنبياء جميعاً:

الأحداث الكبرى سمح الله بها لحكمة بالغة، بل لا يليق أن يقع في ملكه ما لا يريد، لا يليق بألوهيته أن يقع في ملكه ما لا يريد، المؤمن موحد، بل إن التوحيد هو فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، كل الأنبياء الذين أرسلهم الله لأممهم جاؤوا بالتوحيد، والدليل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

التوحيد نهاية العلم، والعبادة نهاية العمل، وفحوى دعوة الأنبياء أن توحده، وأن تعبده، التوحيد أن تفهم كلّ ما يجري في الأرض فهماً توحيدياً، بل إن أهل الأرض لا يفسرون ما يجري إلا تفسيراً شركياً، يقول لك: وقع زلزال، طبعاً هناك سبب مباشر للزلزال، اضطراب بقشرة الأرض، من مسبب الأسباب ؟

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧))

(سورة هود)

إهلاك القرى عن طريق الزلازل من قبل الله عز وجل، أما أهل الأرض يريدون أن يفهموا الزلزال فهماً مادياً فقط، اضطراب بقشرة الأرض، أما المؤمن يرى أن الزلزال من فعل الله عز وجل عن طريق أسباب أرضية.

المؤمن يوحد الله في الرخاء و الشدة معاً:

أيها الأخوة الكرام، لن تقطف ثمار الدين إلا بالتوحيد، لن تشعر بقوة إلا بالتوحيد، لن تكون شجاعاً إلا بالتوحيد، لن تكون عزيزاً إلا بالتوحيد، لن تذوق طعم الإيمان إلا بالتوحيد، التوحيد أن تعامل الله وحده، التوحيد أن تعتمد عليه وحده، التوحيد أن ترجوه وحده، لكن المشكلة أن الإنسان في الشدة يوحد ولو كان كافراً، قال تعالى:

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ(٦٥))

(سورة العنكبوت)

مادمت على الطائرة واضطربت، ودخلت في سحابة مكهربة، صدقوا ولا أبالغ طائرة تُقلّ خبراء من دولة رفعت شعار لا إله، وفي أثناء طيرانها دخلت في سحابة مكهربة، وكل هؤلاء الخبراء ملحدون، فلما أيقنوا أنهم على وشك الموت اتجهوا إلى الله يدعونه من أعماقهم، أي إنسان ولو كان كافراً، ولو كان ملحداً، عند الشدة يصبح موحداً، لكن بطولة المؤمن أنه موحد في الرخاء والشدة، موحد في الرخاء وفي الشدة:

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ (٦٥))

(سورة العنكبوت)

اضطرب البحر وهاج وماج ليس لهم إلا الله.

التوحيد محصلة الإيمان كله:

أيها الأخوة، أما الأولياء المؤمنون الصادقون موحدون في الرخاء والشدة، الشاهد سيدنا يونس:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(٨٧)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(٨٨))

(سورة الأنبياء)

مرة قال لي أخ كريم: ما الأعمال التي أكون بها موحداً ؟ قلت له: سؤالك عجيب، كمن يقول لطبيب دلني على طريقة أكتب بها وصفة، يقول له الطبيب: كتابة الوصفة نظير جهد بدأ من عشرين عاماً، شهادة ثانوية بمجموع عال، أمضى عاماً في العلوم العامة في الجامعة، وعاماً في

التشريح الوصفي، وعاماً في الفيزيولوجيا وظائف الأعضاء، وعاماً في علم الأمراض، وعاماً في علم الأدوية، ثم أعطي إجازة في الطب، وعمل دبلوم في الطب، دبلوم عام، ودبلوم خاص، وماجستير، ودكتوراه، أخذ دكتوراه في الطب، ثم سافر لبلاد بعيدة أمضى سبع سنوات حتى نال البورد، الآن يكتب وصفة، فأخونا يريد طريقة سريعة ليكتب وصفة، هذا التوحيد محصلة الإيمان كله، عمرك الإيماني، اهتمامك بالدين، فهمك لكتاب الله، أعمالك الصالحة، استقامتك، ضبط جوارحك، ضبط بيتك، ضبط دخلك، هذا الجهد الجهيد يثمر التوحيد، ألا ترى مع الله أحداً، لا ترى فعالاً إلا الله، لا ترى معطياً إلا الله، لا ترى مانعاً إلا الله، لا ترى قوياً إلا الله، لا ترى غنياً إلا الله، لا ترى جميلاً إلا الله:

((إن الله جميل يحب الجمال))

[مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود]

لا ترى مسعداً إلا الله، التوحيد أن تتجه إلى الله وحده.

المؤمن الصادق لا يفهم ما يجري إلا في ضوء التوحيد:

التوحيد أن تفهم كلّ ما يجري في ضوء التوحيد، أحياناً للتقريب بلد نشبت فيه حرب أهلية، لو تابعت الأخبار تجد مقالات تحلل هذه الحرب الأهلية، بعض هذه المقالات ترى أن هناك جهة دولية خطيرة رأت في هذا البلد النامي خطراً عليها فحطمته، هذا تفسير دولي لحرب أهلية تمت في بلد عربي، وهناك تفسير آخر تفسير عربي أنه ساحة صراع بين القوى العربية المتنازعة، وهناك تفسير طائفي أن بهذا البلد الذي تمت به حرب أهلية طائفتان متناحرتان منذ ستين عاماً، من حين لآخر تثور هذه النوازع الطائفية وينشأ قتال، هذه ثلاثة، وللطرفة هناك تفسير نسائي هذا البلد حكمته عين، وهناك تفسير قرآني:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١١٢) ﴾

(سورة النحل)

الأحداث الكبرى التي تجري في الأرض لها آلاف التحليلات، المؤمن الصادق لا يفهم ما يجري إلا بالتوحيد، مثلاً:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(٤)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(٥)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ (٦) ﴾

(سورة القصص)

وبعد ذلك:

(وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(٦))

(سورة القصص)

التوحيد يجعل علاقة الإنسان مع جهة واحدة فقط:

المؤمن يفهم الأحداث الكبرى أن وراءها حكمة بالغة بالغة، وأن هؤلاء المستضعفين أراد الله لهم أن يعرفوه، وأن يتقربوا إليه حتى يسعدهم في الدنيا والآخرة، الموحد لا يحقد أبداً، من الذي يحقد ؟ لو إنسان تلقى ضرباً مبرحاً بعصا، هل يوجد إنسان في الأرض يحقد على العصا ؟ يكون أحمقاً، يكون مجنوناً، إن كان هناك حقد لا على العصا بل على من يمسك العصا، فإذا كان الطغاة عصياً بيد الله، وأحد الأقوياء نالك بالأذى، وحقدت عليه، كأنك حقدت على العصا، يجب أن تعرف أن هذا القوي بيد الله، وما ساقه إليك، وما جعله يصل إليك، وما سمح له أن يسيطر عليك، إلا لحكمة بالغة بالغة علمها من علمها وجهلها من جهلها، التوحيد يجعل علاقتك مع جهة واحدة، التوحيد يجعلك تراجع الأمور في اليوم مئات المرات.

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

في بطن الحوت، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(٨٧)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(٨٨))

(سورة الأنبياء)

أروع ما في الآية أن الله قلب هذه الحادثة إلى قانون:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

في أي زمان، في أي مكان، في أي قطر، في أي مصر، في أي عصر، في أي ظرف، الله موجود، هذه ليست قصة هذه قانون.

الله عز وجل أفعاله كلها عدل و حكمة و رحمة:

أيها الأخوة، دعاء ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام:

((كان يقولُ عند الكربِ: لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله رَبُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله رَبُّ السماوات وربُّ الأرض، لا إله إلا الله رَبُّ الْعَرش الكريم))

[البخاري عن ابن عباس]

الأمر بيد من ؟ قال لك: بيد فلان، فلان من ؟ قل له: رحيم، حكيم، عليم، عادل، منصف، ودود، شيء مريح، إذا الأمر بيد عادل فأفعاله كلها عدل، إذا الأمر بيد رحيم فأفعاله كلها رحيمة، إذا الأمر بيد حكيم فأفعاله كلها حكيمة،

((لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله رَبُّ العرش العظيم))

أنواع الذنوب:

أيها الأخوة، الذي ينبغي أن يكون واضحاً أنك إن لم توحد عد نفسك لست مؤمناً وهناك ذنب لا يغفر وهو الشرك بالله، وذنب لا يترك وهو ما كان بينك وبين العباد، و ذنب يغفر وهو ما كان بينك وبين الله، فالذي بينك وبين الله يغفر، والذي بينك وبين العباد لا يغفر إلا بالأداء أو المسامحة، أما إذا كان الذنب شركاً هذا لا يغفر إلا بالتوبة والتوحيد:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء الآية: ١١٦)

الأقوياء لا يستطيعون أن يتحركوا إلا بإذن الله لحكمة بالغة:

لذلك أيها الأخوة، لا تتوهم توهماً ساذجاً أنت مؤمن وحينما ينالك إنسان بأذى تحقد عليه ؟ الله سمح له، في الأرض يوجد طغاة، يوجد مجرمون كبار، يوجد أشخاص مستعدون أن يفنوا شعوباً انتقاماً، أو كبراً، أو استعلاءً، الطغاة كثر، وترون الحروب في الأرض، ترون المجازر اليومية، المقابر الجماعية، ترون القصف ينال خمسة آلاف في أفغانستان أبادهم عن آخرهم، شيء تسمعون به كل يوم، هؤلاء الأقوياء لا يستطيعون أن يتحركوا إلا بإذن الله، لحكمة بالغة علمها من علمها، وجهلها من جهلها، فلذلك قال تعالى كلام دقيق:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

(مَا مِنْ دَابَّةٍ)

كل شيء يدب على وجه الأرض

(إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

أي حينما يقترب الوحش من إنسان يكون الله عز وجل قد أرخى له الزمام، لن يصل إليك قوي إلا إذا سمح الله له، ويسمح له لحكمة بالغة.

لذلك إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون التوحيد رائداً لنا، أن يكون التوحيد عقيدتنا الصحيحة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١٥-٣١) : طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبس قلبه ولسانه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

طالب الهدى وطالب الدار الآخرة لا يستقيم له سير إلا بحبسين:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى.
يقول ابن القيم في هذه الفائدة: حبسان منجيان فطالب الهدى وطالب الدار الآخرة لا يستقيم له سير إلا بحبسين، دقق أي يحبس قلبه في طلبه ومطلوبه، مطلوبه هو الله، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، وأن يحبس نفسه عن الالتفات إلى غيره، عندنا حبس في وحبس عن، الذي يرجو الله والدار الآخرة يجب أن يحبس نفسه في طلبه ومطلوبه وأن يحبس نفسه عما سواهما، الآن وأن يحبس لسانه عما لا يفيده، وأن يحبسه على ذكر الله عز وجل، وأن يحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وأن يحبسهما على الواجبات والمندوبات.
إذاً حبس في وحبس عن، هذه فائدة من فوائد ابن القيم، لذلك:

((مَنْ كانت الدنيا هَمَّه جعل الله فقْرَه بين عينيه))

[سنن الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

أنت من خوف الفقر في فقر، و من خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، فلذلك:

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[سنن الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

من اصطلح مع الله يُعامل معاملة يذوب فيها محبة لله:

أيها الأخوة، سألت مرة أخاً كريماً ما الذي يشدك إلى الله ؟ طبعاً سيقول أفكار الدين رائعة جداً، هذا كلام صحيح، أفكار الدين رائعة، عميقة، دقيقة، متناسقة، شاملة، كاملة، الدين قدّم لك تفسيراً عميقاً جداً، وتفسيراً صحيحاً، وتفسيراً مهما حدث في الأرض لم يتأثر به، قدم لك تفسيراً للكون والحياة والإنسان، ومن أين، وإلى أين، ولماذا، فالدين قدّم هذا التفسير العميق، الدقيق، المتناسق، ولكن هذا لا يكفي، الذي أتصوره أن الذي يشدك إلى الله أنك حينما تصطلح معه تُعامل معاملة

تذوب فيها محبة لله، تجد أنك في عناية الله، في رعاية الله، في توفيق الله، في تأييد الله، في التيسير لا في التعسير، في الإكرام لا في الإهانة، في الإعزاز لا في الإذلال، فمعاملة الله لك حينما تصطلح معه تشدك إلى هذا الدين، إذاً:

((وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[سنن الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

لا أنسى حديثاً شريفاً سمعته من أعوام طويلة ترك أثراً كبيراً في نفسي،

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[من الدر المنثور عن عمر بن الخطاب]

من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عن مالنا كنا له ومالنا، في بعض الآثار القدسية:

((عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

من فوائد الحديث التالي:

١ ـ منزلة الشاب التائب عند الله تعالى:

أيها الأخوة، النقطة الثانية ورد في الأثر القدسي:

((أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد))

[ورد في الأثر]

شاب في مقتبل الحياة، يتألق، يستعر قلبه للشهوات، ومع ذلك ضبط سمعه فلا يسمع الغناء، ضبط بصره فلا يملأ عينيه من محاسن امرأة لا تحل له، ضبط لسانه، ضبط سلوكه، ضبط جوارحه، ضبط دخله، ضبط إنفاقه :

((أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد))

[ورد في الأثر]

لذلك، إن الله يباهي الملائكة بالشاب التائب، يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب:

((أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، أحب المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد))

غني لكنه متواضع، مرة كنت في أمريكا فعلمت أنهم يتقنون صناعة السيارات في أعلى مستوى، ثم فوجؤوا أن كل عشر سيارات في شوارعهم ثماني سيارات منها من صنع اليابان، إذاً هناك تخلف في صناعتهم، أرسلوا وفداً إلى اليابان ليروا أين الخطأ عندهم وأين الخلل، فوجدوا أنهم في أعلى درجة من التقنية لكن الخلل اجتماعي، العامل في اليابان يعد صهر صاحب العمل، مستقبله مضمون، مكانته كبيرة، تعويضاته جزيلة، لذلك يتقن عمله، فلذلك عندما ينتبه الإنسان إلى هذه الناحية ينال أضعافاً مضاعفة.

٢ ـ منزلة الشيخ الكبير المقيم على معصية عند الله تعالى:

((أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، أحب المتواضعين، بعض مدراء الشركات يأكلون مع عمالهم، وأحب الأغنياء وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد، وأبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد، إنسان بالأربعين، بالخمسين، بالستين، مراهق يقول لك: نفسه خضراء، هذا كلام مضحك، كل سن له ترتيبه))

[ورد في الأثر]

النذير هو:

١ ـ الشيب:

قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ (٣٧))

(سورة فاطر)

ما النذير ؟ قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: النذير هو الشيب.

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك فاستح مني فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

النذير هو الشيب.

٢ ـ سن الأربعين:

والنذير سن الأربعين، من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار، ومن دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، أنت لاحظ سافرت إلى بلد لتمضي فيه إجازة عشرة أيام، لاحظ بعد اليوم السابع تفكر بقطع بطاقة العودة، بعد اليوم السابع تفكر بالهدايا، تفكر في الرجوع، فمن دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، لأن معترك المنايا كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "معترك المنايا بين الستين والسبعين ".

٣ ـ سن الستين:

إذا دخل الإنسان في سن الأربعين تجاوز الثلثين، دخل في أسواق الآخرة، والنذير سن الستين.

٤ ـ المصائب:

والنذير هو المصائب:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))

(سورة القصص)

المصيبة رسالة من الله، إنسان شارد، غافل، غارق في تجارته، في همومه، في طموحاته، ينسى أن يؤدي الصلوات ؟ ينسى أن يؤدي ما عليه من حقوق ؟ هذا الإنسان الشارد يحتاج إلى صعق، إلى تنبيه، إلى لفت نظر، فتأتي المصيبة كرسالة من الله عز وجل، إذاً:

((أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، أحب المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد، وأبغض ثلاثاً وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد، وأبغض المتكبرين، وبغضي للفقير المتكبر أشد، أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد))

[ورد في الأثر]

لذلك قيل: التوبة حسن لكن في الشباب أحسن، والعدل حسن لكن في الأمراء أحسن، و الورع حسن لكن في العلماء أحسن، والسخاء حسن لكن في الأغنياء أحسن، والصبر حسن لكن في الفقراء أحسن، والحياء حسن لكن في النساء أحسن.

التولي و التخلي:

أيها الأخوة، أثر قدسي آخر:

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

((ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

لذلك الصحابة الكرام في بدر قالوا الله:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: ١٢٣)

أي مفتقرون إلى الله، إذا قلت الله قبل أن تجري عملية جراحية، يا الله وفقني، يا رب أنت الموفق، أنت الملهم، يا رب أنا جاهل علمني، قبل أن تلقي درساً، قبل أن تقابل مسؤولاً يا رب ثبتني، يا رب أنطقني بالحق، أنت حينما تفتقر إلى الله يتولاك الله، وحينما تعتد بنفسك، وبخبرتك، وبشهادتك، وبعلمك، وبمالك، عندئذ الله عز وجل يتخلى عنك، فالصحابة الكرام وهم قمم البشر، ومعهم سيد البشر، حينما اعتدوا بعددهم في حنين وقالوا: لن نغلب من قلة، قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(٢٥))

(سورة التوبة)

إذاً أيها الأخوة، درس التولي والتخلي نحتاجه جميعاً، نحتاجه كل يوم بل والله كل ساعة تقول: الله يتولاك، يوفقك، يلهمك الصواب، يعطيك الحكمة، يعطيك القوة، يعطيك الثبات، يعطيك الثقة بالنفس، يعطيك التأييد، يدافع عنك، إذا قلت: الله، فإذا قلت: أنا تخلى الله عنك، وأبلغ درس يعيشه كل مؤمن هذا الدرس، حينما لا ينجح اعتدّ بنفسه، فإذا اعتدّ بما عند الله وافتقر إلى الله كان في أعلى عليين.

المتقي إنسان محبوب فعليك بتقوى الله:

أيها الأخوة الكرام، عليك بتقوى الله فإن المتقي ليس عليه وحشة، قالوا: " الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس "، ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري، إن حبسوني فحبسي خلوة، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، إني قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟

المتقي ليس عنده وحشة، وقال بعضهم: " من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا "، المتقي محبوب، صفات المؤمن تدعو أن تحبه، متواضع، صادق، وفي، أمين، يحب الخير، لا يتدخل فيما لا يعنيه:

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

[الترمذي عن الحسين بن علي]

هذه الصفات تدعو إلى المحبة، قال: " إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس فلن يغنوا عنك من الله شيئاً ".

أحياناً إنسان يعبد شهواته من دون الله، يرضي الناس بذكاء بارع، الله عز وجل يبتليه بمرض عضال، ما قيمة ولاء الناس له ؟ علاقتك مع الله عز وجل.

مرة قلت لأخ كريم: لو أنك استطعت وكنت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، واستطعت أن تنتزع من فمه الشريف فتوى لصالحك، ولم تكن محقاً، لن تنجو من عذاب الله، الدليل:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا))

[متفق عليه عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

علاقتك مع الله عز وجل، قال سليمان بن داود: " أوتينا مما أوتي الناس ومما لم يؤتوا، وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا، فلم نجد شيئاً أفضل من تقوى الله في السر والعلانية، والعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى".

الافتقار إلى الله في الغنى و الفقر:

الإنسان وهو فقير يدعو الله فإذا اغتنى نسي الله، هذا خطأ كبير، بطولة المؤمن أنه مفتقر إلى الله في الفقر والغنى، وينطق بكلمة العدل في الغضب والرضا، أحياناً إنسان يخطب من بيت تسمع عنه ثناء غير معقول، صار ولياً، فهيماً، ذكياً، الخطبة لا تستمر، صار لئيماً، معه أمراض، و أشياء غير معقولة :

((أحْببْ حبيبَك هَوْنا مَّا، عسى أن يكونَ بَغِيضَكَ يوماً مَّا، وأبْغِضْ بغيضَك هَوْنا مَا عسى أن يكونَ حبيبَك يوماً ما))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لا يوجد اعتدال يكال له المدح بغير حساب، فإذا نشأت مشكلة يكال له الذم بغير حساب، لذلك العدل في الغضب والرضا، النبي صلى الله عليه وسلم رأى صهره أسيراً مع الأسرى، زوج ابنته وجاء ليحارب النبي، وهو صهره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " والله ما ذممناه صهراً "، كان صهراً ممتازاً. هذا موضوعية، والموضوعية قيمة أخلاقية وعلمية معاً.

الإنسان يتعامل مع الله عز وجل مباشرة لأنه ليس بين الله وبين عبده حجاب:

أيها الأخوة، الإنسان حينما يتعامل مع الله مباشرة ولا تنسوا أن الآيات الكثيرة:

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ (٢١٩))

(سورة البقرة)

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة الآية: ٢١٩)

أكثر من عشر آيات يسألونك، وبين السؤال والجواب كلمة قل، إلا في آية واحدة:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ)

(سورة البقرة الآية: ١٨٦)

ليس بين الله وبين عبده حجاب، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يقبل طاعتنا، وأن يلهمنا الصواب

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١٦-٣١) : هجر القرآن أنواع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

هجر القرآن أنواع منها:

١ ـ هجر سماعه والإيمان به والإصغاء له بل هجر تلاوته أصلاً:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى.

عنوان هذه الفائدة هجر القرآن أنواع، تنطلق هذه الأنواع من قوله تعالى:

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا(٣٠))

(سورة الفرقان)

أحد أنواع هجر القرآن هجر سماعه، والإيمان به، والإصغاء له، بل هجر تلاوته أصلاً، لا يتلوه، ولا يسمعه، ولا يؤمن به، ولا يصغي إليه، هذا أسوأ أنواع الهجر، هجر تلاوته، وهجر سماعه، وهجر الإصغاء له، بل والإيمان به.

٢ ـ هجر العمل به:

هناك هجر آخر، هجر العمل به، لا يعمل به.

((ورب تال للقرآن و القرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

يقرأ الآيات وكأنها لا تعنيه، بل حينما يقرأ قوله تعالى:"يا أيها الذين آمنوا" لا يشعر أن الله يخاطبه، أصبحت تلاوة القرآن شيئاً بعيداً عن حياته، يتلوه لكن لا يعمل به، فالأول هجر تلاوته، وهجر سماعه، والإصغاء إليه، والإيمان به، أما الثاني قرأه لكن لا يعمل به، هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به، وهذا ينطبق على معظم المسلمين، علق في سيارته مصحفاً، تدخل إلى محله التجاري " إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً "، تدخل إلى بيته الأسماء الحسنى، آية الكرسي، هناك اختلاط، وتجاوز حدود، و ارتكاب معاص، و أكل مال حرام، و علاقات نسائية لا ترضي الله عز وجل، كل هذه المعاصي والبيت فيه أسماء الله الحسنى لوحة جميلة جداً، واللوحة الثانية آية الكرسي، وفي المحل التجاري " إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً "، هذا هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به، هذا هجر شائع عند الناس.

مرة استوقفني أخ دعاني إلى محله التجاري في أحد أسواق دمشق، قال لي: جاءني خاطب لابنتي، جميل الصورة، عنده معمل، وبيت، وسيارة، لكن دينه رقيق، ما قولك يا أستاذ ؟ قلت له: أنت حينما تقرأ القرآن الكريم ثم تنتهي من قراءته لعلك تقول: صدق الله العظيم، اسمع ما يقول الله لك، يقول الله لك:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة الآية:٢٢١)

فأنت إن زوجت ابنتك هذا الشاب على أنه وسيم الصورة، وغني، وقوي، وعنده بيت، ومركبة، فأنت حينما تقرأ هذه الآية، وتنتهي من قراءتها وتقول: صدق الله العظيم، أنت حينما تزوج ابنتك هذا الشاب لست مصدقاً لكلام الله.

دقق أيها الأخ حينما تعمل شيئاً خلاف القرآن هذا العمل يؤكد أنك لا تصدق الله عز وجل، هذا هجر العمل به.

٣ ـ هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه:

هناك هجر آخر ؛ هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، نختلف، امرأة في بلاد الغرب اختلفت مع زوجها ترفع قضيتها لقاض غربي، لأنه يحكم لها بنصف أملاك زوجها، ولا ترفع أمرها إلى قاض إسلامي لأنه يحكم لها بالمهر فقط، رفضت أن يحكم القرآن في هذا الموضوع، هذا أحد أنواع الهجر، وأكثر الأشخاص حينما يرى أن مشكلته لا تحل إلا عند العلماء، أي المستأجر بحكم قانون الإيجار لا يخرج من البيت، سابقاً كان هناك قانون صعب جداً، المستأجر مالك للبيت، فالإنسان إن أجّر بيته، والقانون مع المستأجر، يأتي إلى المشايخ سيدي نريد حكم الله، والله شيء جميل، تريد حكم الله، لأن عنده قناعة أن القضاء لن يستطيع استرداد البيت، لأن القانون سابقاً كان مع المستأجر لأنه الأضعف.

هناك قضية ثانية عند المشايخ حرام، يقول لك: نحن نعيش في بلد فيه قانون، يرفع أمره إلى القضاء، عنده حاسة سادسة أين تحل قضيته ؟ مع العلماء، سيدي نحن نريد كلام الله، نحن مؤمنون، ونحن مسلمون، ونريد الشرع، أما هناك قضية ثانية لا تحل بالشرع تحل بالقانون، أستاذ نحن نعيش في بلد فيه قانون، والمحاكم هي الفاصل بيننا، هذا يهجر الاحتكام إليه:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً)

(سورة النساء)

هذا الهجر هجر تحكيمه والاحتكام إليه في أصول الدين وفروعه، والاعتقاد أنه لا يفيد اليقين.

٤ ـ هجر تدبره و تفهمه:

الهجر الذي بعده هجر تدبره، وتفهمه، ومعرفة ماذا أراد الله منه، هجر التدبر.

٥ ـ هجر الاستشفاء والتداوي في جميع أمراض القلب منه:



وهناك هجر خامس قال: هجر الاستشفاء والتداوي في جميع أمراض القلب منه، أي هجره ورفض أن يداوى في أمراض قلبه بالقرآن:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

(سورة المعارج)

هذا مرض، الله أودعه بالإنسان:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

(سورة المعارج)

حينما تحكم صلاتك تشفى من هذا المرض.

العسل يشفي الجسد والقرآن يشفي النفوس:

كيف أن العسل كما قال الله عز وجل:

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ (٦٩))

(سورة النحل)

كذلك القرآن فيه شفاء للنفوس، العسل يشفي الجسد، والقرآن يشفي النفوس، كيف يشفي النفوس ؟ سافرت إلى بلد غربي، بلد جميل جداً، أمطاره بآلاف المليمترات، وغابات عملاقة، كنت في بلد في أمريكا الشمالية حول المدينة يوجد مليون بحيرة وكل بحيرة على مد النظر أكبر تجمع مائي في العالم، زرت مرة جنوب أمريكا في البرازيل شلال كثافته بالثانية مليون وأربعمئة ألف متر مكعب، شلالات عملاقة، تركب الطائرة سبع ساعات غابات، بلاد جميلة، خيرات وفيرة، حريات عجيبة، كل شيء بأعلى درجة لا يصلون، ويكفرون، ويرتكبون الفواحش والآثام، وفي الظاهر مرتاحون، هذا البلد يعمل لك أزمة نفسية، تقرأ القرآن:

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية: ٤٤)

هذه الآية شفاء للصدور، تجد بلداً عليه ضغط شديد تقرأ القرآن:



(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦))

(سورة القصص)

ترتاح تقرأ قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: ٩٧)

تقرأ قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وابشروا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت)

فيها شفاء للصدور.

الإسلام نعمة كبيرة منّها الله على الإنسان:

تقرأ قوله تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

(سورة السجدة)

والله نعمة إذا كنت مؤمناً، تقرأ قوله تعالى:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم)

والله أنت في نعمة كبيرة ما دام أنت مسلم، تقرأ قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

تتألق، تقرأ القرآن يطمئنك:

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور الآية: ٤٨)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (٤))

(سورة الحديد)

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

مع المتقين، مع الصادقين، مع التوابين، مع المتطهرين، هذا شفاء للصدور.

إعادة لأهم و أخطر أنواع الهجر في القرآن الكريم:

إذاً أخطر أنواع الهجر ألا تتلوه، وألا تسمعه، وألا تصغي إليه، وألا تؤمن به، الهجر الأقل، أن تهجر العمل به، والوقوف عند حلاله وحرامه، الهجر الثالث أن تهجر أن تحتكم إليه، الهجر الرابع أن تهجر تدبره، أن تعرض نفسك على كل آية أين أنت منها ؟ الهجر الخامس أن ترفض أن تستشفي بالقرآن الكريم، مثلاً تجد أمة قوية تخطط لبناء مجدها على أنقاض الشعوب، بناء عزها على إذلال الشعوب، حريتها على قهر الشعوب، حياتها على موت الشعوب، غناها على فقر الشعوب تتألم، تقرأ القرآن:

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(سورة يونس الآية: ٤٩)

تقرأ القرآن:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران)



تقرأ القرآن ترتاح:

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧))

(سورة إبراهيم)

شيء جميل، تقرأ القرآن:

(قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

ثم تقرأ قوله تعالى:

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا)

(سورة آل عمران الآية: ١٢٠)

شيء جميل جداً، أيها الأخوة، هذا أحد أنواع الهجر أن تهجر الاستشفاء به، استشفاء النفس بالقرآن، أن تهجر تدبره، تفهمه، أن تهجر تحكيمه في أمورك، أن تهجر العمل به، أن ترفض تلاوته، وسماعه، والإصغاء إليه، والعمل به.

حق تلاوة القرآن الكريم أن يتلوه الإنسان وفق قواعد اللغة العربية ووفق قواعد التجويد:

أيها الأخوة، حينما يقول الله عز وجل:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

(سورة البقرة الآية: ١٢١)

ما حق تلاوته ؟ بالمقابل، حق تلاوته أن تتلوه وفق قواعد اللغة العربية، لذلك قال سيدنا عمر: " تعلموا العربية فإنها من الدين "، هناك آيات كثيرة حركة واحدة فيها يصبح المعنى خطيراً جداً:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (٢٨))

(سورة فاطر الآية: ٢٨)

مفعول به مقدم، فاعل مؤخر، لو إنسان قال: إنما يخشى اللهُ، المعنى فاسد:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

(سورة التوبة الآية: ٤٠)

الآن لو قلت: وكلمة الله، أي الله عز وجل جعل كلمته عليا بعد أن كانت والعياذ بالله، المعنى فاسد:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

وقف،

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

دائماً، جملة استئنافية مبتدأ وخبر،

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

إذاً أنت حينما تقرأ القرآن وفق قواعد اللغة، أحياناً الإنسان بحركة واحدة ينتقل من الجنة إلى النار، قال أحد الصحابة قبل أن يقتل:

ولست أبالي حينما أُقتل مسلماً على أي جنب ألقى في الله مصرعي

***

أما إذا قُرئ هذا البيت:

ولست أبالي حينما أقتل مسلماً على أي جنب ألقى في الله مصرعي

***

إلى جهنم وبئس المصير، حركة واحدة تنقل الإنسان من الجنة إلى النار، فأن تتلوه حق تلاوته، حق تلاوته أن تقرأه وفق قواعد اللغة، ثم أن تتلوه وفق قواعد التجويد إن أمكن، وحق التلاوة أن تفهمه، وحق التلاوة أن تتدبره، أية آية تقرأها تعرض نفسك عليها، هل أنت مطبق لها ؟ وحق التلاوة أن تطبقه.

على كل إنسان أن يعلم أنه معني بالخطاب عند قراءته للقرآن الكريم:

صار تلاوته وفق قواعد اللغة العربية، تعلموا العربية فإنها من الدين، ثم تلاوته وفق قواعد علم التجويد، ثم تلاوته مع فهمه، ثم تدبره، ثم العمل به، هذا معنى قوله تعالى:

(يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ)

(سورة البقرة الآية: ١٢١)

ودائماً وأبداً أنت حينما تقرأ " يا أيها الذين آمنوا" يجب أن تشعر أنك معني بالخطاب:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ (٢))

(سورة الأنفال)

هل أنت كذلك ؟ هل تشعر بالوجل والقلق والخوف حينما تتلو قوله تعالى هذا ؟ التلاوة حق التلاوة أن تتدبره، أن تقول أين أنا منه ؟ لذلك لا يوجد مانع أن تتلو القرآن تلاوة تعبد، كل يوم جزء، و لا يوجد مانع أبداً أن تتلوه مرة ثانية تلاوة تدبر ولو أمضيت بآية ساعة، الكمية ليس لها قيمة هنا القيمة للفهم والتحقق.

اكتشاف قوانين القرآن الكريم عند قراءته يؤدي إلى تدبره:

أما أفضل شيء أن تكتشف قوانين القرآن الكريم حينما تقرأه:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية: ٩٧)

هذا قانون:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت الآية: ٢٠)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

إذا اكتشفت القوانين تكون قد قمت بتدبره بأعلى مستوى، أيها الأخوة الكرام، القرآن الكريم يهجر في خمسة مستويات، ويتلى حق التلاوة في خمسة مستويات، لذلك نحن في شهر القرآن اجعل قراءة تعبدية ثم ضمّ إليها قراءة تدبرية.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١٧-٣١) : اللذة تابعة للمحبة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

العلم أساس السعادة:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. تقول هذه الفائدة: اللذة تابعة للمحبة، لكن قبل أن نبدأ في شرح هذه المقولة، لابدّ من تمهيد، الإنسان له جانب عقلي، وجانب نفسي، وجانب مادي، فالمادي جسمه ؛ له قوانين، وله حاجات، والجانب العقلي عقله يحتاج إلى علم، والجانب النفسي أساسه الحب، هناك جانب علمي، جانب سلوكي، جانب جمالي، وإن صحّ أن نذكر أن الإنتاج العلمي والشعوري للبشرية، الإنتاج التي أنتجته البشرية علم، وفلسفة، وفن، فالعلم ما هو كائن، والفلسفة ما يجب أن تكون، والفن ما هو ممتع، فكل إنسان عنده جانب جمالي، والحقيقة العبادة التي خلقنا من أجلها هي طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

هناك جانب سلوكي طاعة طوعية، جانب علمي أساسها معرفة يقينية، جانب جمالي تفضي إلى سعادة أبدية، فالحاجة إلى الجمال حاجة أساسية في الإنسان لكن إذا استقام على أمر الله في أعلى مستوياتها.

الآن، لماذا النبي صلى الله عليه وسلم أسعد الناس ؟ لأن معرفته بالله أعظم معرفة، لو أتيح فرصاً لواحد منا أن يعرف ما عرفه النبي صلى الله عليه وسلم لكان سعيداً كسعادته، السعادة مرتبطة بالمعرفة، فلذلك: إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، العلم أساس السعادة.

ارتباط السعادة بالمعرفة:

بشكل أو بآخر الإنسان حينما يعرف أن في هذا الشيء متعة بالغة ويناله يكون سبب المتعة البالغة معرفته، الله عز وجل قال:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٤٦))

(سورة الكهف)

إنسان عنده أولاد ودخله قليل جداً يتمزق، أولاده أمامه يحبهم لا يملك ما يطعمهم، لا يملك ما يكسوهم، الآن مال من دون أولاد شيء مؤلم جداً، أموال طائلة، ملايين مملينة، لا يوجد ابن ينتفع

بها أو يرثها، الذين ينجحون في الحياة ولم يرزقوا بالأولاد عندهم مشكلة كبيرة جداً، الله عز وجل قال:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٤٦))

(سورة الكهف)

الآن دقق:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ (٤٦))

(سورة الكهف)

الباقيات الصالحات عند بعض علماء التفسير: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. أي حينما تسبحه، وحينما تكبّره، وحينما تحمده، وحينما توحده، فأنت أسعد الناس، السعادة مرتبطة بالمعرفة.

الفرق بين اللذة والسعادة:

١ ـ اللذة متناقصة مادية الطبع تأتي من الخارج:

لكن هنا في الفائدة جاءت كلمة اللذة، وأنا أحبّ أن أوضح الفرق بين اللذة والسعادة، أول شيء: اللذة حسية، أي تستمتع بطعام طيب، تستمتع بمكان جميل لذة، تستمتع بوجه طفل جميل لذة، اللذة حسية تحتاج إلى شيء مادي، تحتاج إلى شيء مادي ليس في داخلك يأتيك من الخارج، مكان جميل، وردة جميلة، طفل جميل، طعام طيب، منظر جميل، فكل شيء فيه جمال، الأشياء الجميلة أخذت من جمال الله مسحة، هناك طعام نفيس، و طعام وسط، و طعام خشن، هناك منظر جميل جداً، و منظر مزعج جداً، الجمال أشياء منحها الله عز وجل مسحة من جماله، فأنت إذا اتصلت بها نالتك لذة، فاللذة تأتي من الخارج وطابعها حسي، لكن أخطر ما في اللذة أنها متناقصة.

كل واحد منا يوم يشتري بيتاً أول أسبوع، أول شهر، يستمتع به استمتاعاً كبيراً، بعد ذلك أصبح البيت مألوفاً، يشتري مركبة أول أسبوع لا ينام الليل، بعد ذلك مألوف، كأن الله عز وجل أبى أن يسمح للدنيا أن تمد الإنسان بلذة مستمرة، مستحيل أن تمده بلذة متعاظمة، مستحيل أن تمده بلذة مستمرة، لكن الذي يحصل أن كل متع الدنيا تمد الإنسان بلذة متناقصة، تجد إنساناً ناجحاً جداً، واقتنى بيتاً كبيراً، وأثاثاً فخماً، وأنواعاً منوعة من الطعام والشراب تجده بحالة اسمها الملل، أكل لشبع، سافر لشبع، أي متعة مارسها بأعلى درجة، تجد هذه المتع لا تمده بلذة مستمرة ولا متعاظمة بل متناقصة.

إذاً اللذة طابعها حسي، واللذة تأتيك من خارجك، واللذة متناقصة، لو أن هذه اللذة في معصية كان معها كآبة، أتكلم عن لذائذ مشروعة، عن لذائذ مباحة، عن لذائذ مباحة، عن لذائذ لا ضير أن تأخذ منها، فإذا كانت هذه اللذة من محرم، من زنا مثلاً، من سرقة، كان معها كآبة كبيرة جداً، لذلك المرض الأول في العصر هو الكآبة، لأن الإنسان في هذا العصر ابتعد عن الدين، والدين فيه ضوابط، وتحرك وفق شهوته فلما أخذ ما ليس له، أو لما اعتدى على أعراض الآخرين، لما بنى لذته على معصية لله، والمعصية فيها عدوان، شعر بكآبة، لأن الإنسان جبل على نمط يطابق الشرع تماماً، فإذا عصى الله عز وجل حاربته نفسه، فإذاً اللذة ليست متنامية وليست مستمرة بل متناقصة، وهي مادية الطابع، وتأتيك من الخارج.

٢ ـ السعادة تنبع من داخل الإنسان لا تحتاج إلى مادة أو مال تحتاج إلى صلة بالله:

أما السعادة تنبع من داخلك، صدقوا ولا أبالغ يمكن أن نسميها بالمصطلح القرآني السكينة، فأنت بالسكينة تسعد ولو فقدت كل شيء، قد لا تصدقون أن إنساناً بالمنفردة مع السكينة أسعد إنسان، وبأجمل بيت من دون سكينة أشقى إنسان، شيء عجيب، سيدنا يونس رأى السكينة في بطن الحوت:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

سيدنا إبراهيم رأى السكينة في النار:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

سيدنا موسى رأى السكينة وهو في أصعب الأوقات وهو هائم على وجهه خائفاً، إذاً هذه السكينة شيء نفيس جداً، أي السعادة، تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، هذا العطاء الإلهي الكبير، السكينة تنبع من الداخل، ولا تحتاج إلى مادة، لا تحتاج إلى مال، تحتاج إلى صلة بالله عز وجل، تحتاج إلى طاعة.

اللذة من سلبياتها أنها تحتاج إلى وقت وصحة ومال أما السعادة يمكن أن تبدأ وتستمر بها:

لذلك قالوا: اللذة من سلبياتها أنها تحتاج إلى وقت، وإلى صحة، وإلى مال، لذة من دون مال لا يوجد، يقول لك: والله كلف العشاء ثلاثين ألفاً، هناك عصير، و مقبلات، و حلويات، و فواكه، و أنواع منوعة من الطعام، و أجواء رومانسية، لا يوجد لذة من دون مال، ولا يوجد لذة من دون شباب و صحة، الذي معه أمراض لا يستطيع أن يأكل شيئاً، ولا يوجد لذة من دون وقت، اللذة

تحتاج إلى مال، وإلى صحة، وإلى وقت، ولحكمة بالغة بالغة أي إنسان دائماً ينقصه أحد شروط اللذة، في البدايات شاب يطحن الحجر لكن لا يوجد مال، أول حياته يوجد صحة و وقت لكن لا يوجد مال، عمل عملاً، نجح العمل، أقسم لي بالله صاحب معمل على رأس عمله قال: والله خمس وعشرون سنة أدخل المعمل الساعة الخامسة صباحاً أخرج منه آخر إنسان، اشترى بيتاً بمئة وستين مليوناً، لا يوجد عنده وقت ليستمتع، اللذة تحتاج إلى وقت، فالمعمل نجح ودخله فلكي، أولاده كبروا سلمهم المعمل، صار معه مال ووقت لكن لا يوجد صحة أسيد أوريك، شحوم ثلاثية، هذا الطعام ممنوع، هذا لا يناسبه، في البدايات يوجد صحة و وقت و لا يوجد مال، بمنتصف الحياة المال موجود والصحة موجودة و لا يوجد وقت، بنهاية الحياة هناك مال ووقت ولا يوجد صحة.

أما السعادة يمكن أن تبدأ بها وتستمر إلى نهاية الحياة، وفي نهاية الحياة تنقلك هذه السعادة إلى سعادة أعظم، أنا أحياناً أدخل إلى بيت أجد صاحبه مؤمناً مستقيماً، والبيت جميل، وكل شيء فيه، أقول له: جعل الله نعم الدنيا عندك متصلة بنعم الآخرة، هذا ليس صعب أبداً، الإنسان إذا أكرمه الله تكون متع الدنيا متصلة بمتع الآخرة.

في قلب المؤمن من السكينة والسعادة و الرضا ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم:

لذلك أول نقطة السعادة لا أقول اللذة، اللذة حسية متناقصة، مع المعصية فيها كآبة، تحتاج إلى وقت، وإلى صحة، وإلى مال، ودائماً هناك عنصر مفقود من هذه الثلاثة، دعك من اللذة وادخل في السعادة، السعادة تنبع من الداخل لا تحتاج إلى شيء خارجي إطلاقاً، يقول بعض العلماء: بستاني في صدري.

سمعت عن عالم جليل توفي من فترة، وكان من علماء القرآن الكريم، وتوفي في سن تزيد عن المئة، وقبل أن يتوفى بيوم أعطى إجارة قرآن، يقول أحد العلماء أنه لم يطلب بحياته نزهة، لأنه هو في سعادة وهو يعلم القرآن، ويتصل بالواحد الديان، في سعادة كبيرة جداً، فالسعادة تنبع من الداخل ولا تحتاج إلى أي شرط مادي، لا تحتاج إلى بيت واسع، ولا إلى مال وفير، أنت حينما تتصل بالله فأنت أسعد الناس.

مرة كنت في جبلة، وأشير إلى مقام لعالم كبير جداً اسمه إبراهيم بن الأدهم، ثم علمت أن هذا العالم كان ملكاً، فحينما عرف الله ترك الملك، وقال هذه المقولة وأنا لا اصدق هذه المقولة إلا منه بالذات لأنه كان ملكاً قال: لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف.

والله يوجد بقلب المؤمن من السكينة، من السعادة، من الرضا، من الشعور بالفوز، من الشعور بالتألق، ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم، لا تظن أنه لا يوجد شيء بالدين، الجهلاء أعداء الدين، يظنون أن هذه المؤمن محدود الأفق، لم يشاهد شيئاً، من بيته إلى الجامع، ومن الجامع إلى البيت،

لكن و الله لا يعرف هذا الجاهل ما يوجد عندك من السعادة، لا يعرف أن الله عز وجل تجلى على قلبك فتنسى الدنيا وما فيها.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الـذي رأوه لما وليت عنا لـــــغيرنا

ولو سمعت أذناك حســـن خطابنا خـلعت عنك ثياب الـعجب وجئتنا

ولو ذقت من طعم المـــحبة ذرة عذرت الـــذي أضحى قتيلاً بحبنا

ولـــو نسمت من قربنا لك نسمة لــمت غريباً واشتياقــاً لقربنا

***

من حجب عن الله تعالى فهو في معصية كبيرة:

أيها الأخوة الكرام، يوجد ملاحظة مزعجة، بيت فيه كل الأجهزة الكهربائية، أي جهاز تتصوره موجود، لكن لا يوجد كهرباء، فكل هذه الأجهزة لا قيمة لها، ليس لها معنى، تحجز مكاناً في البيت دون أن تؤدي أي شيء، الآن جاءت الكهرباء كل هذه الأجهزة تعمل، أنا أتصور الاتصال بالله كالكهرباء لحياتك، كل شيء له طعم طيب، الزواج مع الصلة بالله له طعم طيب، العمل في هدف كبير، الآن لو أن هذا التيار انقطع، الإنسان حينما يعصي الله يحجب عن الله، يحجب بمخالفة بسيطة، وبجريمة كبيرة، هل يعقل أن أخسر كل ما في الدين من سعادة، من أمن، من راحة نفسية، من سكينة لأسباب صغيرة ؟ فأنت إذاً مغبون غبناً كبيراً جداً، إنسان مثلاً يسوقونه إلى الإعدام لأنه قاتل، هناك تناسب بين الإعدام وبين القتل، لكن هل من الممكن إنسان يساق للإعدام لمخالفة سير ؟ ليس من المعقول.

فلذلك أيها الأخوة الكرام، لو أن إنساناً برمضان ضبط سلوكه ضبطاً شديداً جداً، ضبط لسانه، ولا كلمة غيبة ولا نميمة، ضبط بصره عن أي امرأة لا تحل له، في الطريق غض بصره عن أية امرأة لا تحل له، ضبط أذنه لم يسمع غناء، لم يغتب، لم يكذب، لم يسخر، لم يقلد، بل في خدمة من حوله، لا بدّ من أن يذوق طعم القرب من الله، بطريقة أو بأخرى، لأن الله عز وجل كريم تخطب وده، وتحرص على طاعته، وتخدم عباده، وتضبط سلوكك تماماً، تأتيك مشاعر إيمانية تذوب منها.

من استقام على أمر الله أذاقه حلاوة القرب منه:

لذلك هذه السكينة ثمنها الاستقامة، وما لم نستقم على أمر الله لن نقطف من ثمار الدين شيئاً، هذا كلام أنا أعده ملخص الملخص، ورمضان مناسبة للصلح مع الله، ولضبط السلوك، ولأن تذوق حلاوة القرب من الله، في الدنيا جنة من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة، والدليل:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦))

(سورة محمد)

عرفها لهم في الدنيا، ذاقوا طعمها في الدنيا، والذين ذاقوا يعرفون ما أقول، جنة القرب من الله، تجد إنساناً وضعه المادي بسيط جداً، بل أقل مما ينبغي، يتألق سعادة تكاد لا توصف، تجد شخصاً، مرة أخ كريم أقسم بالله التقى بأحد أسواق دمشق الكبرى بتاجر قال لي: والله حجمه المالي أربعة آلاف مليون ـ صار عندنا آلاف الملايين ـ: على قدر ما شكا لي همه بركت، الوضع لا يعجبه، التجارة غير ناجحة، بشكل غير معقول، قال لي: ذهبت إلى محلي التجاري وجدت امرأة محجبة تنتظرني، تفضلي يا أختي، قالت له: دلوني عليك أريد مساعدة في الشهر ألف ليرة، أين تسكنين ؟ في بلدة خارج دمشق، أخذ عنوانها، وعنده اجتماع في هذه البلدة بجمعية خيرية، قال لهم هذه الإنسانة تحققوا طلبت ألف ليرة في الشهر، قالوا له: تفضل الآن نحقق، قال لي: دخلت إلى بيت تحت درج، درج تحته مساحة مع مساحة زائدة، المساحة العالية غرفة نوم، الأقل مطبخ، الأقل حمام، عندها ولدان أو ثلاثة، يلبسون ثياباً نظيفة، والزوج مضطجع على سرير وهو مريض وهذه زوجته، قال لي: دخلت إلى هذا البيت مثل الجنة، قال: بحياتي ما شعرت براحة نفسية، يبدو أن هذه الأسرة أسرة مستقيمة، أعطوها في الشهر ألفين، قالت: لا، المعاش يكفي لطعامنا وشرابنا نحتاج فقط أجرة هذا البيت ألف ليرة في الشهر، قال لي: أنا اليوم صعقت جلست مع إنسان حجمه المالي أربعة آلاف مليون على قدر ما شكا همه بركت، ودخلت إلى بيت لا يمكن أن يسكن فيه زوج وزوجة و أولاد، والأولاد في لطف ونظافة، والبيت متواضع، وما قبلت أن تأخذ ألفين إلا ألفاً واحداً.

إذا منحك الله السعادة فأنت أسعد إنسان بالأرض، لكن بطولتك يكون للهاتف الذي تملكه ونة (صوت)، إذا لم تكن فيه هذه الونة فلا قيمة له، أحضر أغلى هاتف يأتي هاتف صنع من أربعين سنة وله ونة أفضل منه، أنت فقط استقم تجد ونة، صار لك خط سالك مع الله، هذا الخط يعطيك السعادة واللذة، تحتاج إلى أموال طائلة، تحتاج إلى جهد كبير، أما السكينة لا تحتاج، تحتاج إلى صلة بالله عز وجل، والله عز وجل الطريق له واضح، تخدم له عباده، وتستقيم على أمره يقربك منه.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (١٨-٣١) : كيف ننتفع بالقرآن

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

النفس البشرية سواها الله تعالى بطريقة تألف منهج الله وترتاح له وتتضايق من مخالفته:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. في هذه الفائدة يبين ابن القيم كيف ننتفع بالقرآن، يقول: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته أو عند سماعه ، احضر حضور من يخاطبه به، إذا قرأت قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا "، ينبغي أن تشعر أن الله يخاطبك، فإذا أردت أن تحدث الله عز وجل فادعه، وإذا أردت أن يحدثك الله عز وجل فاقرأ القرآن، إن قرأت القرآن بقلب حاضر كأن الله يحدثك، على كلٍّ الذي يضبط هذه الحقيقة الآية الكريمة:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧))

(سورة ق)

أما كلمة ذكرى فهي تشير إلى الفطرة، مثلاً أنت إذا ذهبت إلى بيروت، رأيت صخرة الروشة، رأيتها بعينك بعد عشرين عاماً لو اطلعت على صورة لها هذه الصورة تذكرك برؤيتك لهذه الصخرة، فهذه الصورة ذكرى لأنك زرتها سابقاً، هناك إشارة دقيقة جداً لكلمة ذكرى إلى الفطرة، أي أنت مفطور على طاعة الله، مفطور على منهج الله، كل أمر في القرآن الكريم برمجت عليه، جبلت عليه، فطرت عليه، فإذا قرأت القرآن ذكرك بفطرتك، الأصل أن هذه النفس البشرية سواها الله عز وجل، سواها بطريقة تألف منهج الله وترتاح له، بل وتسعد به، وتتضايق وتتكمش من مخالفته، لولا هذه الفطرة لما تاب إنسان، أحياناً الإنسان يخطئ ولا أحد يحاسبه، ولا رقيب عليه، ولا هناك من يسائله، يشعر بضيق لأنه حينما أخطأ خالف قواعد فطرته، سواء خالفت قواعد فطرتك أم عصيت ربك المؤدى واحد:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى)

حيثما وردت كلمة ذكرى في القرآن الكريم تعني أنك مجبول على طاعة الله.

القرآن الكريم يذكر الإنسان بفطرته التي جُبل عليها:

والشيء الذي يلفت النظر أن الإنسان لمجرد أن يتوب إلى الله يشعر براحة لا توصف، وكأن جبالاً أزيحت عن كاهله، حينما كان يعصي الله هناك عذاب نفسي تسببه فطرته، أنت مبرمج على النظافة، فإذا أعطيت ثوباً قذراً تتضايق، لكن هناك ملمح دقيق هناك حيوانات مبرمجة على الشيء القبيح كالخنزير، فأمتع طعام له الجيف المتفسخة، أمتع طعام له الجرذان الميتة، إذاً أنت مبرمج برمجة في أعلى مستوى، مثلاً من النواحي المادية أنت مبرمج على محبة رائحة الزنبق، رائحة الورد، ولا تحتمل رائحة لحم متفسك قد تخرج من جلدك، والله عز وجل على كل شيء قدير، كان من الممكن أن تبرمج على رائحة اللحم المتفسخ وتراها أطيب رائحة، وأن تتضايق من رائحة الورد، فأنت برمجت برمجة عالية، أنا أستخدم المصطلح الحديث برمجت، والمصطلح القديم فطرت أو جبلت أو ولفت.

إذاً:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى)

هذا القرآن يذكرك بفطرتك، والدليل قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم الآية: ٣٠)

أن تقيم وجهك للدين حنيفاً هذه الإقامة هي نفسها فطرتك، فالآية:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم الآية: ٣٠)

هكذا فطرت.

الاصطلاح مع الفطرة أحد أسباب السعادة التي تنتاب قلب الإنسان بعد طاعة الله:

لذلك أحد أسباب السعادة التي تنتاب قلبك بعد طاعة الله أنك اصطلحت مع فطرتك، اصطلحت مع نفسك، والذي يطيع الله عز وجل يشعر براحة نفسية لا توصف، لأنه صار في انسجام بينه وبين فطرته.

للتقريب أحدث مركبة صنعت هي مصممة و مبرمجة أن تمشي على طريق معبد، كل خصائص هذه المركبة تتبدى لك بالطريق المعبد، أصوات لا يوجد أبداً، سرعة عالية جداً، انسياب عجيب، أما هذه المركبة لم تصمم للطرق الوعرة، لم تصمم لطرق الجبال، المدرعات مصممة للطرق الوعرة، فيها سلاسل، أما هذه السيارة مصممة للطرق المعبدة فإذا سرت بها في طريق وعر سمعت أصواتاً، والسرعة بطيئة جداً، والعقبات أثرت في أطرافها، فإذا انتقلت إلى طريق معبد

عرفت كل خصائص هذه المركبة، من سرعة، ومن انسياب وأصوات معدومة تقريباً، لذلك أنت مبرمج، مولف، مفطور على طاعة الله، فالقرآن يذكرك بفطرتك، تماماً لو زرت مكاناً ما وعاينته بعينيك ثم بعد حين اطلعت على صورته، هذه الصورة تذكرك برؤيتك السابقة، لذلك قال تعالى

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى)

القرآن يذكر المؤمنين بفطرتهم:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)

له قلب حي.

القلب الحي قلب يعرف الله و القلب الميت لا يتأثر بشيء:

القلب أيها الأخوة، مركز النفس إما أن يكون حياً أو أن يكون ميتاً، القلب الحي قلب يعرف الله، قلب يتأثر بكلام الله، قلب يرتاح للعمل الصالح، قلب يتشوق إلى الله، قلب فيه اتكال على الله، قلب فيه شوق إلى الله، قلب فيه محبة لله، هذا القلب الحي، وهناك قلب ميت، أي:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ونار لو نفخت بها أضاءت ولكنك تنفخ في رمـــاد

***

القلب الميت لا يتأثر لا بآية كونية، ولا بآية قرآنية، ولا بحدث، ولا بشيء من عجائب صنع الله عز وجل، ولا يتأثر لا بعطاء، ولا بإنفاق، ولا بطاعة لله، ولا بفهم لكتاب الله، قلب ميت:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

***

الله عز وجل وصف أهل الدنيا الذين شردوا عن الله قال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء)

(سورة النحل الآية: ٢١)

وقال في آية ثانية:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُور)

(سورة فاطر)

وقال في آيات كثيرة:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١))

(سورة النحل)

الراحة أحد أكبر أسباب سعادة المؤمن:

فيا أيها الأخوة،

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)

لذلك قال بعض الصحابة: " أوتيت الإيمان قبل القرآن ".

القرآن ذكرى، القرآن يذكرك بفطرتك، أوضح مثل أنت مبرمج، أو مفطور، أو مجبول، أو مولف على بر الوالدين، فحينما يطلب منك من قبل أمك حاجة، وتلبيها ترتاح، مثل بسيط دخلت إلى البيت الساعة الواحدة ليلاً، طلبت منك أمك أن تأتيها بدواء، قلت لها: الصيدليات كلها مغلقة، سكتت، تأتي لتنام الليل، تشعر بقلق، تشعر بضيق، لأنك تعلم علم اليقين هناك صيدليات مناوبة، لكنك استكسلت أن تلبي حاجتها، وقلت لها: الصيدليات كلها مغلقة الآن، هي سكتت، لو أنك ذهبت إلى هذه الصيدليات فلم تجد الدواء الذي طلب منك، وعدت إلى البيت، واعتذرت لأمك أن الدواء غير موجود، ونمت، في الحالتين أمك لم تأخذ الدواء، لكن المرة الثانية أنت مرتاح، لو تابعنا أنفسنا لوجدنا أن هناك حساباً دقيقاً تحاسب به من قبل فطرتك، قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم الآية: ٣٠)

أنت حينما تصدق تشعر براحة، حينما تكون أميناً تشعر براحة، حينما تؤدي الذي عليك تشعر براحة، حينما تطلب الذي لك تشعر براحة، حينما تؤدي العبادات تشعر براحة، حينما تحسن في معاملاتك تشعر براحة، هذه الراحة هي أحد أكبر أسباب سعادة المؤمن.

القلب الحي هو القلب الذي يستقبل القرآن و يعقل عن الله ويشتاق إليه:

المؤمن إنسان اصطلح مع فطرته:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧))

(سورة ق)

قيل: القلب هو الذي يستقبل القرآن، والمراد به القلب الحي، الإنسان يكبر قلبه ولا نرى كبره فيتضاءل أمامه كل عظيم، ويصغر قلبه ولا نرى صغره فيتعاظم عليه كل حقير، أحياناً الإنسان أكبر من أكبر مشكلة، المؤمن أكبر من أكبر مشكلة، صامد كالطود الشامخ، كالسفينة العملاقة، وأحياناً الإنسان إذا شرد عن الله يكون أصغر من أصغر مشكلة، أقل مشكلة تنهيه، تجعله ينهار، تجعله يتطامن.

إذاً:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)

أي كان له قلب حي يعقل عن الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ (٦٩))

(سورة يس)

القرآن:

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ (٦٩))

(سورة يس)

يذكرك بفطرتك:

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا (٧٠))

(سورة يس)

هنا الحي حياة القلب.

القلب الميت قلب لا يتأثر بالقرآن إطلاقاً:

لذلك لو قرأت القرآن على قلب ميت لا يتأثر إطلاقاً، قال تعالى:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (٤٤))

(سورة فصلت)

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢))

(سورة الإسراء)

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨))

(سورة الشعراء)

لو أن هذا القرآن أنزل على إنسان يتقن اللغة العجمية، فجاء إلى مكة المكرمة، وقرأه عليهم، ما كانوا به مؤمنين، قال تعالى:

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠))

(سورة الشعراء)

كيف لو أن إنساناً يتكلم اللغة الأعجمية، وألقى عليك القرآن بلغة أعجمية، فلم تفهم منه شيئاً، قال تعالى: (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠))، قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ). حي، القلب الحي الذي يعقل عن الله، القلب الحي الذي يخشى الله، القلب الحي الذي يحب الله، القلب الحي الذي يشتاق إلى الله.

من اتصل بالله فقلبه حي و من ألقى السمع فقلبه ليس كما ينبغي:

(أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

قلبه حي باتصاله بالله، الآن القلب ليس ميتاً وليس كما ينبغي،

(أَلْقَى السَّمْعَ)

. مثلاً أحياناً أنت بحاجة إلى طعام، تصنع أنت الطعام الذي ستأكله، وعندك خبرات عالية جداً، هذا الطعام من صنعك، وأحياناً لا تملك هذه الإمكانية فتشتري طعاماً جاهزاً، أي إما أن تفكر، إما أن تأكل، إما أن تجول جولة في الكون لتعرف الله، أو أن تجلس في مجلس علم تأتيك الحقائق جاهزة، مجلس علم مطعم يقدم لك طعاماً نفيساً جاهزاً، ما عليك إلا أن تأكله، أو أنك تجهز في بيتك لتصنع هذا الطعام، إما أن هذا الطعام من صنعك، من اجتهادك، من تأملك، من تفكرك، من عقلك للقرآن الكريم، أو أنك تأتي بطعام جاهز تأكله هنيئاً مريئاً:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)

قلب حي، قلب يعرف الله، قلب يشتاق إلى الله، أو:

(أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

وهو شهيد أي كان حاضر القلب، للتقريب جاؤوا بمسجلة وضعت على نافذة، وشخصان في الغرفة تكلما كلاماً كثيراً، ثم استمعا إلى هذه المسجلة، فكل هذه الأصوات التي سجلتها لم يسمعها من كان في الغرفة، مشغول بموضوع دقيق، وأنت حينما تنشغل بموضوع دقيق لا تسمع شيئاً، فأنت حينما تلقي السمع معنى ذلك تأتيك الحقائق جاهزة، وأنت ذو قلب شهيد أي مصغ، لذلك عندنا مؤثر وهو القرآن، و مكان يستقبل هذا التأثير:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧))

من آمن بالله و استقام على أمره ألقى الله في قلبه نوراً على نور:

أيها الأخوة، هذه الآية أصل في الموضوع، أي أنت يجب أن تؤتى الإيمان قبل القرآن، لذلك قال بعض الصحابة: "أوتيت الإيمان قبل القرآن ".

أنت آمنت بالله من خلال هذا الكون، استقمت على أمره، أقبلت عليه، ألقى الله في قلبك نوراً، فلما قرأت القرآن صار نوراً على نور، نور إيمانك مع نور القرآن، يدخل إنسان لمسجد لم يبحث عن الحقيقة، ولم يتأمل في خلق السماوات والأرض، يستمع إلى درس واضح جلي، فيه أدلة، فيه نصوص، فيه ومضات، فيه إشراقات، يتأثر، فالأول له قلب، والثاني ألقى السمع وهو شهيد،

للتقريب إنك إن ألقيت السمع كأنك أكلت طعاماً جاهزاً مطبوخاً بأعلى مستوى، وأنك حينما تتأمل أكلت طعاماً صنعته أنت، والمؤدى واحد، قال عز وجل:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ (٣٥))

(سورة النور الآية: ٣٥)

نور قلبك مع نور القرآن، أو قلب لم يستنر بعد بنور الله، تلقى هذا العلم فعقله وتأثر به وتبناه، أرجو الله عز وجل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأحسن ما في القرآن وصف المؤمنين، فإذا قرأت هذه الأوصاف وتمثلتها كنت من سعداء الدارين.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

براهين المعاد في القرآن الكريم مبنية على أصول ثلاثة:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى.

عنوان هذه الفائدة: براهين المعاد في القرآن الكريم مبنية على أصول ثلاثة، المعاد ؛ اليوم الآخر.

أيها الأخوة الكرام، هذه الحياة الدنيا أمامكم فيها الغني وفيها الفقير، فيها القوي وفيها الضعيف، فيها الوسيم وفيها الذميم، فيها الذكي وفيها المحدود، الحظوظ موزعة توزيعاً عجيباً، يا ترى هل يقبل عقل سليم أن تنتهي الحياة ولا شيء بعد الحياة ؟ هذا الفقير ما ذنبه عندما كان هذا الغني يتفنن في ألوان الطعام والفقير يشتهي قطعة لحم يأكلها، عندما هذا القوي يدمر، ويقتل، ويجتاح، والضعيف لا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً ؟

بعض المفكرين قالوا: " لا يقبل العقل أن تنتهي الحياة من دون تسوية، من دون حساب، من دون مسؤولية، لو ألغينا اليوم الآخر ألغينا الدين كله، ألغينا الثواب والعقاب، ألغينا الحق والباطل، ألغينا الخير والشر، ألغينا الجنة، ألغينا النار ".

لذلك أكثر العلماء ينطلقون من أن الإيمان باليوم الآخر إيمان سمعي أي نقلي، لكن بعض العلماء وهم قلة يرون أن الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي، العقل لا يقبل أن يعيش الناس هكذا، دول تتفنن في الملذات، ودول تذوق ألوان الجوع، والقلق، والخوف.

الأصول الثلاثة في الإيمان باليوم الآخر:

١ ـ علم الله عز وجل:

أولاً أحد هذه الأصول الثلاثة في الإيمان باليوم الآخر، وقبل الحديث عنها ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن الكريم تلازماً عجيباً كركن الإيمان بالله واليوم الآخر، الإيمان بالله يمنعك أن تعصيه، والإيمان باليوم الآخر يمنعك أن تؤذي مخلوقاً، الأصل الأول في الإيمان باليوم الآخر هو علم الله عز وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

أي أن الله عز وجل ليس غافلاً عما يعمل الظالمون، ينفي أن يكون غافلاً لأن بعض الناس يتوهم أن الله غافل، كيف ؟ صاحب محل تجاري لو جاء إلى محله التجاري قبل أي موظف، وجلس وراء الطاولة، و المال في درج الطاولة، وغادر آخر إنسان، يا ترى من يعمل عنده أمين أم لا ؟ لم يتح لهم أن يمتحنوا، لكن أحياناً صاحب هذا المحل يذهب إلى محل مقابل محله التجاري، لعند زميله وعينه على محله، يرى هذا الموظف هل فتح الدرج؟ هل أخذ شيئاً ؟ هل باع أم لم يبع ؟ هو يتغافل عنه ليمتحنه، إما أن ينجح وإما ألا ينجح، لذلك قال الله عز وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

الله عز وجل يعلم المصلح من المفسد و المعطي من المانع وسيحاسبهم حساباً دقيقاً:

بعض الناس يتوهمه غافلاً، تجد القوي يتصدر الشاشات، ويصرح تصريحات ويكذب، يقول: جئنا إليكم من أجل الحرية، دولة دمرت عن آخرها، قتل مليون إنسان، أصبح مليون آخر معاقاً، شرد خمسة ملايين، وجاؤونا من أجل الحرية، الله عز وجل يقول:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧))

(سورة آل عمران)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

فلذلك الله يعلم المصلح من المفسد، يعلم المعطي من المانع، يعلم الخيّر من الشرير، هم في علمه و الله عز وجل سيحاسبهم حساباً دقيقاً.

الله عز وجل خبير بما يعمل كل إنسان ولا تخفى عليه خافية:

يثبت اليوم الآخر أن الله يعلم ما يفعله العباد وسوف يحاسبهم، قال تعالى حينما أجاب عن سؤال:

(قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨))

(سورة يس)

فكان الجواب:

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩))

(سورة يس)

حركاتك، سكناتك، خواطرك، نواياك، أعمالك، ظاهرها، باطنها، هناك أعمال ظاهرة جيدة لكن تنطوي على نوايا خبيثة، الله عز وجل خبير بما تعملون، لا تخفى عليه خافية، علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فكان الجواب:

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩))

(سورة يس)

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

أنت في بيتك، وغرفتك مظلمة، وهناك نافذة مفتوحة، و مقابل بيتك بناء، ولهذا البناء شرفة، خرجت جارتك إلى الشرفة بثياب متبذلة، من يستطيع من أهل الأرض أن يضبط نظرك إلى جارتك بثيابها المتبذلة، من ؟ الله وحده:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

طبيب يفحص مريضة له الحق أن يرى موضع الألم، فإذا اختلس نظرة إلى مكان آخر من في الأرض يستطيع أن يضبط هذه المخالفة ؟

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

علم الله بأفعال و نوايا ومقاصد عباده علم مطلق و العلم يقتضي المحاسبة:

يعلم ما تعلنه، ويعلم ما تخفيه، ويعلم ما يخفى عنك، هناك شيء تعلمه لكنك تخفيه، وهناك شيء تخفيه لكنه يعلمه، ولكن هناك شيء لا تعلمه أنت، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فعلم الله بأفعال عباده، وبنوايا عباده، وبمقاصد عباده علم مطلق، فالعلم يقتضي المحاسبة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

الآن المنطلق الأول للإيمان باليوم الآخر أن الله يعلم أفعال عباده، يعلم المجرم من المسلم:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦))

(سورة القلم)

يعلم المؤمن من الفاسق:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

علمه يقتضي المحاسبة، يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب.

٢ ـ كمال قدرة الله عز وجل:

المنطلق الثاني للإيمان باليوم الآخر كما يرى ابن القيم في كتابه الفوائد: كمال قدرته، أنت أحياناً تعلم الخلل لكنك ضعيف، لا تستطيع أن تحاسب من هو قوي، العلم لا يكفي يحتاج إلى قدرة، الله عز وجل قوي يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، لذلك:

(أوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

(سورة يس)

يوم القيامة، الكفار يرون:

(قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)

(أوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم)

قال تعالى:

(بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤))

(سورة القيامة)

سمعت أن بصمة الإبهام هوية للإنسان، بعض المجرمين في أمريكا نزعوا هذه البصمة ووضعوا محلها جلداً من مكان آخر بعملية جراحية حتى لا يكون هناك بصمة، المفاجأة الخطيرة أن بعد أشهر عديدة ظهرت علامة البصمة السابقة على هذا الجلد الأملس:

(بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤))

(سورة القيامة)

لكرامة الإنسان عند الله عز وجل أعطاه بعض صفاته:

بالمناسبة الإنسان لكرامته عند الله أعطاه الله بعض صفاته، الله عز وجل واحد أحد، فرد صمد، والإنسان جعله فرداً، فلو صورنا بصمة الإبهام، وكبرناها، نشاهد فيها جزراً، وفروعاً، ورؤوساً، وخلجاناً، يكفي أن يكون هناك أربع صفات مشتركة لتكون الإبهامان لإنسان واحد، عرضوا بصمة إبهام على مئة ألف بصمة لا يوجد واحدة مثل الثانية، فأنت لك هوية، هويتك بصمتك، التوقيع يزور أما أقوى دليل على أنك وقعت هذا الكتاب بصمتك، وقزحية العين هوية ثانية، لا يوجد على وجه الأرض إنسان تشبه قزحيته قزحية إنسان آخر، الآن في دبي يأخذون قزحية العين يضعونها على الجواز، وفي روما، وفي واشنطن، هناك ثلاث مدن في العالم يأخذون بصمة قزحية العين،

رائحة الجلد تنفرد بها، ولولا هذه الرائحة لم يكن هناك أي جدوى في استخدام الكلاب، بلازما الدم تنفرد بها، نبرة الصوت تنفرد بها، الآن النطفة تنفرد بها، أشياء كثيرة قال تعالى:

(بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤))

(سورة القيامة)

بقي الزمرة النسيجية تنفرد بها، الزمرة النسيجية، وبصمة الإبهام، وقزحية العين، ورائحة الجلد، ونبرة الصوت، وصيغة الحيوان المنوي تنفرد بها، الآية تقول:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الحج)

قادر أن يعيد خلقنا جميعاً، قادر أن يعرض علينا أعمالنا جميعاً، صوتاً وصورة ملونة:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩))

(سورة الكهف)

(أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

(سورة يس)

٣ ـ كمال حكمة الله عز وجل:

المنطلق الثالث للإيمان باليوم الآخر كمال حكمته، الله عز وجل يقول:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الدخان)

إنسان يصدر قراراً بإلقاء قنبلة على اليابان، يموت ثلاثمئة ألف إنسان بثوان معدودة، والأمور تجري هكذا ولا يحاسب ؟ ولا يعاقب ؟ إنسان يحتل بلاداً يقتل الآلاف المؤلفة، يستبيح الحرمات، ينتهك الأعراض، ينهب الثروات، ألا يوجد حساب بعد هذا ؟

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥))

(سورة المؤمنون)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(٣٦)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(٣٧))

(سورة القيامة)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

رأس الحكمة مخافة الله:

أيها الأخوة الكرام، رأس الحكمة مخافة الله، أغبى الأغبياء الذي يتوهم أن الله لن يحاسبه:

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤))

(سورة الصافات)

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

أعطاك صحة، أعطاك وقت فراغ، أعطاك طلاقة لسان، ماذا فعلت بهذه النعم؟

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الدخان)

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(٣٦)أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى(٣٧)ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(٣٨)فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى(٣٩)أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠))

(سورة القيامة)

من أيقن أن الله يعلم و سيحاسب و سيعاقب سيستقيم على أمره حتماً:

أيها الأخوة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

هل يستقيم إيمانك إذا توهمت أن الله لا يعلم ما يجري ؟ ما يجري في فلسطين، ما يجري في العراق، ما يجري في أفغانستان، ما يجري في العالم، هل يستقيم إيمانك إذا توهمت أن الله لا يعلم ؟ هل يستقيم إيمانك إذا توهمت أن الله يعلم لكنه ليس قادراً أن يوقف الطغاة عند حدّهم ؟ مستحيل، هل يستقيم إيمانك إذا توهمت أن الله يعلم وهو قادر ولكن لا يعنيه ما يجري في الأرض ؟ قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية: ٨٤)

فلذلك حينما توقن يقيناً قاطعاً أن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، تستقيم على أمره:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

معلم مخلص، يتقن درسه، يعلم الطلاب، يغرس فيهم القيم الأخلاقية، يصحح عقيدتهم، ومعلم آخر لا يعلم، يمضي الوقت بأشياء فارغة، وطرف لا معنى لها، أليس الله عز وجل سيحاسب هذين المعلمين ؟ طبيب يتقن عمله، وطبيب لا يتقن عمله، يبتز من مرضاه، هكذا تنتهي الحياة ؟ محامي

يعلم علم اليقين أن الدعوى خاسرة يمنيه بأنها رابحة، يبتز من أمواله، هل يعقل أن الله لا يعلم ولا يقدر ولا يقيم حساباً دقيقاً لكل الناس ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

الملمح الدقيق بكلمة:

(سَوَاء مَّحْيَاهُم)

في الحياة الدنيا.

الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر من أدق أركان الإيمان:

المؤمن له معاملة وغيره له معاملة:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(٧)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠))

(سورة الليل)

لذلك أيها الأخوة، من أدق أركان الإيمان، الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالله من أجل ألا تعصيه، والإيمان باليوم الآخر من أجل ألا تؤذي أحداً من مخلوقاته، الإيمان بالله واليوم الآخر إيمانان متلازمان ومتكاملان، الأول يمنعك أن تعصيه، والثاني يمنعك أن تعتدي على مخلوق كائناً من كان.

أيها الأخوة الكرام، أرجو الله سبحانه وتعالى أن يترجم إيماننا إلى استقامة، إلى سلوك، إلى خوف من الله.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٢٠-٣١) : اتقوا الله وأجملوا في الطلب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

بطولة الإنسان أن يكون عمله متسقاً مع أهدافه:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. عنوان هذه الفائدة حديث شريف هو:

((فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب))

[حديث صحيح بشواهده، ابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والحاكم وابن حبان عن جابر]

العمل الذي ترتزق منه أي حرفتك، مهنتك، وظيفتك، اختصاصك، العمل الذي ترتزق منه إذا كان في الأصل مشروعاً، وسلكت بها الطرق المشروعة، وابتغيت منها كفاية نفسك، وأهلك، وخدمة المسلمين، ولم يشغلك عن واجب ديني، ولا عن فريضة، ولا عن عمل صالح ترقى به عند الله، انقلب هذا العمل إلى عبادة، عبادات المؤمن هي أعماله، عادات المؤمن عبادات، وعبادات المنافق سيئات.

أخواننا الكرام، مرة أخ يبيع أشرطة غناء، سمع بعض الدروس تأثر تأثراً بالغاً، حضر فترة ثم غاب، سألت عنه والتقيت به قال لي: حرفتي لا تتناسب مع حضوري مجالس العلم، لأن اختصاصه بالغناء، تعلمت من هذا درساً أن الإنسان إذا اختار حرفة مخالفة لمنهج الله يتعذب طوال حياته، خبرته فيها، ورزقه منها، و يتوهم أنه لا يستطيع تركها من ضعفه طبعاً، هناك حِرف مثلاً كتاب يطبع فيه ضلالات، فالذي طبع الكتاب، وروجه، ونشره، له وزر لا ينتهي إلى يوم القيامة، كل من قرأ هذا الكتاب، وتأثر بعقائده الزائغة، ورفض قيم الدين من خلال هذا الكتاب في صحيفة من ألفه، ومن طبعه، ومن نشره، فعد للمليون قبل أن تختار حرفة لا ترضي الله.

قلت مرة ثانية: حرفتك وزوجتك ألصق شيئين بك، فإذا وفقت إلى حرفة فيها خير، التعليم خير، الطبابة خير، أن تدافع عن مظلوم بصرامة بالغة خير، أن تبيع الناس المواد الغذائية خير، أما أعمال لا تعد ولا تحصى تنطلق من معصية، تصب في معصية، كسبها حرام، هذه الحرف تحجب عن الله عز وجل، البطولة أن يكون عملك متسقاً مع أهدافك.

حرفة الإنسان لها دور خطير في صلته بالله فبطولته أن يختار حرفة شريفة نظيفة:

لذلك حرفة الإنسان لها دور خطير في صلته بالله، هناك حرف تقطع عن الله عز وجل، أو حرف أساسها التعامل مع نساء كاسيات عاريات، هذه الحرف لها الآن أثار سلبية جداً، فالحرف التي لا ترضي الله، والتي تقوم على ابتزاز أموال الناس بالباطل، والحرف التي تبيع وهماً لا حقيقة، والحرف التي تسوق الناس إلى معصية، هذه الحرف سوف يحاسب صاحبها ومن امتهنها. أحياناً ألعاب، طفل يسهر للساعة الثانية ليلاً في هذه المقاهي، ضيّع مستقبله، ضيّع دراسته، ضيّع مال أبيه، سرق من مال أبيه ليتابع هذه الألعاب بالانترنيت، فهذا الذي يفتح مقهى انترنيت، ويعلم علم اليقين أن معظم رواده إما في الألعاب، أو في المواقع الإباحية، ماذا فعل ؟ البطولة حينما تختار حرفة شريفة، حرفة نظيفة، حرفة مسموح بها، حينما تختار حرفة لا تؤذي بها الناس، لا تلقي الرعب في قلوبهم، لا تبتز أموالهم، لا توقعهم في الوهم، لذلك هذا كلام دقيق للشباب قبل أن تختار حرفة، اختص بالمصارف الربوية، إذاً وظيفته بمصرف ربوي، اختص بالدعاية لا بد أن يظهر المرأة بأبهى زينة، امرأة شبه عارية كي ينجح هذا الإعلان، قبل أن تختار حرفة، قبل أن تختار اختصاصاً بالجامعة، قبل أن تختار طريقاً لكسب الرزق عد للمليون:

((فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب))

وفي بعض الآثار: واستجملوا مهنكم، هناك حرف ترفع رأسك بها، أريد أن أتكلم كلاماً دقيقاً قال بعض العلماء: " هناك حرفة مجزية لذاتها، وهناك حرفة مجزية لغيرها

معنى لغيرها بنّاء يقف على منصة خشب في أيام البرد، في شهر كانون الأول، والحرارة دون الصفر، وعلى مهب الرياح، ليصب هذا السقف، حرفة متعبة جداً، لكن أجرها الكبير يدعو صاحبها أن يتابعها، نقول: هذه الحرفة مجزية لغيرها لأجرها الكبير، لكن لو تخيلنا إنساناً يحب المطالعة حباً لا حدود لها، وعيناه أمين مكتبة، هو في غاية المتعة في حرفته، نقول: هذه الحرفة مجزية لذاتها، كل إنسان مؤمن التعليم يناسبه، من خلال التعليم ينشر أفكار الدين، ينشر قيم الإسلام، مبادئ الإسلام، يشرح آيات قرآنية، أحاديث شريفة، يشعر وهو يدرس أنه مع الله، هو في حرفته يؤدي هوايته، في حرفته يؤدي عملاً صالحاً.

من لوازم توفيق الله عز وجل للمؤمن أن يقيمه في حرفة شريفة:

فيا أيها الأخوة، أتمنى أن يعد الإنسان للمليون قبل أن يختار حرفته، قبل أن يختار فرعاً، هناك كليات لا تنجح إلا إذا رسمت امرأة شبه عارية، أو عارية كلياً، من لوازم النجاح، المرأة يعدونها عنصر جميل والفن، يعتني بالمرأة وهي عارية، أنت حينما تختار فرعاً يقدم للأمة ثماراً يانعة،

هناك فروع راقية جداً، هناك تجارة مشروعة، مواد غذائية، أقمشة، وهناك تجارة مبنية على المعصية، يبيع أعداداً كبيرة جداً من طاولات النرد أنت ماذا تفعل ؟ أنت تسهم في انتشار هذه اللعبة التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم : "من لعب النرد فكأنما غمس يده في لحم خنزير ". أنا حينما أسأل أخاً كريماً عن حرفته، يقول لي: بالتعليم، بالطب، ممتاز، هناك مهن راقية، أنت تقدم للإنسان شيئاً ثميناً، إما معرفة، أو معالجة، أو أنت تنوب عنه في القضاء تأخذ له حقه، وعدل ساعة يعدل عند الله أن تعبده ثمانين عاماً.

هناك حرف راقية جداً، حرف تبث الخير في الناس، وهناك حرف أساسها المعصية، قال لي إنسان: هناك ملهى في مكان جميل، في مصيف، والله بخمسة وأربعين يوماً كانت الأرباح ثمانية ملايين، فيه خمر، فيه راقصة، فيه مغنٍ، فيه طعام، الأسعار ضرب عشرة، هناك حرف كثيرة جداً، أساساً الآن أربح حرفة على الإطلاق تجارة المخدرات، من مكان زراعة المخدرات إلى مكان بيعها مئة ألف ضعف، لذلك هذه التجارة تروج في العالم اليوم، فالمؤمن من لوازم توفيق الله له أنه أقامه في حرفة شريفة، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، مرة جلست في مناسبة افتتاح مسجد، وكان إلى جانبي مدير الأوقاف قلت له: اشكر الله عز وجل، هو سأل سؤال المستفهم على ماذا ؟ قلت له: أنت مدير أوقاف تفتتح مسجداً وتعين خطيباً أو إماماً، قال لي: صح، قلت له: هناك شخص أهم منك في منصب وزاري يفتتح ملهى، ويعين راقصة، فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما أقامك، وانظر فيما استعملك، هناك حرف كثيرة، المادة محرمة أو الأسلوب محرم.

الابتعاد عن الحرف الغير مشروعة التي تغضب الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام،

((فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب))

كأن هذا الحديث جمع خيري الدنيا والآخرة، اتق الله واختر حرفة شريفة، لكن هناك أشخاصاً كثيرين نشؤوا بحرفة لا ترضي الله، و بعد أن عرفوا الله تركوا هذه الحرفة:

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

هناك حرف أساسها دخل غير مشروع، دخل إضافي غير مشروع، والله أعرف شخص أول ولد معاق والثاني والثالث، ودخله فلكي، يأكل أموال الناس بالباطل، قوي يبتز أموالهم، بعد الولد الثالث تاب إلى الله واختار حفة نظيفة دخلها حلال، أنا أتكلم بهذا الكلام لأنني أنطلق من واقع مؤلم، الحرف التي دخلها كبير جداً لا ترضي الله، وهناك حرف دخلها معتدل، وقد قيل: الاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة. تجارة رابحة جداً لكن البضاعة محرمة، أو يسلك بها طرقاً

محرمة، هو مقطوع عن الله، محجوب عن الله، اسأل نفسك أنا ماذا أعمل ؟ هناك أعمال خيرة منها التعليم، منها الطبابة، منها أي فرع في الجامعة يؤدي خدمة للأمة، وهناك ملاءٍ و أنواع منوعة من الحرف التي لا ترضي الله.

هناك حرف مشروعة لكن يسلك بها الطرق الغير مشروعة، الغش أحياناً، بالابتزاز، بتغيير المواصفات، بيع القماش مشروع لكن يشتري قماشاً من دول صناعة القماش عندها سيئة جداً، وهناك شريط على شكل طويل يضغط على القماش بالمكواة كتب عليه صنع في فرنسا، إنكلترا، يباع القماش بثلاثة أضعاف بهذه الحاشية المزورة، والله أنواع الغش الآن لا تعد ولا تحصى، فحينما يغش الإنسان ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة.

الله عز وجل كلف كل إنسان أن يقيم أمر الله في نفسه و بيته و عمله:

أولاً حاسب نفسك أنت بماذا كلفك الله ؟ كلفك الله أن تقيم أمره في نفسك أولاً، وفي بيتك ثانياً، وفي عملك ثالثاً، ولست مسؤولاً عن أي شيء آخر، هناك قوى مخيفة في الأرض، هناك دول جبارة تعتدي على الشعوب الضعيفة، تبتز ثرواتها، تقتل شبابها، أنت مسؤول ؟ لا لست مسؤولاً، أنت مسؤول عن نفسك هل أقمت أمر الله في نفسك ؟ مسؤول عن بيتك، مسؤول عن عملك، أنا أتمنى أن ينتبه الأخ الكريم إلى حقيقتين ؛ هل طبق أمر الله على نفسه ؟ وينتبه إلى بيته هل أقام أمر الله في بيته ؟ هناك بيوت فيها اختلاط، وزيارات مختلطة، وغمز، ولمز، وغيبة، ونميمة، وطعام يقدم بالمال الحرام، و بيوت أساسها الطاعة، والطهر، والكمال، لذلك جمع النبي صلى الله عليه وسلم في قوله:

((فاتقوا الله عباد الله وأجملوا في الطلب))

مصالح الدنيا والآخرة ونعيمهما، إنما ينال ما عند الله بتقوى الله، وراحة القلب والبدن، هناك امتحانات، سئل الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: "أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى ".

ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه:

والله بعض الأخوة الكرام استجابوا لي، صفقة لا ترضي الله نتركها، قال لي: والله أرباحها بالمئة ثلاثمئة، قلت له: الله هو الغني، تركها والله بعث له أضعافاً مضاعفة، الحرام اركله بقدمك، لا تعبأ به ولو كان كثيراً، لأنه مستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، و مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح.

لكن أقول كلمة دقيقة ؛ إذا كان إنسان مغتنياً بحرفة لا ترضي الله، وتاب إلى الله، هناك فتاوى غير صحيحة أن ماله كله حرام، بعض العلماء الكبار قال: توبة هذا الإنسان تطهر ماله، أي يعمل ضارب عود بفندق، تاب إلى الله، معه ثلاثة ملايين، هذا كل ما يملك، هناك من يقول له: هذا المال حرام ينبغي أن تنفقه في سبيل الله، هذا الإنسان التوبة تعني عنده الفقر، التوبة تعني أن يبقى بلا مال، نقول له: ما لم يتعلق بهذا المال حقوق العباد هذا أجر أخذته على الضرب على العود في فندق، فإذا تبت إلى الله توبة نصوحة فتوبتك تطهر مالك، ابحث عن عمل آخر، والكلام الدقيق الدقيق جداً:

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

من استقام على أمر الله و اختار عملاً يرضي الله سيكرمه الله و يوفقه توفيقاً كبيراً:

ملمح الحديث دقيق جداً،

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه))

أي يبقى مع الله متصلاً، عندما ترك عملاً لا يرضي الله بقيت علاقته بالله قوية إلا

((عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

أنا أقول مستحيل وألف ألف مستحيل، والله الذي لا إله إلا هو أن تستقيم على أمر الله، وأن تدع عملاً لا يرضي الله، وألا تلقى من الله إكراماً، هذا يتناقض مع وجود الله، الحديث رائع جداً ويحتاجه كل الناس:

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

أقسم لي بالله أخ كريم قال: جاءني شخص يريد مسكة مصنوعة من البلاستيك، هو خرج بعد أن اتفقت معه على مئتي ألف قطعة، وأرباحها جيدة جداً، قال: أريد اللون خمري، قلت له: لا يوجد أي مانع، قال: لأنني سأضعها على علب وسكي، هو لا يعرف أن صاحب المعمل مستقيم، قال له: أعتذر، ترجاه، لا يوجد فائدة، اتصل بوالده كوسيط، قال لي: والله بعد أربعة وعشرين يوماً جاءتني صفقة يمكن أرباحها مئة ضعف:

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

الله موجود لا تقلق الله، حينما يراك تركت عملاً لله سيعوضك أضعافاً مضاعفة، أحياناً إنسان يعيش في بلاد الغرب يخاف على أولاده، على مستقبل أولاده، على بناته، يترك دخلاً فلكياً،

وأعماله ناجحة هناك، أما خوفاً على أولاده عاد إلى بلده هذا اسمه عند الله مهاجر في سبيل الله، وسوف يوفق في بلده توفيقاً عجيباً، لأنه ترك شيئاً لله، والحديث المتعلق بهذا الدرس:

((وما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

القيامة قيامتان ؛ قيامة صغرى وقيامة كبرى:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى.
هذه الفائدة عنونت القيامة قيامتان، قيامة صغرى وقيامة كبرى، فالقيامة الصغرى هي سكرة الموت:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ (١٩))

(سورة ق)

والحقيقة حينما قال الله عز وجل:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

(سورة الملك الآية: ٢)

قدم الموت على الحياة لماذا ؟ الإنسان حينما يولد أمام خيارات لا تعد ولا تحصى، أما حينما يأتيه ملك الموت أمام خيارين لا ثالث لهما، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفذ عذابها، والحقيقة أمامك أحد طريقين لا بد من سلوك أحدهما، إما إلى جنة يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفذ عذابها.

بطولة الإنسان أن يعيش المستقبل و الموت أخطر حدث في المستقبل:

أخوتنا الكرام، البطولة، والتفوق، والذكاء، والعقل، والنجاح، والفلاح، لا أن تعيش الماضي، ولا أن تعيش الحاضر، أن تعيش المستقبل، أخطر حدث في المستقبل سكرة الموت:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ (١٩))

(سورة ق)

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

حبك الشيء يعمي ويصم، حب الدنيا رأس كل خطيئة، الإنسان إذا أحب الدنيا كان هذا الحب غشاءً يغشي عينيه:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

أي إنسان على وجه الأرض كائناً من كان حتى كبار الطغاة عندما يأتيهم الموت يكتشفون الحقائق التي جاء بها الأنبياء، والدليل أن فرعون قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص الآية: ٣٨)

عندما أدركه الغرق آمن بالذي آمنت به بنو إسرائيل، قال تعالى:

(وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

فقيل له:

(آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس الآية: ٩١)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

النقطة الدقيقة أن الإنسان مخير ملايين الاختيارات، تشتري هذا البيت أو لا تشتريه، تتزوج من هذه الفتاة أو لا تتزوجها، تقوم بهذا العمل أو لا تقوم به، تسافر أو لا تسافر، الإنسان أمام خيارات لا تعد ولا تحصى إلا أنه مع الإيمان خياره خيار وقت، مع أشياء لا تعد ولا تحصى خيار قبول أو رفض، يقبل أو يرفض، يسافر أو لا يسافر، يتزوج أو لا يتزوج، يقوم بهذا العمل أو لا يقوم به، إلا مع الإيمان خيار وقت، فإما أن تؤمن في الوقت المناسب، أو أنه لا بدّ من أن تؤمن ولكن بعد فوات الأوان كإيمان فرعون، أي إنسان على وجه الأرض، مسلم، غير مسلم، ملحد، علماني، جهلاني، أي إنسان على وجه الأرض حينما يأتيه ملك الموت يكشف الغطاء عن عينيه:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

هذه القيامة الصغرى، أناس كثيرون ينتظرون قيام الساعة، دعك من قيام الساعة الكبرى، وتأقلم وتوافق مع القيامة الصغرى إنها سكرات الموت.

القيامة الكبرى و القيامة الصغرى:

أيها الأخوة، سكرة الموت هي لقاء الله عز وجل، القدوم عليه، عرض الأعمال عليه، عرض الثواب والعقاب الذي تعجل الله له به في الدنيا يرى حكمته، أما القيامة الكبرى، قال تعالى:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠))

(سورة ق)

القيامة الصغرى:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ (١٩))

(سورة ق)

القيامة الكبرى:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠))

(سورة ق)

الخلق في هذا اليوم في القيامة الكبرى كل واحد يأتي ربه ومعه سائق وشهيد، سائق يسوقه إلى المحاكمة، وشهيد يشهد عليه:

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١))

(سورة ق)

كيف أن المتهم يقيد ويساق، وعند القاضي الشهود، يساق إلى المحاكمة ومعه شهيد، من يشهد عليه ؟ قال: جوارحه، سمعه، بصره، يشهدون عليه، الأرض التي مشى عليها تشهد عليه، الحفظة الملائكة تشهد عليه، الأمكنة التي عمل فيها الخير أو الشر، الجلود التي عصوه بها كناية لطيفة جداً عن الزنا، الجلود التي عصوه بها، والله سبحانه وتعالى أعدل العادلين وأحكم الحاكمين.

أخطر حدث أنك دخلت إلى الدنيا وأصبحت شيئاً مذكوراً فبطولتك أن تخرج منها وأنت تضحك: لذلك في الجامعة درسنا موضوع الذكاء بشكل مفصل جداً، أعجبني في هذا الموضوع تعريف له جامع مانع: إنه التكيف، كل بطولتك وفلاحك أن تتكيف مع أخطر حدث يكون لك بعد ولادتك، ولادتك حدث دخلت إلى عالم الأحياء:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١))

(سورة الإنسان)

أنا أحياناً يقع تحت يدي كتاب أتصفحه، فإذا هو قد نضد قبل عامين من ولادتي، أتصور في هذا التاريخ أنا لم أكن شيئاً مذكوراً، ليس لي وجود، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١))

(سورة الإنسان)

إذاً أخطر حدث أنك دخلت إلى الدنيا أصبحت شيئاً مذكوراً، إنسان لك قيد نفوس، لك تاريخ ولادة، اسم الأب، اسم الأم، مكان الولادة، ذكر أم أنثى، إمكانياتك، شكلك، ملكاتك، قدراتك، أخطر حدث قدومك إلى الدنيا، ولا يقل عنه خطراً خروجك من الدنيا، الإنسان حينما يولد كل من حوله يضحك،

ويصفق، ويزغرد، وهو يبكي وحده، كل بطولتك أنه حينما يأتي ملك الموت وكل من حولك يبكي أن تضحك وحدك.

العاقل من تكيف مع أخطر حدث في المستقبل وهو حدث الموت:

صدقوا أيها الأخوة، الله عز وجل سمى الموت وصفه بأنه مصيبة، مصيبة الموت، كل شيء جمعته في الدنيا تخسره في ثانية واحدة، هناك أموال منقولة وغير منقولة، وهناك بيوت، و شركات، و أرصدة بمعظم العملات، وبعدة أماكن في العالم كاحتياط، كل هذا الذي تملكه وجمعته في سبعين عاماً حينما يقف القلب ليس لك، القلب يقف يقول لك: احتشاء في القلب، سكتة دماغية، سكتة قلبية، ورم خبيث، فشكل كلوي، تشمع كبد، فكل ما تملكه في الدنيا تخسره في ثانية واحدة والعبر أمامكم، ما أكثر العبر وما أقل المعتبرين، فأنت حينما تتكيف، تتكيف مع أخطر حدث في المستقبل هو حدث الموت تكون فالحاً.
الفلاح شيء، والنجاح شيء آخر، النجاح في الدنيا قد تشتري أرضاً لظروف استثنائية تضاعف سعرها مئتي مرة، أي بالتعبيرات الدارجة غني لولد ولده، هذا نجاح في الدنيا، إنسان توفي أحد أقربائه ـ هو في الشام ـ ترك هذا القريب مليار، جمع وطرح وقسم وحسب، نصيبه من هذا المليار تسعون مليوناً، عنده محل تجاري متواضع أغلقه، وتابع معاملة الميراث، ستة أشهر جهد جهداً غير معقول، وافته المنية قبل أن يقبض نصيبه من الإرث، هذه الدنيا وهو:

(خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

(سورة الأنبياء)

من آثر آخرته على دنيا ربحهما معاً:

أخطر حدث مستقبلي مغادرة الدنيا، وكل مكانتك، وهيمنتك، وشخصيتك، وحجمك المالي، ومنصبك الرفيع، منوط بدقات قلبك، وقف القلب عظم الله أجركم، النعوة على الجدران، كنت شخصاً فأصبحت خبراً، كنت مرة في الطائرة من الرباط إلى دمشق في تونس وقفت الطائرة ساعة، رأيت من نافذتي نعشاً يدخل إلى الطائرة هذا شخص لكنه الآن بضاعة، له أوراق، له معاملة تخليص، معه وثائق، أشخاص كثيرون يذهبون كأشخاص لهم مقعد في الطائرة يعودون مع البضاعة، فكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت:

والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

***

وكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حمـلت إلى القبور جنازة فاعلم أنك بعدها مـحمول

***

والله أيها الأخوة مرة شيعنا أحد الأخوة ـ رحمه الله ـ عندما وضع في القبر ـ وكنت حاضراً التشييع ـ هكذا جاءتني ومضة أنه: لا يوجد على وجه الأرض من الستة آلاف مليون إنسان أذكى ممن يعد لهذه الساعة، يعد لها العمل الصالح، يعد لها الاستقامة على منهج الله، يعد لها إنفاق المال، يعد لها تربية الأولاد، يعد لها إقامة الإسلام في البيت، يعد لها تحجيب بناته، يعد لها تزويج أبنائه، يعد لها، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، أنا ما رأيت على وجه الأرض أذكى ولا أعقل ممن يعد لهذه الساعة.

والله بحكم عملي بالدعوة تأتيني أخبار عن بعض الأخوان الكرام في أعلى درجة من درجات الغنى، كل همه إنفاق ماله، إطعام الجائعين، رعاية المساكين، تعليم طلاب العلم، حينما ألتقي به أقول له: والله أنت من أعقل العقلاء، يسعى لهذا اليوم، من آثر آخرته على دنيا ربحهما معاً، والله تأتيه الدنيا وهي راغمة، والله:

((مَن شَغَلَهُ قراءةُ القرآن عن مسألتي: أعطيتُهُ أفضلَ مَا أُعْطِي السائلين))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

هم في مساجدهم، والله في حوائجهم، والله هناك آلاف القصص، مشغول بالعمل الصالح، أموره كلها ميسرة، زواجه ميسر، دراسته ميسرة، عمله ميسر، تربية أولاده ميسرة، هم في مساجدهم، والله في حوائجهم.

الذكاء و العقل و البطولة أن يعمل الإنسان وفق منهج الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام، ما من موعظة أبلغ من الموت، كل إنسان له أقرباء أغنياء، تدخل إلى بيت التعزية، البيت بمئة وثمانين مليوناً، خمسمئة متر، البلاط جاء من إيطاليا، والأثاث، واللوحات، والجبصين، أنا حينما أجلس في التعزية أقول: يا رب من اختار هذا البلاط ؟ المرحوم، من اشترى هذه المناظر ؟ المرحوم، من صمم هذه التزيينات ؟ المرحوم، أين المرحوم ؟ بقبره، قبر، والله حينما نشأت في طريق الإيمان نصحت أن أتبع الجنائز، ولو لم يكن هناك معرفة، أو قرابة، عندما يوضع الإنسان في النعش ثم يصل إلى القبر، يرفع الغطاء، يحمل الميت، يوضع في القبر، توضع البلاطة، يهال التراب، الملف انتهى، هذا إلى أين ؟ إما إلى جنة يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفذ عذابها، والله الذكاء، والعقل، والبطولة، والتوفيق، والنجاح، والفلاح، والتفوق، أن تعد لهذه الساعة، مسموح لك أن تتزوج، وأن تعمل، وأن تتألق، وأن تتفوق، ولكن وفق منهج الله، أي شيء فيه شبهة

تركله بقدمك، مبلغ فلكي تركله بقدمك، هذا المبلغ لا أنتفع به لكنني أحاسب عليه، الذي تنتفع به صدق ولا أبالغ هذا القميص الذي ترتديه، هذا السرير الذي تنام عليه، هذا الطعام الذي تأكله، الرزق ما انتفعت به، والكسب حجمك المالي.

الأحمق من لم يدخل ربه في حسابه:

أيها الأخوة، الأمور واضحة تماماً، هناك قيامة صغرى هي سكرة الموت:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ (١٩))

(سورة ق)

(وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١))

(سورة ق)

أيها الأخوة، أما القيامة الكبرى حينما يجتمع الناس ليحاسبوا على أعمالهم، والبارحة قلت لكم: معظم العلماء يرون أن الدليل على يوم القيامة دليل إخباري، أو دليل سمعي، إلا أن الحقيقة هناك من العلماء و ابن القيم منهم من يرى أن الدليل على يوم القيامة دليل عقلي، لأن هناك غني وهناك فقير، هناك قوي وهناك ضعيف، هناك دول تتفنن في المعاصي وهناك دول مسحوقة محتلة تموت من الجوع، هذا الذي حدث في غزة إنسان يقتل عمداً، ألف وثلاثمئة امرأة وطفل يقتلون عمداً، سلاح عملاق، طائرات مروحية عملاقة، طائرات قاذفة عملاقة، من أجل هدم بيوت مدنيين، وقتل نساء وأطفال، هذا الذي فعل هذا سينجو ؟ إذا نجا فنجاته تتناقض مع وجود الله، مستحيل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧))

(سورة آل عمران)

أقسم لكم بالله ما رأيت على وجه الأرض أغبى ممن ؟ من لم يدخل ربه في حسابه، لا يوجد أغبى منه، يظن أنه لن يموت، سيموت، وسوف يكون في قبضة الله، وسوف يحاسب عن كل صغيرة وكبيرة.

مغادرة الدنيا أخطر حدث في المستقبل:

والله أيها الأخوة، ما من قطرة دم تراق على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا ويتحملها إنسان يوم القيامة، لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "يظل المسلم بخير ما لم يسفك دماً ". قالوا: إلا دم من قتل بحدٍّ من حدود الله يتحمله الله، حينما نقتل القاتل دم المقتول الذي كان قاتلاً يتحمله الله عز وجل، فلذلك البطولة أن تعيش المستقبل، وأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا،

مرة وجدت شريطاً لم أعرف ما فيه، استمعت إليه، كان موضوعاً على المجيب الآلي ـ يوم يرن الهاتف ولا يوجد أحد في البيت هناك من يجيب آلياً و يترك رسالة ـ استمعت إلى هذه الرسائل، اثنا عشر إنساناً من الذين كلموني توفاهم الله عز وجل، شريط من عشر سنوات، ونحن الآن بعد مئة عام لن يوجد واحد منا فوق الأرض، فالبطولة أن نعيش المستقبل، أن نعيش سكرة الموت:

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩))

(سورة ق)

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المعصية سببها ضعف الإيمان بالله و ضعف معرفته:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. الفائدة تقول: نظرة صائبة في تفسير قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥))

(سورة الملك)

أيها الأخوة الكرام، لو أردت بشكل علمي أن تفسر لماذا يعصي زيد ربه ولماذا يطيع عبيد ربه ؟ الجواب الدقيق أنه كلما عظم الآمر أطعته، وكلما قلّ في نظرك عصيته، أوضح مثل مجند في قطعة عسكرية يتلقى أمراً من عريف، يتلقى أمراً من لواء، إذا جاء الأمر من اللواء يبادر إلى الطاعة من دون تفكير، لأنه يعلم علم اليقين ماذا ينتظره إذا عصاه، قوي، التفسير الدقيق لمن يعصي الله أنه ما عرفه، لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت.

العقل البشري هيأه الله عز وجل كي يعرف الله ليصل إليه ولا يحيط به:

السؤال الذي يقفز إلى الأذهان كيف أعرفه ؟ الحقيقة لا تدركه الأبصار، الله عز وجل لا يرى بالعين ولكن عقولنا تصل إليه، تصل إليه ولا تحيطه، تماماً كمركبة تستقلها على الساحل، هذه المركبة توصلك إلى الساحل، لكنها لا تستطيع أن تخوض في البحر، فالعقل البشري هيأه الله عز وجل كي يعرف الله، يصل إليه ولا يحيط به:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة الآية: ٢٥٥)

حتى إن علماء العقيدة قالوا: " وعين العلم به عين الجهل به ".

اسأل إنساناً كم لتراً المحيط الهادي ؟ أي جواب أعطاه إياك فهو جاهل، إذا قال: لا أدري هذا الجواب الصحيح، كم لتراً المحيط الهادي ؟ فوق طاقة البشر.

إذاً المعصية سببها ضعف الإيمان بالله، ضعف معرفة الله.

قد يقول قائل: كلنا نؤمن بالله حتى الذين عبدوا الأصنام:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر الآية: ٣)

هذا الإيمان، الإيمان أن الله خلق الكون، هذا الإيمان لا يكفي إطلاقاً، ولا يقدم ولا يؤخر، ولا يرقى بصاحبه، أن تراه إلهاً، أن تراه فاعلاً، أن تراه متصرفاً، أن ترى الأمر بيده وحده، أن ترى أن الأمر يرجع إليه وحده، أن ترى السماوات والأرض في قبضته، أنت حينما تعرفه من خلال خلقه.

آيات تحث العباد على عبادة الله:

لذلك أقول لكم هذه الكلمة، أنت مع القرآن الكريم، بالقرآن آيات تتعلق بالعبادات:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية: ٤٥)

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

(سورة البقرة)

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (٩٧))

(سورة آل عمران)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة الآية: ١٠٣)

هذه الآيات التي تحث العباد على عبادة الله ما موقفك منها ؟ آيات الصلاة ينبغي أن تصلي، آيات الصيام ينبغي أن تصوم، آيات الحج ينبغي أن تحج، آيات الزكاة ينبغي أن تدفع الزكاة.

على الإنسان أن يسعى إلى الجنة ويتقي النار بأن يبتعد عن الأخطاء التي ارتكبها من سبقه:

الآيات التي تتحدث عن الجنة وعن النار مثلاً:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤))

(سورة الحاقة)

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣))

(سورة الحاقة)

ما موقفك من آيات الجنة والنار ؟ أن تسعى إلى الجنة وأن تتقي النار، حينما يحدثنا ربنا عن أمم سابقة أهلكها الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ أرم ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)

(سورة الفجر)

ما موقفك من هذه الآيات ؟ أن تتعظ، ألا تقع في أخطاء وقع بها هؤلاء فاستحقوا بها الهلاك.

التفكر في آيات الله الكونية:

إذاً آيات الأوامر التعبدية ينبغي أن أعبد الله، آيات مشاهد يوم القيامة ينبغي أن أسعى إلى الجنة، وأن أفر من النار، الآيات التي تتحدث عن أقوام سابقة ينبغي أن أتعظ، وتابع هناك أحكام شرعية، هناك إخباريات، هناك عقائد، القرآن الكريم فيه أنواع منوعة من الموضوعات، لكن الوقفة الآن عند ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون، قدمت لك آيات العبادات أن تعبد الله، آيات المعاملات أن تنضبط وفق هذا المنهج، آيات الأمم السابقة أن تتعظ، آيات الجنة والنار لك موقف منها، الآيات الكونية ما موقفك منها ؟ الموقف الدقيق والذي قصر به المسلمون التفكر:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

إذاً وطن نفسك كلما وصلت إلى آية كونية أن تقف عندها وأن تتفكر.

تسخير ما في السماوات و ما في الأرض للإنسان:

الله عز وجل من خلال هذه الآيات الكونية يقول: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا)، أي مذللة مسخرة لكم، كيف ؟ وزن الإنسان على كوكب آخرى مئة طن، خمسمئة طن، وزنك بقدر حجم الكرة، هذا الوزن المعتدل يقدر بثمانين كيلو، أو سبعين كيلو، بالقمر عشرة كيلو، العشر، الذي وزنه يقدر بستين كيلو على الأرض وزنه ستة في القمر، ولو كان في مكان لا يوجد فيه وزن، شيء لا يحتمل، كله طائر، رواد الفضاء في مرحلة في أثناء الرحلة إلى القمر تنعدم الجاذبية، ينام على السرير يستيقظ في السقف، لا يوجد وزن أبداً، لا يوجد شيء يثبته، ماذا قال الله عز وجل ؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل الآية: ٦١)

هذه لها وزن، ما وزنها ؟ انجذابها نحو مركز الأرض، تضعها هنا تبقى هنا، الطاولة تبقى في مكانها،هذه نعمة لا يعرفها إلا من فقدها:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً)

(سورة النمل الآية: ٦١)

الأشياء تستقر عليها وهي ثابتة مذللة لك، هذه الأرض لو خرجت من جاذبية الشمس، وأردنا أن نعيدها إلى الشمس، لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي، الحبل قطره خمسة أمتار، والحبل الذي قطره خمسة أمتار يحمل مليوني طن، بشكل أو بآخر قوة جذب الشمس للأرض تساوي مليون مليون ضرب مليوني، أي الأرض مشدودة إلى الشمس بقوة تساوي مليونين ضرب مليون مليون طن من أجل أن تحرف الأرض في مسارها حول الشمس ثلاثة ميلي كل ثانية، ولو أردنا أن نزرع هذه الحبال على سطح الأرض لفوجئنا أن المليون مليون حبل حينما نزرعها على سطح الأرض ينشأ بين الحبلين مسافة حبل واحد كل خمسة أمتار فقط، هذه لو الجاذبية تحتاج إلى حبال، لأن الله عز وجل قال:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد)

لو أن هناك أعمدة نراها لاستحالت الحياة علينا، لا يوجد بناء، ولا زراعة، ولا شمس، هذه الحبال تحجب أشعة الشمس، ولا إبحار، ولا سفن، ولا يوجد شيء، من جعلها ذلولاً ؟ من جعل قوى الجاذبية لا ترى بالعين ؟ نحن نمشي فيها، أنت تمشي ضمن قوى تجاذب مذهلة، لكنك لا تراها، الله عز وجل لطيف من لطفه أنك تمشي وسط قوى تجاذب مذهلة لكنك لا تراها.

التفكر في تصميم الله عز وجل الذي أحسن كل شيء خلقه:

أيها الأخوة الكرام، لو أن كل سطح الأرض صخر كيف تأكل ؟ لو لم يوجد الماء كيف تعيش ؟ لو لم يكن هناك هواء، أنت تحتاج إلى هواء والهواء موجود، النبات يستنشق غار الفحم يعطيك الأوكسجين، ما هذا التوازن ؟ النبات يأخذ عكس ما تأخذ، ويعطي عكس ما تعطي، أما أنت تأخذ الأوكسجين تعطي غاز الفحم، هذا التناسب والتناسق بين النبات والإنسان، تجد المشي في غابات الصنوبر منعش لأن الصنوبر يعطي الأوكسجين ويأخذ غاز الفحم وأنت كذلك، من صمم هذا التصميم ؟ من جعل المياه عذبة أساسها من البحار والبحار ملح أجاج ؟ هذه السحب تحمل بخار الماء تنقلب إلى أمطار مياه عذبة، المياه آية، الهواء آية، والجاذبية آية، والتربة الذراعية آية، من صمم البذور ؟ لو أن الله خلق مليون مليون طن قمح لانتهوا، حكمة البذور من أين جاءت ؟ مع كل فاكهة بذرة تزرعها فتنبت شجرة، مبدأ البذور من اخترعه ؟ من صمم البذور ؟ الحياة مستمرة، تأكل وتزرع وينبت، من جعل المياه في أجواف الأرض ؟ بعض المستودعات التي صنعت لتخزين المياه عمقها في الشام تحت الأرض أربعمئة متر، كأنهم يقلدون تخزين ربنا للمياه، المياه مخزنة في الجبال، تجد الينابيع نبع ماء عذب فرات، ماء غير فاسد، كيف خزنه الله عز وجل في أجواف الجبال ؟ فتح له فتحة صغيرة، نبع الفيجة الذي يروي دمشق حدوده إلى حمص، وإلى جنوب لبنان،

وإلى سيف البادية، كل هذا النبع الفتحة بعين الفيجة يعطي ثمانية وثلاثين متراً في الثانية في بعض الأيام الغزيرة، إلى أن يصل إلى مترين أو ثلاثة، لكن يكفي لخمسة ملايين إنسان يشربون من صمم الماء ؟ الله عز وجل قال:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا)

فيها هواء متجدد، فيها رياح، لولا الرياح لكان هناك مشكلة كبيرة، فيها أمطار، فيها جبال، فيها صحارى، فيها سهول، فيها سواحل، فيها بحار، فيها بحيرات، فيها أسماك، لولا أن السمك يأكل بعضه بعضاً ـ كما لو جئت بحمص وسلقته ونسيته على النار، فالماء جفّ و بقي الحمص ـ لصار البحر أسماكاً فقط، في بويضة السمكة مليون بويضة، هذا السمك في البحر من صممه ؟ الأنعام من ذللها ؟، عندما جن البقر في بريطانيا أعدموا ثلاثين مليون بقرة، أحرقوها، البقر مصمم نباتي، فعندما غيروا خلق الله عز وجل أصيب بالجنون، تجد البقرة ذلولاً، ابنك الصغير يحلبها، ابنك الصغير يسوقها، والجمل ذلول، والأنعام ذلولة، من جعل هذه الحيوانات التي تعيش على لحمها وصوفها ووبرها وحليبها مذللة لك ؟ العقرب غير مذلل، الأفعى غير مذللة، هناك حيواناتك تخرج من جلدك خوفاً منها:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥))

الله عز وجل لا تدركه الأبصار ولكن العقول تصل إليه:

أيها الأخوة الكرام، هذا الفكر إذا ما جال في الكون كيف يعرف الله ؟ الله عز وجل لا تدركه الأبصار ولكن العقول تصل إليه، إذاً ألف وثلاثمئة آية ما موقفك منها ؟ أن تتفكر فيها:

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا (١٧))

(سورة الرعد)

من صمم هذا الماء ؟ من صمم الهواء ؟ من جعل الأرض تدور ؟ الأرض تدور حول محور، تصور المحور أفقي موازي لمسار الأرض حول الشمس، القسم هذا نهار إلى أبد الآبدين، وهذا ليل إلى أبد الآبدين، النهار ثلاثمئة وخمسين درجة، تنتهي الحياة، القسم الثاني ؛ حرارته مئتان وسبعون تحت الصفر، تنتهي الحياة، لو أن الأرض تدور، لو لم يكن هناك إله، تدور الأرض على محور مواز لمستوي دورانها حول الشمس فتنتهي الحياة، لو أن محورها قائم يشكل زاوية قائمة مع مستوي دورانها صار هناك صيف أبدي، ربيع أبدي، شتاء أبدي، من جعلها تدور حول محور مائل ثلاثة وثلاثين درجة ؟ المحور مائل، الشمس هنا الأشعة هنا عامودية، نصف الكرة الشمالي صيف، نصف الكرة الجنوبي شتاء، الأرض تدور هكذا نصف الكرة الجنوبي صيف، الشمالي شتاء، لولا ميل المحور ما كان هناك تبدل في الفصول، لولا الدوران ما كان هناك ليل ولا نهار:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٣٧))

(سورة فصلت)

لولا الدوران الذي بمحور لا يوازي مستوي دورانها كان هناك ليل أبدي ونهار أبدي، والله عز وجل قال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ (٧١)

(سورة القصص)

لو أن الأرض تدور هكذا، النهار أبدي والليل أبدي، لو تدور هكذا لا يوجد فصول، تدور بمحور مائل صار هناك ليل ونهار، وصيف وشتاء، وربيع وخريف، من صمم الهواء ؟ لو كانت نسب الأوكسجين أعلى لاحترقت الأرض، أحياناً في الصيف هناك حر زائد تحترق غابات بمئات الدونمات، من جعل الأوكسجين والأزوت بنسب متناسقة جداً ؟ الله عز وجل.

أصل الدين معرفة الله:

أيها الأخوة:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥))

(سورة الملك)

والله الذي لا إله إلا هو لو جعلت من الآيات الكونية منهجاً لك للتفكير، الله أعطاك منهجاً هي الآيات لا تعد ولا تحصى، اختار لك الله من هذه الآيات ألف وثلاثمئة آية، عندما حدثنا عن الماء قال تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

لو كلفنا كل إنسان أن يخزن ماء لمدى عام، يحتاج إلى مستودع يساوي حجم بيته، بحسابات دقيقة الإنسان يحتاج إلى ماء مستودعه يساوي حجم بيته، نحتاج أن نضاعف البيوت بيتاً للسكن وبيتاً للماء، الله خزنه في أعماق الأرض:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

أتمنى وأنت في رمضان وبعد رمضان إذا وصلت إلى آية كونية قف عندها، فكر فيها، تأمل، اقرأ عنها، اشتر كتاباً يتعلق بها، الله جعل النحل آية، النمل آية، البعوضة آية، الشمس آية، القمر آية، البحار آية، الأسماك آية، الطيور آية، والله كل آية لو أمضيت سنوات وسنوات لا تنتهي من دقائقها،

فأنت كلما عرفت الله أكثر خضعت له أكثر، كلما عرفت الله أكثر أحببته أكثر، أية معصية لله دليل ضعف إيمانك، ضعف معرفتك بالله، سيدنا علي يقول: "أصل الدين معرفة الله".

لكن ملخص الملخص إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٢٣-٣١) : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

من لم يفكر بعظمة الله عز وجل و آياته لن يرتقي إيمانه أبداً:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. هذه الفائدة حول قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (٢١))

(سورة الحجر)

أيها الأخوة، هذه الآية ومثيلاتها وقد تصل مثيلاتها إلى ألف وثلاثمئة آية، ما علاقتنا بها ؟ أريد أن أقدم لكم مثلاً للتوضيح، لو فرضنا هناك جامعة كبيرة فيها أساتذة كبار، و فيها مستخدم مهمته أن يقف على باب الجامعة، هذا المستخدم له في هذه الجامعة ثلاثون عاماً، وهناك أستاذ كبير مشهور له باع طويل في العلم، كلما دخل إلى الجامعة وقف له وحيّاه، ثلاثون سنة معلومات هذا المستخدم عن هذا المدرس الكبير لا تزيد، كلما دخل يقف له، و يسلم عليه، أما الطالب الذي يستمع إلى محاضراته كلما سمع محاضرة يكبر حجم الأستاذ عنده ما هذا العلم ؟ كلما ألقى محاضرة حجم معرفة الطالب بالأستاذ تزداد، هناك فرق دقيق، المستخدم معلوماته عن هذا الأستاذ لا تزيد، إلا أنه أستاذ عندنا في الجامعة، ومشهور، والطلاب يحبونه، هذه كل معلوماته لثلاثين عاماً لا يستطيع أن يقول كلمة أخرى عن هذا الأستاذ، أما الطالب المتفتح المدرك لقيمة علمه كل محاضرة يزداد حجم الأستاذ عنده، لدرجة بعد مضي عام يقف أمامه بمنتهى الأدب.

أنا مرة دخلت إلى أحد الجوامع لأصلي، هناك رجل قصير القامة، منحني الظهر قليلاً، يرتدي ثوباً أبيض، أنا كنت مع صديق لي، هرعت إليه، وسلمت عليه سلاماً في أعلى درجات الأدب، صديقي لفت نظره اهتمامي بهذا الشخص، هو يبدو إنساناً عادياً جداً، كبيراً بالسن ـ بالثمانينات ـ وقصير القامة، ونحيف، ومنحني الظهر، وأنا هرعت إليه، وسلمت عليه بأعلى درجات الأدب، سألني صديقي من هذا ؟ قلت له: هذا عميد كليتنا، عميد كلية الآداب وكان مختصاً بالنحو، والحقيقة معلوماتي الدقيقة أنه يتمتع بسمعة في الشرق الأوسط، أحد أكبر علماء النحو في الشرق الأوسط، فأنا لأنني داومت عنده أربع سنوات، وكل يوم أسمع منه إلى حقائق جديدة، فأنا امتلأت إعجاباً فيه، أما صديقي لا يعرفه، أخذه بالثوب الأبيض، وقصير القامة، ونحيل، ومنحني الظهر.

فأنا أريد أن أقول لكم كلمة: يمكن أن تصلي ثمانين سنة، وتصوم ثمانين سنة، وتحج مئة حجة ـ لا يمكن مئة لأن ثمانين سنة أقل من مئة ـ يمكن أن تؤدي العبادات كلها، وإذا لم تفكر بعظمة الله عز وجل، و لم تفكر بهذه الآيات، لن يرتقي إيمانك بالله ولا شعرة، هذا معنى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١))

(سورة القدر)

والدليل:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر الآية: ٦٧)

التفكر في خلق السماوات والأرض أوسع باب ندخل منه على الله وأقصر طريق إليه:

ماذا أقول لكم ؟ كأن التفكر في خلق السماوات والأرض أنا أصفه بأنه أقصر طريق إلى الله، وبأنه أوسع باب ندخل منه على الله، أنا أتصور حينما تتفكر في خلق السماوات والأرض تضع نفسك وجهاً لوجه أمام عظمة الله، مثلاً لو قلت لك تمشي في الطريق تستمع إلى صوت سيارة، تنحرف نحو اليسار، ما الذي حدث ؟ تقول لي لم يحدث شيء، لا:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر الآية: ٢٨)

الذي حدث أن الله عز وجل أودع في دماغك جهازاً بالغ التعقيد،حينما أطلقت المركبة بوقها، هذا البوق من جهة اليمين أو اليسار، فإن كانت السيارة من اليمين وصل الصوت إلى الأذن اليمنى قبل اليسرى بفارق بينهما واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية، هذا الجهاز أدرك أن الصوت جاء من اليمين، فيعطي الدماغ أمراً أن تنحرف نحو اليسار، هذا خلق الله، صدق ولا أبالغ هناك لقطات بخلق الإنسان، لقطات في الأكوان، تصعق الإنسان، تعرف من هو الله، فرق بين المستخدم الذي بثلاثين سنة كلما دخل الدكتور يقف، ويحترمه، لكن معلوماته عن الدكتور أنه أستاذ قديم عندنا، وعالم كبير ومحبوب، و بين الطالب الذي يتكلم عن المحاضرة الفلانية والفلانية، ورأيه في الموضوع الفلاني، وكتابه، ومحاضراته، وحضور مؤتمراته، يحكي عنه عشر ساعات ولا ينتهي الحديث.

الكلمة إذا كثر ترددها فقدت معناها:

أنا أتمنى ألا تكون علاقتنا بالله أنه خلق السماوات والأرض، إله عظيم لا إله إلا هو، هناك كلمات عامة يرددها المسلمون والله الآن لا تؤثر إطلاقاً.

عندنا قاعدة في اللغة ؛ الكلمة إذا كثر ترددها فقدت معناها، أوضح مثل، ما معنى قتله ؟ أي أرداه قتيلاً، ذبحه أو أطلق عليه النار، من كثرة استعمال هذه الكلمة إذا إنسان دفع إنساناً بيده يقول لك: قتله، من كثرة استعمالها فقدت معناها، كلمة الحمد لله، يقولها أحياناً إنسان ملحد، كيف حالك ؟ يقول: الحمد لله، أنت ملحد تحمد من ؟ هناك كلمات ليس لها معنى، المشكلة بعدما الدين يستمر إلى أمد طويل أحياناً تفرغ مصطلحاته من مضمونها، يأتي العيد نقول: الله أكبر، نكبر، هكذا السنة، في الطريق تكبر، عقب الصلوات تكبر، أنت إذا أطعت زوجتك في معصية، وعصيت ربك، ما قلت الله أكبر ولو ذكرتها بلسانك ألف مرة، لأنك رأيت أن طاعة الزوجة أكبر عندك من طاعة الله، والله وأنت حينما تغش المسلمين بمادة مؤذية والسعر يرتفع، تضع هرموناً على النباتات ليزداد حجمها، و يصلب قوامها، وتباع بسعر مضاعف، وهذا الهرمون مسرطن، أنت حينما تؤثر دخلاً زائداً على حساب صحة المسلمين والله ما قلت الله أكبر ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة.

من هان أمر الله عليه هان على الله:

أيها الأخوة الكرام، حينما هان أمر الله علينا هنّا على الله، ليس لأسباب بسيطة المسلمون متخلفون الآن، أمرهم ليس بيدهم، خمس دول إسلامية محتلة، بمعظم الدول هناك حرب طائفية، في اليمن، والصومال، وفلسطين، والعراق، والطرف الآخر يتفنن بإثارة الفتن والمشكلات عندنا، نحن أين ؟ نحن كهذا المستخدم نعرف أن هذا الدكتور أستاذ قديم في الكلية، ومحبوب وعظيم فقط، لا تستطيع أن تتكلم عنه كلمة ثانية، أما الطالب الذي حضر له ثلاثين أو أربعين محاضرة كل سنة يحكي عنه عشر ساعات، يسلم عليه بكل أدب.
أنا الذي صار معي أنني هرعت إلى هذا العميد، مع أنه هو بسن متأخر جداً بالثمانين، ومنحني الظهر، ورقيق وقصير القامة، استغرب صديقي هذا الاهتمام، قلت له: هذا عميد كليتنا، أنا سمعت دروسه، وتابعت محاضراته، و تحليلاته الدقيقة.

ليلة القدر من أجل أن نعرف الله و نتبع أوامره:

فيا أيها الأخوة، أنا أتصور أن ليلة القدر من أجل أن نعرف الله، الدليل:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

كيف نقدره حقّ قدره ؟ قال:

(وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ)

أنت تصور أرضاً تدور حول الشمس بمسار إهليلجي، هناك قطر أطول و قطر أصغر، الآن الأرض تمشي، الأرض صخور، الصخر يعقل ؟ يدرك ؟ يحاكم ؟ أرض صلبة وفيها ماء، تمشي

من قطر مسارها الأطول إلى قطر مسارها الأصغر، الآن الأرض في اتجاه إلى القطر الأصغر، المسافة في القطر الأصغر قلت، الجاذبية ازدادت، فهناك احتمال أن تنجذب الأرض إلى الشمس، لأنه كلما قلّت المسافة ازدادت الجاذبية، التجاذب يحكمه المسافة والكتلة، فحينما قلّت المسافة ازداد التجاذب، فاحتمال أن تنجذب إلى الشمس قائم، وإذا انجذبت إلى الشمس تبخرت في ثانية واحدة، كلها بجبالها، بصخورها، بجبال الثلج، الأرض ترفع سرعتها، من رفع سرعتها ؟ من علم أن في رفع السرعة بقاءً على مسارها، عندما ارتفعت سرعتها نشأت قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة فبقيت على مسارها.

أنت حينما ترى أن الأرض تتحرك بحكمة بالغة من المحكم ؟ بعلم من ؟ العليم، بتيسير رائع من المسير ؟ من المصمم ؟ من المنفذ ؟ هنا الذي أتمنى أن يكون واضحاً لديكم، مثلاً أنت خطر في بالك أن الأرض تدور لو أنها دارت هكذا تنتهي الحياة، لأن الليل صار أبدياً والنهار صار أبدياً، لأنها تدور على محور مواز لمستوى دورانها حول الشمس، إن دارت هكذا تنتهي الحياة كلياً، الوجه المقابل للشمس ثلاثمئة وخمسين درجة قاتلة، والطرف الآخر مئتين وسبعين تحت الصفر. لو دارت على محور متعامد مع مستوي دورانها، هنا الأشعة عمودية، صيف إلى أبد الآبدين، وهنا شتاء إلى أبد الآبدين، التغت الفصول، من صمم أن تدور على محور مائل فالأرض هنا والشمس هنا ؟ الأشعة هنا عامودية، في شمال الكرة صيف، وفي الجنوب شتاء، عندما تنتقل إلى هذا المكان الأشعة عامودية على الجنوب، ومائلة على الشمال، هنا صيف، وهنا شتاء، أنا كنت مرة في سوريا الحرارة تقدر بخمس وأربعين درجة، كدنا نخرج من جلودنا، ذهبت إلى سيدني صليت الصبح بجامع في لكامبا، بحياتي لم أبرد كهذا البرد، الحرارة ثلاث درجات أو أربع، من خمس وأربعين إلى ثلاث أو أربع.

التفكر بخلق الله يزيد الإنسان تعظيماً لله و طاعة له:

أنا أقول لكم لو فكرت بدورة الأرض، والله، والله أنا ناصح لكم كلما تفكرت بخلق الله تزداد تعظيماً له، تزداد طاعة له، تزداد خشوعاً له، تماماً كالطالب الذي سمع له مئة محاضرة، وكل محاضرة يزداد حجم الأستاذ عنده، والمستخدم ثلاثون سنة يسلم عليه معلوماته محدودة، لذلك:

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣))

(سورة القدر)

ألف شهر تعبده عبادة من دون تفكر، ما خطر في بالك هذا السؤال ؟ إذا آية فيها أمر ينبغي أن تأتمر، إذا آية فيها نهي ينبغي أن تنتهي، إذا آية فيها مشهد لأهل الجنة ينبغي أن تسعى إليها، إذا آية

فيها مشهد لأهل النار ينبغي أن تفر منها، إذا آية فيها هلاك أمة سابقة ينبغي أن تتعظ، يجب أن يكون لك موقف من كل آية، فإذا قال الله عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (٢١))

(سورة الحجر)

مرة قرأت مقالة لعالم اسمه مالتوس ينبئ بجفاف الينابيع، وانتهاء الحياة من على وجه الأرض، بسبب ازدياد السكان، والمياه محدودة، والغرب دائماً يخوفنا، مرة يقول لك: حرب مياه، مرة حرب قمح، مرة حرب بترول، مرة حرب طاقة، إلى آخره تخويف، قرأت مقالة كنت في العمرة بمجلة علمية رصينة، تقول: سحابة بالفضاء الخارجي يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة كل يوم بالمياه العذبة:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (٢١))

(سورة الحجر)

قرأت مرة مقالة عن السمك في البحر، لولا أن السمك الكبير يأكل الصغير لجفت مياه البحر، وأصبح البحر أسماكاً فقط، هناك تصميم إلهي، أنت كلما قرأت شيئاً عن الكون تزداد تعظيماً لله، لذلك بعد أن تعظمه تعد للمليون قبل أن تعصيه، لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت.

التفكر بآيات الله عز وجل دليل ازدياد إيمانك بالله تعالى:

أنا هذا منهجي، وهذا إيماني، وأنا أقول: ما دام هناك ألف وثلاثمئة آية قرآنية تتحدث عن الكون موقفك منها التفكر، اعتبر هذه الآيات منهجاً، كيف سابقاً نقول: كلما مرّ معك قانون ضع تحته خطاً، الآن ضع خطاً بالقلم الأخضر تحت كل آية كونية، وكل يوم بعد الفجر فكر بواحدة، ليس هناك مانع من أن تستعين بكتاب علمي، اسأل عالماً بهذا الاختصاص، تجد أن حجم معرفتك بالله صار كبيراً جداً.

بالجنين لا يوجد هواء، لكن هناك رئتين، الرئتان معطلتان لأنه لا يوجد هواء، الجهاز جاهز لكن لا يوجد هواء، عندنا دورة صغرى من البطين إلى الرئتين، من الأذين إلى الرئتين إلى البطين، دورة معطلة لأن الهواء غير موجود، ما الذي يحدث ؟ الله فتح ثقباً بين الأذينين، ما دام الجنين في بطن أمه ينتقل الدم من أذين إلى أذين، ويتجدد الدم عن طريق المشيمة، المشيمة يتم من خلالها تجديد الدم بالأوكسجين، الآن ولد والمشيمة نزلت، قال الطبيب: تأتي جلطة وتغلق هذا الثقب، هذه يد من ؟ إغلاق الثقب بعملية تحتاج إلى أربعمئة ألف.

والله أيها الأخوة، يمكن أن ينمو إيمانك نمواً مذهلاً بالتفكر، الله عز وجل قال:

(إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ {١٩٠} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة آل عمران)

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: " الويل لمن لم يتفكر في هذه الآية ".

تحب أن تسمع عن ثقب بوتال، تسمع عن منعكس المص، أنت غارق في النوم يزداد اللعاب بفمك، تذهب رسالة من الفم إلى الدماغ، الدماغ يتلقى رسالة أن اللعاب ازداد يعطي أمراً للسان المزمار، يفتح طريق المعدة، ويغلق طريق الرئتين، وأنت نائم تبلع ريقك، أما عند طبيب الأسنان لا تستطيع أن تبلع ريقك لأنك فاتح فمك يضع لك شراقة.

تصميم من أن الإنسان وهو نائم يتحرك لسان المزمار يغلق قصبة الهواء ويفتح المري ؟ والله يا أيها الأخوة، بجسم الإنسان وحده والله يمكن أن تمضي كل حياتك بجسمك فقط، لذلك حينما تعرف هذه التفاصيل تعد إلى المليار قبل أن تعصيه.

ليلة القدر هدفها التفكر في خلق السماوات والأرض من أجل أن تقدر الله حقّ قدره:

لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت. والله العبد الفقير لا أفهم من ليلة القدر إلا أن تتفكر في خلق السماوات والأرض من أجل أن تقدره حق قدره، والدليل:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر الآية: ٦٧)

وكأن الله رسم لنا طريق التقدير، التفكر في خلق السماوات والأرض، وأختم هذا الدرس بقوله تعالى:

(إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ {١٩٠} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة آل عمران)

أنا أتكلم كثيراً عن التفكر، بالعكس أحد أكبر محاور الدعوة هنا التفكر، لكن أتمنى أن تنتقلوا من سماع هذه المعلومات إلى تطبيقها، افتح كتاباً، افتح الانترنيت، ابحث على هذا الموضوع، اجمع معلومات حتى تعرف من هو الله، الله عز وجل كلما ازددت تعظيماً له ازددت خشوعاً في صلاتك وطاعة له.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أسباب خذلان الله عز وجل للمؤمنين:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. هذه الفائدة جعلها ابن القيم حول أسباب خذلان الله عز وجل للمؤمنين، متى يخذلهم ؟ متى لا ينصرهم، متى تحبط أعمالهم ؟ والحقيقة اخترت هذه الفائدة من أجل التوازن، فالبطولة في الإنسان لا أن يأخذ الإيجابيات وينسى السلبيات، هناك سؤال كبير لماذا انتصر الصحابة الكرام ووصلت راياتهم إلى أطراف الدنيا وتسلموا قيادة الدعوة إلى الله عز وجل بعد أن كانوا رعاة غنم أصبحوا قادة أمم، ما السبب ؟ وما السبب في أن مليار وخمسمئة مليون مسلم لا وزن لهم في هذه الأيام ؟ أين الخلل ؟ هذا موضوع هذه الفائدة.

أيها الأخوة الكرام، نحن يمكن أن نحلل وأن نطرح احتمالات، أن نطرح تعليلات، أن نطرح تفسيرات، يمكن أن نستنبط، لكن ما قولكم لو رجعنا إلى القرآن الكريم هذا القرآن الكريم فيه نبأ من قبلكم وحكم ما بعدكم، الله عز وجل يقول:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة النور الآية: ٥٥)

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

شيء بديهي جداً أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة الآية: ١١١)

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

(سورة النساء)

أي مستحيل وألف ألف مستحيل ألا تحقق وعود الله للمؤمنين، لكن إذا لم تحقق هناك خلل عندنا، والآية واضحة تماماً:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور الآية: ٥٥)

وعدوا بالاستخلاف، وعدوا بالتمكين، وعدوا بالتطمين، والواقع المر ليسوا مستخلفين ولا ممكنين ولا آمنين، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين.

الله جلّ جلاله في حلٍّ من وعوده الثلاثة للمؤمنين لأنهم أخلوا بما أوجبه عليهم من عبادته:

أما آخر الآيات:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور الآية: ٥٥)

كلمة واحدة، فإذا أخل المؤمنون بما أوجبه الله عليهم من عبادته فالله جل جلاله في حل من وعوده الثلاثة، هذا أول تفسير، لذلك قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم)

وقد لقي المسلمون ذلك الغي.

من أخذ بدين الله عز وجل فهو في مأمن من عذابه:

لكن أخوانا الكرام، الشيء الدقيق في هذا الدين أنه دين جماعي ودين فردي، الجماعة إذا أخذت به هي في مأمن من عذاب الله:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ (٣٣))

(سورة الأنفال)

كلام خالق الكون، أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يعذب المسلمين وفيهم رسول الله، رسول الله انتقل إلى الرفيق الأعلى، قال: وفيهم سنته، و فيهم منهجه، إن كان كسب أموالهم وفق السنة ما كان الله ليعذبهم، إن كان إنفاق أموالهم وفق السنة ما كان الله ليعذبهم، إن كانت أفراحهم وفق السنة ما كان الله ليعذبهم، إن كانت أتراحهم، أي في كل نشاطاتهم، في كل نشاطات حياتهم إذا اتبعوا منهج الله عز وجل، ما كان الله ليعذبهم، هذا الكلام كالقانون الفيزيائي:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ (٣٣))

(سورة الأنفال)

إذاً حينما يعذبون، حينما تحتل أرضهم، حينما يقتل شبابهم، حينما تنهب ثرواتهم:

((وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ...))

بكل حرب خليجية انتقلت عشرات مئات ألوف المليارات، من أيدي المسلمين إلى أعدائهم:

((وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ...))

أول شيء حينما لا نعبده فالله في حلٍّ من وعوده كلها، هذا أول تفسير.

الفهم الخاطئ لدين الإسلام و التعامل و النقل غير الصحيح له أحلّ الله من وعوده الثلاثة للمسلمين:

هناك تفسير آخر، التفسير الآخر، قال تعالى:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية: ٥٥)

دقق أي دين وعد بتمكينه ؟ أي دين ؟ لا، الدين الذي يرتضيه الله لنا، أي إذا رآنا نفهم الدين فهماً ما أراده الله، إذا رآنا نفهم الدين فهماً فلكلورياً، تزيينات إسلامية، زخرفة إسلامية، أقواس إسلامية، تراثاً إسلامياً، تجد مؤتمراً إسلامياً، والصحفيات، والصحفيون بثياب متبذلة غير معقول، كيف سمحتم لهذه الصحفية أن تلتقي مع علماء كبار بهذا الزي الذي فيه تحدٍّ للمسلمين ؟ صار عندنا حالة الإسلام تراث، الإسلام ثقافة، الإسلام ما تزهو به الأمة فقط، أما المنهج، المنهج غربي، الرصافي قال:

وإذا تسأل عما هو في بغداد كائن فهو حكم مشرقي الضرع غربي الملابن

***

الضرع شرقي أما اللبن غربي، الإطار إسلامي أما السلوك غير إسلامي:

قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن نحن في الباطن لا نملك تحريكاً لساكن

***

الآية الدقيقة:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية: ٥٥)

فإن لم يمكنهم معنى ذلك أن فهمهم للدين، وتعاملهم معه، ونقل هذا الدين للآخرين لم يرض الله عز وجل، الفهم، والتعامل، والنقل غير صحيح.

من هان أمر الله عليه هان على الله:

الدين عندما يصبح مظاهر، ألقاب، سماحة، وفضيلة، ودكتور، ومؤتمر، لكن تطبيق لا يوجد، الكسب حرام، الإنفاق حرام، التعامل مع البنوك الربوية، اختلاط، غناء، أحد الصحفيين، طبعاً هناك من لامه على هذا الشرح لكنه قال: هذه ليست أمة اقرأ هذه أمة ارقص، وهذه ليست أمة محمد هذه أمة مهند، عندما يتعلق المسلمون بممثل إباحي، وجمهور المسلمين حينما يأتي وقت المسلسل كأن هناك منع تجول في الطرقات، اقرأ على هذه الأمة السلام، وإذا أردت كلاماً جامعاً، فصلاً، حاسماً، أقول لكم: هان أمر الله على المسلمين فهانوا على الله.

تصور محطة فضائية تجري استفتاء لإحدى مغنيتين، والاستفتاء يحتاج إلى رسالة (س م س)، هذه المحطة تلقت ستة وثمانين مليون رد، كل اتصال مع الانتظار يكلف عشرات بل مئات الليرات، قريب الألف ليرة، اضرب ستة وثمانين مليون بألف، الناتج: ستة وثمانون ملياراً، من أجل إحدى مغنيتين هذه أمة محمد أم مهند ؟ ليست هذه أمة محمد، أحد الشعراء عقب الحروب السابقة التي لم نوفق بها قال:

أكاد أؤمن من شك ومن عجب هذه الجماهير ليست أمة العرب

***

من هو العربي الجاهلي، عنترة قال:

وَأغضُّ طرفي ما بَدَت لي جارَت ي حَتَّى يُواري جارَتي مَأواها

***

لا نتبع أخلاق الجاهليين في المروءة، وفي الشجاعة، وفي الكرم، ولا نتبع منهج سيد المرسلين في الورع والاستقامة، لكن هناك مظاهر، جوامع، مؤتمرات، محاضرات، مؤلفات، كتب، لكن لا يوجد تطبيق، البيت المسلم فيه اختلاط، فيه شيء لا يرضي الله، تجارة المسلمين فيها بنوك ربوية، فيها تعامل بالمحرمات.

الله تعالى لم يُمكّن للمسلمين دينهم لأنه لم يرتضه لهم:

أيها الأخوة، أردت في هذا اللقاء الطيب أن أضع يدي على الجرح:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

وهذا هو التفسير القرآني، هذا هو التفسير القرآني لما يجري:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

وقد لقي المسلمون ذلك الغي، هذا أول تفسير:

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية: ٥٥)

فإن لم يُمكن لهم دينهم معنى ذلك لم يرتضه الله لهم، ليس هذا هو الدين، هناك عالم قال: " من دعا إلى الله بأسلوب ومضمون سطحي غير متماسك، وطريقة غير علمية أي بدعوة مبنية على الخرافات، المنامات، والشطحات، والكرامات، من دعا إلى الله بمضمون غير علمي، غير متماسك، وسطحي، وساذج، وبأسلوب غير علمي، وغير أخلاقي، وغير تربوي، هذا المدعو بهذه الطريقة، مبلغاً عند الله، ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذه الطريقة ".

الإنسان بفطرته يعلم أن دين الله عظيم وليس كرامات أو شطحات:

الإنسان بفطرته يعلم أن دين الله عظيم، دين الله ليس كرامات، وسحبات، وترهات، دين الله ليس فيه أشياء غير علمية، أحياناً تسمع قصة لا يمكن أن تقبل، يقول لك: واردة في الكتب، ليس هذا هو الدين، طبعاً أوضح مثل أن النبي عليه الصلاة والسلام عندما كسفت الشمس، وتزامن هذا الكسوف مع موت ابنه إبراهيم، الصحابة الكرام من شدة محبتهم للنبي الكريم توهموا أنها كسفت من أجل إبراهيم، فالموقف العلمي للنبي الكريم أنه خطب بأصحابه وقال: " إن الشمس والقمر آيتان لا ينبغي أن تنكسفا لموت واحد من خلقه ولا لحياته ". هذا موقف علمي.

أنا أتمنى على الإنسان أن يجمع بين التفاؤل وبين أن يضع يده على الجراح، السؤال الكبير أين الخلل ؟ عندنا خلل بعدم عبادة الله عز وجل، عندنا خلل بفهم الدين والتعامل معه وعرضه على الآخر، لذلك هذا العالم الكبير الأمريكي الذي هداه الله إلى الإسلام، ثم سافر إلى بريطانيا، والتقى بالجالية الإسلامية، قال: أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اليوم اللحاق بالغرب على الأقل في المدى المنظور لاتساع الهوة بينهما، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين، لا لأنهم أقوياء ولكن لأن خلاص العالم في الإسلام.

وهذه البوادر واضحة، انهيار النظام العالمي جعل ألد أعداء الدين يدرسون النظام الإسلامي المصرفي، حرمت الخمر قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، كل ما يجري في العالم يؤكد هذا.

خلاص العالم في الإسلام بشرط أن يحسن المسلمون فهم دينهم وتطبيقه وعرضه على الآخر:

كنت في سفر قبل يومين أحد المحاضرين قال كلمة: فتاة شابة جاءت إلى مركز إسلامي كي تسلم، فلما سئلت ـ وكان السائل ذكياً جداً ـ لماذا دخلت في الدين وحال المسلمين لا تسر صديقاً ولا عدواً؟ قالت: عفة المرأة المسلمة.

هي من ألمانيا مرة تمشي في الطريق رأت تجمعاً كبيراً جداً وتصفيقاً، فلما اندست بين الصفوف رأت ما لا يصدق، رجل يعاشر امرأة أمام الناس، اتصلت بصديقتها المسلمة، قالت لها: أنتم عندكم بالدين الإسلامي مسموح ؟ قالت لها: مستحيل وألف ألف مستحيل، نحن المرأة صوتها عورة، المرأة محتشمة بثيابها، حدثتها عن الإسلام، فكان هذا سبب إسلامها.

أيها الأخوة الكرام، نحن نملك تراثاً عظيماً، نملك وحي السماء، نملك القرآن الكريم، نملك منهج رب العالمين، لكن في غفلة عنه، لذلك حينما لا ترى أن وعود الله قد تحققت، إياك أن تسيء الظن بالله، اسأل أين الخلل ؟ عندنا خلل، هذه النقطة الثانية، الثانية لم يكن فهمنا للدين، ولا تعاملنا معه، ولا عرضنا له، يرضي الله عز وجل، فهذا الذي قال: لأن خلاص العالم في الإسلام، قال: ولكن بشرط أن يحسن المسلمون فهم دينهم، أن يحسنوا تطبيقه، أن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر.

إن اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ:

مرة ثالثة هناك ملمح ثالث قال تعالى:

(إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية: ١١)

صدق ولا أبالغ مستحيل وألف ألف مستحيل أنك إذا وقعت في مشكلة كبيرة فسببها خروجك عن منهج الله، كلام دقيق، مستحيل الله يغير إن لم تغير، كل المسلمين ينتظرون معجزة، يا رب تبعث لنا معجزة تهلك أعداءنا، نحن لا نغير، نحن على ما نحن عليه، طعامنا، وشرابنا، واختلاطنا، وكسب أموالنا، وتقصيرنا بالعبادات، وتقصيرنا بحدود الله، ما دام لا نغير الله لا يغير، هذه الحقيقة المرة، النصر له ثمن، النبي صلى الله عليه وسلم:

((إنما تُنصرون بضعفائكم))

[أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

نحن عندنا ضعفاء هذا الضعيف أطعمته إن كان جائعاً ؟ كسوته إن كان عارياً ؟ عالجته إن كان مريضاً ؟ زوجته إن كان عازباً ؟ آويته إن كان مشرداً ؟ نصرته إن كان مظلوماً ؟ ما دام هناك ضعفاء مقهورون، فقراء، مظلومون، لن نشم رائحة النصر:

((إنما تُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

فيا أيها الأخوة الكرام، القضية يجب أن تجمع بين التفاؤل وبين التشاؤم، يجب أن تجمع بين الإيجابيات وبين السلبيات، فهذه الفائدة تتحدث عن سبب خذلان المسلمين، هناك أسباب كبيرة جداً.

أيها الأخوة، أرجو الله سبحانه وتعالى أن نستفيد من هذه الدروس، ولعل الله عز وجل يعتقنا من النار.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٢٥-٣١) : أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

كل إنسان معرض لخطرين ؛ خطر الشبهات وخطر الشهوات:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. هذه الفائدة حول قوله تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

أيها الأخوة، لعلكم لاحظتم أنني في أي درس من الدروس أبدأ بهذا الدعاء: " اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات ". الإنسان معرض لخطرين، خطر الشبهات وخطر الشهوات، الشبهات فكرية، والشهوات نفسية، هناك مزلقان خطيران يتربصان بالإنسان إن لم يكن إيمانه قوياً، قد تزل قدمه بشبهة أي ضلالة، نقد، مأخذ، على هذا الدين العظيم، هذه الضلالة، أو تلك الشبهة، أو هذا المأخذ يزلزله، فلذلك أن تكون يقظاً، لا تخضع لشبهة إلا وتبحث عن ردٍّ لها قوي، أحياناً تطرح أمامك شبهة لا تعبأ بها، إيمانك أقوى من هذه الشبهة، هذه حالة صحية وجيدة، أما حينما تطرح أمامك شبهة، وهذه الشبهة تزلزلك، تضعف ثقتك بالله، تضعف ثقتك بهذا الدين العظيم، تضعف ثقتك بوعود الله عز وجل، هذه الشبهة خطيرة، وقد تتفاقم، وقد تستشري، لا بدّ من معالجتها، لذلك سيدنا عمر كان يقول: " تعاهد قلبك ".

عندما يلتفت القلب إلى غير الله بسبب شبهة، والآن ما أكثر الشبهات صدقوا ولا أبالغ هناك حرب عالمية ثالثة معلنة على هذا الدين، قديماً كان أعداء الدين ينالون من فروعه، الآن أعداء الدين ينالون من رموزه الكبيرة، ينالون من القرآن الكريم، ينالون من النبي عليه الصلاة والسلام، الآن هناك هجمة على الدين شرسة، هذه الهجمة ربما إنسان وهو يطالع بعض المواقع في الانترنيت قد يجد مواقع تحارب الدين حرباً شعواء، فلا بد من العلم.

أي بشكل أو بآخر، قبل خمسين عاماً يمكن بعقيدة بسيطة من دون تحقيق، من دون تدقيق، من دون متابعة، تكون هذه العقيدة كافية، الآن بقدر ما يوجد في الحياة من شبهات، ومن ضلالات، ومن

طروحات، ومن تطاول على الدين، وعلى رموزه، لا تكفي عقيدة بسيطة، لا يكفي أن تقلد عالماً، لا بدّ من التحقيق.

الدين لا يؤخذ وراثة ولا تقليداً ولا استرضاءً الدين يحتاج إلى تعمق و تحقق و درس و دليل:

لكن بالمناسبة الله عز وجل لا يقبل اعتقاداً من مسلم تقليداً، الدليل قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية: ١٩)

ما قال فقل، لو كان فقل القضية سهلة، لو أن الله عز وجل قبل من مؤمن عقيدته تقليداً لكانت كل الفرق الضالة ناجية عند الله عز وجل، ماذا فعلوا ؟ سمعوا رؤساءهم في هذه المجموعة الدينية قالوا شيئاً فقلدوه، الله عز وجل قال:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

(سورة محمد الآية: ١٩)

فالدين لا يؤخذ وراثة، ولا تقليداً، ولا استرضاءً، الدين يحتاج إلى تعمق، وإلى تحقق، وإلى درس، وإلى دليل، أنا إن كان من نصيحة أجزيها لكم عود نفسك أن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، كلام النبي عليه الصلاة والسلام:

((ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[العلل لابن أبي حاتم]

أي يكفي أن تستمع إلى متحدث في الدين معلوماته ضعيفة جداً وقال لك: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، وشرح الحديث شرحاً ساذجاً أغراك بالتفلت من منهج الله، شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي. قال: هذه شبهة، لو أن الإنسان صدقها بلا دليل، وأخذها على عواهنها، ربما ينحرف في بيعه وشرائه، ويتوهم أنه تناله شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام، فلذلك دقق في هذه الآية:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

(سورة الكهف)

تصور طالب بالشهادة الثانوية، معلق آمالاً كبيرة جداً على نجاحه بعلامات عالية، في أول العام الدراسي جاءه صديق كسول قال له: الأساتذة بهدية لا بأس بها يعطونك الأسئلة، فترك الدراسة اعتماداً على هذه الشبهة، أو على هذا الوهم، فلما طرق باب أحدهم ممن يتوهم أنه واضع الأسئلة، وقدم له الهدية، تلقى صفعتين على وجهه، وركلتين بقدمه. الآن هنا الطامة الكبرى كل هذه الأوهام تبددت.

حقوق الله مبنية على المسامحة و حقوق العباد مبنية على المشاححة:

فأنا دائماً أقول: اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم.

مثلاً من هذه الأوهام التي يتوهمها العامة أنك إذا صمت رمضان خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك، هذا الكلام صح وغلط بأن واحد، الذنوب التي بينك وبين الله تغفر، حقوق الله مبنية على المسامحة، أما ما عليك من حقوق تجاه الخلق لا تغفر لا بقيام، ولا بصيام، ولا بحج، إلا أن تؤدى، أو أن صاحب الحق يسامحك، فدائماً ابحث عن الحقيقة ولو أنها مرة، فالحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، قال تعالى:

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (٤) ﴾

(سورة نوح)

من ذنوبكم، يغفر لهم بعض ذنوبهم التي كانت بينهم وبين الله، هل من المعقول إنسان قدم أثمن ما يملكه قدم روحه فاستشهد، أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يصلي عليه سأل أعليه دين ؟ قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم.

من أقوال النبي عليه الصلاة والسلام الخطيرة أنه:

((يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين))

[أخرجه أحمد في مسنده وصحيح مسلم عن ابن عمرو]

فحقوق العباد مبنية على المشاححة.

مرة النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يصلي على أحد أصحابه فسأل: أعليه دين ؟ قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، قال أحد الصحابة: يا رسول الله عليّ دينه، فالنبي رقّ له فصلى عليه، في اليوم التالي سأل هذا الضامن أأديت الدين ؟ قال: لا، في اليوم الثالث: أأديت الدين ؟ قال: لا، في اليوم الرابع سأله أأديت الدين ؟ قال: نعم، قال عليه الصلاة والسلام: الآن ابترد جلده.

ما قولك بدين يقول فيه نبيه:

((يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين))

أي مؤمن يعتز بدينه إذا طرحت شبهة يجب أن يتابع هذه الشبهة ويبحث عن جواب لها:

لذلك حينما تقرأ قوله تعالى:

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (٤) ﴾

(سورة نوح)

هذه من للتبعيض، لذلك: الحقيقة الدقيقة أن هناك ذنباً يغفر ما كان بينك وبين الله، يغفر بالقيام، يغفر بالصيام، يغفر بالتوبة، يغفر بالحج، يغفر بالهجرة، أحاديث كثيرة صحيحة، الهجرة، التوبة، الصيام، القيام، الحج، هذه مكفرات للذنوب ما لم تكن متعلقة بحقوق العباد، حقوق العباد لا تغفر إلا بالأداء أو المسامحة، هذا وهم، لذلك الدعاء: اللهم إنا نعوذ بك من الجهل والوهم، ونسألك المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

أي هناك شبهات وهناك شهوات، أنا أتصور أن أي مؤمن يعتز بدينه إذا طرحت شبهة، قرأها في مجلة، سمعها بحديث، من خلال محاضرة طرحت شبهات حول هذا الدين، وتزلزل، ضعفت ثقته بهذا الدين، قام إلى العبادة متكاسلاً، هذه بداية حالة خطرة، يجب أن تتابع هذه الشبهة وأن تبحث عن جواب لها، صدق ولا أبالغ أحياناً في عقود القران أدعى إلى إلقاء كلمة أريد أن أطيب قلب المنشدين أقول: إن في الإنشاد إرشاداً وإن في الإرشاد إنشاداً، الأولى واضحة أحياناً النشيد فيه معان سامية، أما الثانية وإن في الإرشاد إنشاداً أنت حينما تكون عندك شبهة وتكتشف الحقيقة تكاد تطرب، قد يطرب طالب العلم بشبهة تبددت أمامه وتوضحت آلاف ما يطرب مدمن غناء بأغنية، وإن في الإرشاد إنشاداً تطرب لها.

كل إنسان بحاجة إلى يقين يبقيه على طريق الحق:

الآن:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

أي لم يتابع أمور الإيمان، لم يبن إيمانه على يقينيات، لم يبن إيمانه على أدلة، لم يبن إيمانه على بحث، لم يبن إيمانه على درس، سمع أقوالاً في الجامع من بعض المؤمنين، قرأ مقالة، رأى محاضرة، عنده معلومات، هذه المعلومات لا تقف أمام الشهوات، الشهوة تخرقها، كل معلومة لها قوة مقاومة، تصور طناً من الحديد ألقيناه من رأس ناطحة سحاب على طريق النزول في طبق ورق، هذا الطبق يقف أمامه ؟ لا، طبق ورق لا كرتون، فهذا الطن من الحديد الذي يهوي من ارتفاع ناطحة سحاب لن يقف أمامه إلا إسمنت مسلح سماكته خمسة أمتار، هناك شبهات، نحن الآن بعصر الشهوات أينما تحركت هناك معصية في الطريق، في المجلة يوجد معصية، بالصحيفة يوجد معصية، بالحديث يوجد معصية، بالمحاضرة يوجد معصية، الآن بالانترنيت يوجد معصية، بالفضائية يوجد معصية، المعاصي تحوم حول كل الناس، فلذلك الآن أنت بحاجة إلى يقين، يقين بمعنى لو أن أهل الأرض كفروا جميعاً أنت تبقى على طريق الحق.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية الآية: ٢١)

أغبى الأغبياء من لا يدخل الله عز وجل في حساباته:

أيها الأخوة الكرام، صدقوا ولا أبالغ أنا حينما أرى إنساناً يتحرك هو قوي، يتحرك بقوته وينسى أن الله سيحاسبه، صدقوا ولا أبالغ أعده من أغبى الأغبياء، أنت حينما لا تدخل الله في حساباتك يكون إنساناً ضعيف الإيمان وأحمقاً وغبياً:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

جوابها، هناك مثل واضح جداً بذهني أنت تحتقر قانون السقوط، للسقوط قانون، تحتقر هذا القانون، ترفض هذا القانون، تزدري هذا القانون، تقلل من قيمة هذا القانون، أنت إذا رفضت هذا القانون هل توقف تأثيره فيك ؟ تستطيع أن تلقي بنفسك من طائرة من دون مظلة ؟، المظلة احترام لهذا القانون، المظلة مدروسة، سطح مقاوم للهواء مساحته كافية كي تسقط إلى الأرض بسرعة بطيئة. النقطة الدقيقة أنت حينما لا تعبأ بقانون إلهي، هذا القانون نافذ فيك شئت أم أبيت، لذلك الذكاء هو التكيف، أنا حينما أتكيف مع هذه القوانين أنجو، مثلاً:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة الآية:٢١٤)

تتصور الإيمان طريق كله رياحين ؟ جميل تتنزه فيه، أطيار، أزهار، نسيم عليل ؟ طريق الإيمان فيه امتحانات صعبة جداً، الإمام الشافعي سئل: "ندعو الله يا إمام بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال الإمام الشافعي: لن تمكن قبل أن تبتلى ".

هذه حقيقة مرة، الله عز وجل يمتحنك، لك أن تعطي نفسك أكبر حجم، لكن الله يمتحنك، بل إن الله يحجمك، فكل ادعاءاتك تسقط أمام امتحان صعب، لذلك وطن نفسك أن هناك امتحاناً، الحياة ليست ورود ورياحين، طريق الإيمان فيه متاعب:

((حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ))

[صحيح مسلم عن أنس بن مالك]

وكلما أعطيت نفسك حجماً أكبر وضعك الله في ظرف صعب، كنت بحجمك الحقيقي.

المعركة بين الحق و الباطل معركة أزلية أبدية:

أيها الأخوة:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤))

(سورة البقرة الآية: ٢١٤)

أولاً: هناك معركة بين الحق والباطل دائماً، وطن نفسك أن هناك معركة حق وباطل، كل إنسان حينما يوطن نفسه على وضع متوقع ينجو منه، أما إذا وطن نفسه على وضع غير متوقع قد لا يأتي بهذا الوضع فيصاب بخيبة أمل كبيرة جداً، وطن نفسك أن هناك معركة أزلية أبدية للحق، هكذا شاءت حكمة الله، الله عز وجل كان قادراً أن يضع الكفار في كوكب آخر، بل في قارة أخرى، بل في حقبة أخرى، لكن شاءت حكمة الله أن يعيش المؤمنون مع غير المؤمنين في مكان وفي زمان، والطرف الآخر يعادي الدين في خندق معاد، لذلك دائماً هناك معركة بين الحق والباطل، أنت حينما تقبل هذه المعركة وتعتبرها شيئاً طبيعياً تنجو منها، أقول لكم:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال)

أي يمكن للكافر أن ينجو من عقاب الله ؟ مستحيل، يمكن للكافر أن يفعل شيئاً ما أراده الله ؟ أنا أتمنى هذه الآيات التي تأتي أم حسب، ابحث في المعجم المفهرس أو الكومبيوتر على كلمة حسب، تجد مجموعة أوهام يتوهمها الناس، مثلاً:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢))

(سورة إبراهيم)

الكافر في قبضة الله:

الحقيقة هناك امتحان صعب جداً، الله يقوي الكافر، يقويه يقويه ويفعل ما يقول، يقتل، ويجتاح، ويدمر، ويتصدر الشاشات، ويتبجح بالحرية والديمقراطية، لكن هذا الكافر في قبضة الله:

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ)

(سورة الأنفال)

أي هل يستطيعون التفلت من عقاب الله ؟ هل يستطيعون أن يفعلوا شيئاً ما أراده الله ؟ فلذلك أيها الأخوة، ابن إيمانك على اليقينيات، وإياك ثم إياك أن تتعلق بأوهام، أو شبهات، أو شهوات، أما المؤمن معرض لمزلقين خطيرين مزلق الشبهات، ومزلق الشهوات.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٢٦-٣١) : صفات التوحيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مضمون دعوة الرسل واحدة و هي التوحيد أولاً و العبادة ثانياً:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى.

في هذه الفائدة يتحدث عن صفات التوحيد، أول حقيقة أن فحوى ـ أي مضمون ـ دعوة الأنبياء جميعاً التوحيد والعبادة، والدليل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ)

وهذه من تفيد استغراق أفراد النوع، أي كل الرسل من دون استثناء مضمون دعوتهم التوحيد أولاً، والعبادة ثانياً، التوحيد عقيدة والعبادة سلوك، التوحيد منطلق نظري والعبادة سلوك عملي، التوحيد قناعات والعبادة حركات، الإنسان يملك فكراً ويملك عملاً، قال العلماء: نهاية العلم التوحيد، وقالوا: ونهاية العمل العبادة، فأنت إذا وحدت وعبدت حققت الهدف من وجودك، حققت علة وجودك، أن توحده، وأن تعبده، توحده من خلال هذا الكون، من خلال آياته الكونية، من خلال أفعاله، آياته التكوينية، و من خلال آياته القرآنية، وتعبده من خلال منهجه، فأنت إذا وحدت وعبدت حققت الهدف من وجودك، وهذا لا يمنع أن يكون الإنسان غير موحد، ويحمل دكتوراه، عندها نقول: ما كل ذكي بعاقل، كأن الذكاء متعلق بالتفاصيل، والجزئيات، وكأن العقل متعلق بالكليات، فالذي يغفل عن سرّ وجوده، وعن غاية وجوده، وعما ينبغي أن يكون، ليس موحداً لكنه وقع في شرك خفي.

الشرك الأكبر و الشرك الأصغر:

الآن الشرك كلمة كبيرة جداً، أن تقول: فلان مشرك تهمة كبيرة جداً، لكن العلماء ميزوا بين شرك أكبر وبين شرك أصغر، الأكبر أن تجد صنماً كبعض ديانات آسيا، بوذا يعبد من دون الله، مرة كنت في أمريكا أرادوا أن يأخذوني إلى معبد هندوسي، وصلت إلى المعبد وجدت صنمين من البرونز، وصدقوا ولا أبالغ على صدريهما الألماس البرلنت بمئات الملايين، ورأيت أتباع هذا الدين ينبطحون انبطاحاً كاملاً أمام الصنم، ورأيت أشياء كثيرة، فالإنسان حينما لا يوحد ويعبد صنماً، أو

حجراً، أو شمساً، أو قمراً، يكون قد وقع في الشرك الأكبر، أما حينما يوالي إنساناً ليس مستقيماً لكنه ينتفع منه، هذا شرك أصغر، من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي))

[ورد في الأثر]

الشرك الجلي من فضل الله عز وجل المسلمون معافون منه، أما الشرك الخفي كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً، ولكن شهوة خفية، وأعمال لغير الله))

[ورد في الأثر]

أنت حينما تتبع شهوة لا ترضي الله جعلت هذه الشهوة إلهاً، والدليل:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)

(سورة الفرقان)

أنت حينما تخضع لشهوة لا ترضي الله، تصر عليها، أنت مشرك بمعنى أنك آثرت هذه الشهوة على طاعة الله، وكأنها إله عبدتها من دون الله.

نهاية العلم ألا ترى مع الله أحداً و أن ترى أن الله وحده هو المتصرف بالكون:

أحياناً تجد إنساناً مولع بالتحف أينما سافر، دخلت مرة إلى بيت فيه من التحف ما يزيد عن عشرة ملايين، صاحب هذا البيت له أذواق رفيعة جداً، أحياناً يتعلق بالسفر، أحياناً يتعلق بالمباحات، ولا تنسوا أيها الأخوة، أن الشيطان كما يوصف ذكي جداً بمعنى أنه يجس النبض، يوسوس لك بالكفر لا سمح الله ولا قدر، فإذا رآك على إيمان وسوس لك بالشرك، فإن رآك على توحيد وسوس لك بالكبيرة، فإن رآك على طاعة وسوس لك بالصغيرة، فإن رآك على ورع بقيت معه ورقتان ورقة المباحات، وسوس لك بالمباحات يمضي كل وقته في دنياه من دون معصية، لكن أتلف وقته واستهلك وقته لخلاف ما ينبغي، فإن لم يستجب له بقي معه ورقة أخيرة هي من فعل الشيطان، يوسوس له بالتحريش بين المؤمنين.

تجد الجماعات الإسلامية على خلاف يتراشقون التهم، كل يدعي وصلاً بليلى، كل يعتم على من حوله، هذه حالة من حالات البعد عن الله، وأنا أقول دائماً ما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً، فالتوحيد نهاية العلم، نهاية العلم ألا ترى مع الله أحداً، نهاية العلم أن ترى أن الله وحده هو المتصرف بالكون، نهاية العلم أن ترى أنه لا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله، ولا رافع إلا الله، ولا خافض إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، التوحيد أن ترى أنه مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر، والتوحيد أن ترى أنه مستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن تعصيه

وتربح، التوحيد مستحيل أن ترضي إنساناً بمعصية الله، مستحيل أن ترضي مخلوقاً كائناً من كان بمعصية الله، النبي عليه الصلاة والسلام يقول: "لا طاعة لمخلوق في معصية الله ".

حياة الموحد:

التوحيد حينما لا تخشى إلا الله، ولا ترجو غير الله، ولا تتوكل إلا على الله، ولا تعتمد إلا عليه، ولا تعلق الآمال إلا على فضله، وهذا التوحيد نهاية العلم، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، حياة الموحد يصعب تصورها، عنده راحة نفسية، علاقته مع جهة واحدة، بينما علاقات الناس مع جهات كثيرة إن أغضب زيداً يرضى عبيد، وإن أغضب عبيداً يرضى زيد، وهو موزع، مشرذم، مبعثر بين إرضاء كل الناس، الموحد يرضي الله وحده، الموحد يعلق الأمل على الله وحده، الموحد لا يحقد أبداً، لا ييأس، يؤمن أن الله عز وجل بيده كل شيء، الموحد لا يشعر بالظلم أبداً، يعلم علم اليقين أن الذي ناله بسوء ما كان له أن يناله بسوء لولا أن الله سمح له، ولأن الله كامل كمالاً مطلقاً إذاً هناك خلل عندي.

مثل بسيط، أحياناً هناك أمثلة صارخة، بالسبعينات كان هناك محل أقمشة بأحد أسواق دمشق، يوجد بالمحل محاسب، يبدو أن خلافاً نشب بين صاحب المحل وبين المحاسب فطرده، المحاسب أبلغ المسؤولين عن بضاعة ليست نظامية، فلما دوهمت مستودعاته ـ القصة بالسبعينات ـ كان الدولار بثلاث ليرات، فدفع ستمئة أو سبعمئة ألف، أي قريباً من عشرين مليوناً أو خمسين مليوناً قياساً على هذه الأيام ـ هناك إنسان أوصى أن يحفظ سعر الذهب يوم زواجه، وأن يحسب سعر الذهب يوم موته، وأن تعطى زوجته المهر على سعر الذهب الجديد، فلما أجري الحساب قدر المهر بسبعة آلاف أي ما يقدر بمليوني ليرة قياساً على هذه الأيام ـ هذا التاجر لم يحتمل عنده مسدس أطلق النار على هذا المحاسب وأرداه قتيلاً، والآن هو في السجن حكم ثلاثين عاماً، انظر التعليق اللطيف، لو أن هذا التاجر رأى أن هذا المحاسب ما نال منه، ما نال إلا أن الله سمح له، فكأن هذا المحاسب عصا بيد الله، الموحد يستسلم ويرضى عن الله، ويراجع نفسه، هذا لو راجع نفسه لكان المبلغ زهيداً لأن الله عز وجل أعطاه أضعافاً مضاعفة، أنت حينما توحد لا تحقد، حينما توحد لا تيأس، حينما توحد لا تشعر بالضيم، علاقتك مع الله، أقسم لكم بالله الموحد يعيش حياة تفوق حدّ الخيال، قد يكون فقيراً، قد يكون بيته صغيراً، قد يكون دخله محدوداً لكنه راض عن الله، لكنه يرى أن الحياة الدنيا زائلة، وأن الآخرة هي دار القرار:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

الدين كله توحيد:

أيها الأخوة، أكاد أقول: الدين كله توحيد، ألا ترى مع الله إلهاً، ألا ترضى من إنسان وهذا الإنسان هو الذي سخره الله لك، تشكر الهي أولاً ثم تشكره ثانياً، وألا تغضب إذا أساء أحد إليك ترى أن الله سمح له، وما كان لله جلّ جلاله أن يسمح له إلا بسبب خلل عنده لذلك ورد في بعض الآثار:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

التوحيد أن تتعظ بالمصيبة، وأن ترى هذه المصيبة رسالة من الله، التوحيد أن ترى أن لكل واقع حكمة ولو كان الموقع مجرماً، أنت بالتوحيد ترى أن الحادي عشر من أيلول بعد ردح من الزمن سوف نكتشف أن هذا الحدث كان في النهاية لصالح المسلمين، التوحيد أن تتعلق بالله وحده ولا تعبأ بأحد، النبي عليه الصلاة والسلام قال: " وما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر".

((لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي، ولكن أخ وصاحب في الله حتى يجمع الله بيننا))

[ابن إسحاق عن بعض آل أبي سعيد بن المعلى]

فلما مات النبي عليه الصلاة والسلام، رد الناس على الصديق قائلاً: من كان يعبد محمداً (هكذا فقط) وأنا أعتقد أنه ما على وجه الأرض إنسان أصابه ألم كالذي أصاب هذا الصحابي الجليل، لكن التوحيد أنقذه.

" من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ".

التوحيد هو الدين كله فإن ألغي التوحيد ألغي الدين:

التوحيد أن سيدنا عمر عزل سيدنا خالد، جاءه سيدنا خالد، قال: يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني ؟ قال له: والله إني أحبك، قال: لِمَ عزلتني ؟ قال: والله إنك أحبك، قال: لِمَ عزلتني ؟ مرة ثالثة، قال له: والله ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله، أراد أن ينقذ التوحيد بعزله، توهم الناس أن خالد بن الوليد هو الذي ينصرهم من دون الله، فعزله، النصر مستمر، قضية التوحيد هي الدين كله، قضية التوحيد ألا تيأس، ألا تخضع، ألا تتضعضع، قضية التوحيد:

(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

أنا لا أصدق أن موحداً يخضع لغير الله، لا أصدق أن موحداً ييأس، لا أصدق أن موحداً يتشاءم، مع الإيمان بالله ليس هناك تشاؤم، ليس هناك يئس، ليس هناك تضعضع، ورد في بعض الآثار:

((من دخل على غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[رواه البيهقي عن ابن مسعود]

إن ألغي التوحيد يلغى الدين، حتى الذين يعبدون أصناماً من دون الله يقولون:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر الآية: ٣)

فلذلك: " أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي، أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ولكن شهوة خفية وأعمالاً لغير الله ".

من لم يقل أنا أسعد الناس فبإيمانه خلل كبير:

لكن قد يقول أحدكم التوحيد سهل، هو نظرياً سهل جداً، فكرة رائعة مقبولة وتحفظ، أما التوحيد عملياً صعب جداً، مرة سأل إنسان طبيباً قال له: علمني كيف أكتب وصفة للناس ؟ ابتسم الطبيب و قال له: كتابة الوصفة محصلة دراسة أربعين سنة، بعد أربعين سنة دراسة يمكن أن تكتب وصفة، فالتوحيد محصلة استقامتك، محصلة تفكرك بالكون، محصلة أعمالك الصالحة، محصلة انضباطك، محصلة مجاهدة النفس والهوى، كل الجهود التي تبذل في حقل الدين قد تتوج بالتوحيد، فالموحد لا ييأس، ولا يحقد، ولا يتشاءم، الموحد إذا لم يقل لك: أنا أسعد إنسان في الأرض يوجد بالتوحيد خلل، والإنسان حينما يعصي الله من ضعف توحيده، أحياناً يغش، لماذا غش ؟ هو توهم أن هذا الغش سيأتيه بمورد إضافي ينتفع به وغفل أن الله بيده الرزق، يأتيه مورد إضافي أصاب البضاعة لأسباب تافهة يدفع عشرة أضعاف.

لي قريب يعمل في إصلاح السيارات، له جار جاءه إنسان اشترى سيارة جديدة وهو جاهل أن في دقائقها هناك مشكلة، جاره واقف أمامه قال له تحتاج ثلاثة أيام وعشرة آلاف، هي تحتاج إلى تنظيف شيء في السيارة خلال دقيقة، قال لي: بعدما ذهب صاحب السيارة على أساس أن يأتي بعد أربعة أيام، اتصل بأهله أخذهم بالمركبة يوماً إلى الزبداني، ويوماً على طريق المطار، ويوماً على الوادي، واستخدم هذه السيارة أياماً ثلاثة ولما جاء صاحب السيارة قال له: هذه عشرة آلاف دفعهم عداً ونقداً، فقال له جاره: حرام عليك، قضية تنتهي بخمس دقائق تكلفك عشر ليرات أخذت منه عشرة آلاف، قال له: هكذا العمل، هذا غير موحد، لم يرَ أن الله سينتقم منه، بعد يومين ابنه يعمل في مخرطة تدخل نثرة فولاذ إلى عينه، فدفع ما يقدر بست عشرة ألف ليرة لبناني، وكانت الليرة لبناني قديماً بمئة وستين قرشاً سورياً أي دفع حوالي خمسة وعشرين ألفاً، حتى نزعت هذه النثرة من قرنية ابنه.

التوحيد أن ترى أنك لن تنجو من عذاب الله لو أضررت بالمسلمين.

ما من مصيبة على وجه الأرض إلا بسبب ضعف التوحيد:

أيها الأخوة الكرام، حياتنا لا تصلح إلا بالتوحيد، التوحيد لمجرد أن تعصي الله من أجل مال وفير فأنت غير موحد، ما رأيت أن الله هو الرزاق:

((من أصاب مالاً من نهاوش أذهبه الله في نهابُر))

[ابن النجار عن أبى سلمة الحمصى]

يذهب ماله نهباً، تجد مصادرات، ضرائب فوق طاقة الإنسان، يحترق معمله، لأنه لم يحاسب نفسه حساباً عسيراً، قد يكون هذا الحق حق العمال، أنت بقوتك وجبروتك وطلاقة لسانك أقنعتهم بهذا، يقول لك: السعر السائد من أجل التكلفة، لكن ما وحدت الله، بإمكانك أن تعطي ضعف الأجر، والمعمل يزداد تألقاً، ما انتبهت لهذه النقطة.

أيها الأخوة الكرام، والله ما أرى مصيبة على وجه الأرض إلا بسبب ضعف التوحيد، ما أرى معصية على وجه الأرض إلا بسبب ضعف التوحيد، ما أرى إنساناً متشائماً يائساً يشكو كثيراً إلا لضعف التوحيد، وأنت حينما توحد تحل كل المشاكل، فلذلك نختم هذا اللقاء الطيب بهذه العبارة التي أرددها كثيراً، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٢٧-٣١) : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفة متأنية عند كلمة النذير فالنذير هو:

١ ـ النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. هذه الفائدة تتحدث عن مجموعة آيات، من هذه الآيات قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ (٣٧))

(سورة فاطر)

الوقفة المتأنية عند كلمة النذير، فإلهنا العظيم يخاطب الناس يوم القيامة ويقول لهم:

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

عمرتم عمراً كافياً كي تعرفوا الله، أحياناً نقول العام الدراسي تسعة أشهر كافية لاستيعاب المنهج، تسعة أشهر محاضرات، وظائف، كتب، ومتابعات:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ (٣٧))

ما النذير ؟ أولاً قال بعض المفسرين: النذير هو النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه في أحاديثه الشريفة بيّن حقيقة الدنيا، بيّن حقيقة الموت:

((وإن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، و أحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا و إن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، و الإنابة إلى دار الخلود، و التزود لسكنى القبور، و التأهب ليوم النشور))

[ابن مردويه والبيهقي عن أبي جعفر المدايني]

فالنبي ذكر مصير الإنسان، قال:

((أكثروا من ذكر هادم اللذات ـ مفرق الأحباب ـ مشتت الجماعات))

[أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن سهل بن سعد و البيهقي عن جابر]

رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم.

أيها الأخوة، النبي صلى الله عليه وسلم بأحاديثه، وبيانه، وبيان آياته، وذكر الموت، وما بعد الموت، والصراط، والجنة، والنار، ودعوته صلى الله عليه وسلم إلى معرفة الله، والاستقامة، والعمل الصالح، كان النبي صلى الله عليه وسلم هو النذير:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)

(سورة الأحزاب)

فكل إنسان قرأ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، مثلاً مرّ النبي عليه الصلاة و السلام بقبر فقال: "صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم، هاتان الركعتان خير له من كل دنياكم ".

٢ – أو القرآن الكريم:

وبعض العلماء قالوا: النذير هو القرآن الكريم، قدم لك مسبقاً مشاهد من يوم القيامة قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

(سورة الحاقة)

هذا حال أهل الجنة:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

الشاهد بكلمة عظيم، آمن بالله وإبليس آمن بالله:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية: ٨٢)

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة الأعراف)

(قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

آمن بالله لكنه لم يؤمن بالله العظيم.

كل آيات القرآن الكريم تنذر الإنسان بعاقبة غفلته عن الله تعالى:

الواحد منا إن لم يجهد نفسه في معرفة الله يكون قد آمن بالله بحكم أنه من أبوين مسلمين، تلقى معلومات في التعليم الابتدائي، والإعدادي، والثانوي، سمع خطباً، هذا آمن بالله لكن ما آمن به عظيماً، لو آمنت به عظيماً لعددت للمليار قبل أن تعصيه، لذلك قالوا: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت. القرآن الكريم نذير، يبين لك قبل فوات الأوان مشاهد من يوم القيامة كيف أن فرعون حين أدركه الغرق:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩٠))

(سورة يونس الآية: ٩٠)

كل آيات القرآن الكريم تنذرك مغبة غفلتك عن الله، تنذرك مغبة عصيانك لله، فالقرآن هو النذير.

٣ ـ أو سن الأربعين:

والنذير أيضاً قال: سن الأربعين، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، أي أكل، وشرب، وتزوج، وأنجب، وذهب نزهات، وأقام ولائم، فالإنسان بالبدايات كل شيء كبير عنده، الزواج شيء كبير، المال شيء كبير، العمل، التجارة، تجد الشاب في بداياته يرى الدنيا بحجم غير معقول، فكلما تقدمت به السن صغر حجمها، أما عند الموت لا يراها شيئاً، لا يرى إلا العمل الصالح، لا يرى إلا طاعة الله، لا يرى إلا الاستقامة على أمر الله، فلذلك: من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة.

شيء آخر عندما يسافر الإنسان لعشرة أيام يلاحظ في اليوم السابع أنه يرسم خطة العودة، يقطع التذاكر، يشتري الهدايا، من واحد لسبعة هناك خط، و من ثمانية لعشرة خط ثان، فمن دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة.

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

فيا خجلي منه إذا هو قال لي أيا عبدنـا ما قرأت كتابنـــا

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنـــا

***

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ (١٦))

(سورة الحديد)

فسن الأربعين هو النذير.

من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار:

بل إن هناك في الأحاديث حديثاً يقصم الظهر: " من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار"، بالأربعين يوجد معصية ؟ بالأربعين يوجد مراهقة ؟ لذلك ورد:

" أحب ثلاثاً، وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد، أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد ".

٤ ـ أو سن الستين:

وقال بعض العلماء: النذير سن الستين، النبي عليه الصلاة والسلام يقول: " أعمار أمتي بين الستين والسبعين ".

أحياناً عندي رغبة أن أسأل عن أخ كريم توفاه الله كيف توفي ؟ يقال: والله صلى الظهر إماماً والعصر كان مدفوناً، هل كان يخطر في باله أن أجله انتهى ؟ عالم جليل في الشام يحضر خطبة جمعة في الميدان توفي وهو في المسجد، هل يوجد إنسان يأتيه ملك الموت ويتوقع مجيئه في هذا الوقت ؟ أنا أعتقد أنه لا يوجد إنسان إلا يتصور أن يعيش كذا سنة والموت يفاجأ به، لذلك قالوا: من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت.

ش إذا قلت: غداً سأفعل كذا، أنت لا تعرف الموت، حدثني أخ عن عشرين سنة قادمة، عن سفر إلى بلد بعيد لخمس سنوات، ماذا سيفعل في الإجازات الأربعة بين السنوات، قال لي: سنة في فرسنا، وسنة في إيطاليا، وسنة في بريطانيا، وسنة في إسبانيا، أتعرف على هذه البلاد، أرى متاحفها، أرى عاداتها، تقاليدها، أعود إلى الشام أقدم استقالتي، أشتري محلاً تجارياً أجعل فيه تحفاً، لأن التحف ليس لها علاقة بالتموين، أشياء لطيفة ولا تفسد، يكون أولادي قد كبروا وأنا آتي إلى هذا المحل مثل منتدى فكري، هو مدير ثانوية، وأنا أسمع له، حكى عن عشرين سنة، أقسم لكم بالله تجاوز الحديث عشرين سنة، مساءً قرأت نعوته في اليوم نفسه، لا يوجد إنسان منا يقدر أن يقول: أنا سأعيش إلى الغد وأنا عندي قصص كثيرة، أخوة كرام والله ماتوا في ظرف عجيب، إمام كريم أحبه كثيراً وهو إمام جامع صلى الظهر إماماً والعصر كان مدفوناً، من أعد لهذه الساعة ؟ أنا أقول لكم كلمة: الذكاء

هو التكيف، ماذا أعددت لهذه الساعة ؟ ساعة نزول القبر، بيت أربعة وصالون رخام، تزيينات، إطلالة جميلة، زوجة، أولاد، مكتب تجاري، سفر، نزهات، ولائم، حفلات، من هذا كله إلى قبر، لذلك سن الستين نذير، بعد الستين قارب الأجل، وبعد السبعين، بعد الثمانين، لذلك الإنسان حينما يعصي الله في السبعين في الستين يكون أحمقاً.

٥ ـ أو المصائب:

وقالوا: النذير المصائب، إنسان شارد، ساه لاه، أموره ميسرة، دخله كبير، من لقاء إلى لقاء، من اجتماع إلى اجتماع، من ندوة إلى ندوة، من حفلة إلى حفلة، من بلد إلى بلد، سفر، إقامة، مكانة اجتماعية، تأتي مصيبة، المصيبة رسالة، رسالة من الله أن يا عبدي لما لا تذكر الله ؟

من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر:

لذلك قال تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))

(سورة القصص)

سميت المصيبة في هذه الآية رسولاً أي رسالة، فاعلم علم اليقين أن ما من مصيبة تأتي إلا وهي رسالة من الله، حاسب نفسك، هناك مصائب إتلاف مال، معنى هذا أن هناك مالاً حراماً أتلف، هناك مصائب تحجيم إهانة، معنى هذا أن هناك كبراً، هناك مصائب تقتير معنى هذا أن هناك إسرافاً، لا تحابي نفسك، لا تقل هذه مصيبة ترقية، يقولها غيرك عنك، أنت قل هذه مقابل ذنب ارتكبته، مشكلة عندي معنى هذا أن هناك خطأ، أو خلل:

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

صارت المصائب نذيراً، ومن لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر. صار هو المصيبة.

الآن تأتي المصيبة يقول لك: الحياة صعبة، الظروف مريرة، الضغوط شديدة، لا أحد مرتاح، الدهر هكذا يوم لك ويوم عليك، هذا كله كلام كفر، لا يوجد دهر ولا حظ ولا يوم لك ويوم عليك هناك إله يعالج إنساناً:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(٥)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(٦)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى(٧)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى(٨)وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى(٩)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى(١٠))

(سورة الليل)

هناك تيسير و تعسير فقط، لا يوجد حظ، النساء أحياناً تقول لك: هذه البنت مسكينة ليس لها حظ، ما هذا الحظ ؟ من سمح بالحظ ؟ من أعطى الحظ ؟ من منع الحظ ؟ كلام ليس له معنى، يقول لك: الدهر قلب لي ظهر المجن، من هو الدهر ؟ الدهر هو الله، هناك إله فقط بيده كل شيء.

٦ ـ الأعراض الصحية السيئة:

لذلك ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، النذير المصيبة، لفت نظر، شيء آخر الله على كل شيء قدير، الله عز وجل أليس قادراً أن يجعل إنساناً في التاسعة والتسعين كالشاب تماماً ضغطه ثمانية على اثني عشر، أوعية مرنة، دماغ يعمل بنشاط، قلب لا يضعف أبداً، يمكن، كل شيء عند الله ممكن، هو وحده واجب الوجود وما سواه ممكن الوجود، يمكن أن يعيش إنسان مئة سنة كأنه في السابعة عشر من عمره ؟ ممكن، تجد والله انزلاق فقرة لا أنام الليل، الثاني معه شحوم ثلاثية زائدة عن حدها، الثالث معه التهاب مفاصل، الرابع معه ضعف ذاكرة، كل الظواهر السلبية لصحة الإنسان صدق ولا أبالغ رسالة من الله، أن يا عبدي قد اقترب اللقاء، فهل أنت مستعد له ؟ كنت أنا مدير ثانوية ببلدة فيها كهرباء محرك، الساعة الثانية عشرة ينتهي عمل المحرك لا يوجد كهرباء، قبل بخمس دقائق تطفئ الكهرباء خمس ثوان، أي هيئ نفسك بعد خمس دقائق انتهاء الكهرباء، فكل سكان هذه البلدة الساعة الثانية عشر قبل خمس دقائق يهيئ أغراضه حتى ينام، بعد خمس دقائق لا يوجد كهرباء، فكأن إطفاء الكهرباء لعدة ثوان قبل الإطفاء النهائي هذا فيه حكمة بالغة، وكأن الأمراض والتغيرات الصحية التي تصيب الإنسان قبل الموت استعداداً للموت، كأن الله عز وجل يقول لك: أن يا عبدي قد اقترب اللقاء، فهل أنت مستعد له ؟ فالنذير إذاً الأعراض الصحية السلبية.

٧ ـ موت الأقارب:

والنذير موت الأقارب، تعيش معه ليلاً نهاراً فجأة صار ميتاً، فجأة غسلناه ثم إلى القبر، انتهى يلف، وأنا سأمشي على هذا الطريق، موت الأقارب أيضاً نذير، لذلك قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ (٣٧))

(سورة فاطر)

٨ ـ الشيب:

النذير هو القرآن، والنذير هو النبي العدنان، والنذير هو سن الأربعين، والنذير هو سن الستين، والنذير المصائب، والنذير الأعراض الصحية السلبية بعد الخمسين، والنذير موت الأقارب، وبعضهم قال: الشيب هو النذير.

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

إلى متى وأنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقام شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب يطيع

***

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٢٨-٣١) : نصوص تشير إلى أن هنالك من المعاصي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

عدة نصوص كل نصٍ يشير إلى أن هناك من المعاصي ما هو مدمر:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. هذه الفائدة تذكر عدة نصوص ؛ كل نص يشير إلى أن هناك من المعاصي ما هو مدمر، مثلاً:

((دخلت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار ؛ لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض))

[مُتَفَقٌ عَلَيْه عن ابن عمر]

الحديث في البخاري، الإنسان إذا سرق ثلاثة دراهم سرقة موصوفة تقطع يد، إذا تكلم عن امرأة كلاماً ليس واثقاً منه وكأنه خدش عرضها يجلد ثمانين جلدة، لو أنه شرب قطرة خمر يجلد ثمانين جلدة، الزاني المحصن إذا ذمنا يرجم، هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع دقيق جداً عن الصغائر والكبائر.

الصغائر تحجب الإنسان عن الله تعالى و تنقلب مع الإصرار عليها إلى كبائر:

الحديث الأصل في هذا الموضوع أنه:

((لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار))

[رواه ابن المنذر والديلمي عن ابن عباس]

و ليتوضح هذا الحديث وقد يكون مدلوله غريباً صغيرة إن أصررت عليها تغدو كبيرة، أنا أوضح هذه بمثل، طريق عريض يقدر عرضه بستين متراً، عن يمينه وادٍ سحيق، وعن يساره وادٍ سحيق، وأنت راكب مركبة الصغيرة، إن حرفت المقود سنتمتراً واحداً يميناً أو يساراً بعد مسافة معينة إذا ثبت هذا الانحراف المصير إلى الوادي، والكبيرة أن تحرف هذا المقود تسعين درجة، لكن لأن الطريق عريض لو تلافيت الأمر مع أن الانحراف تسعون درجة يمكن أن تصحح، فالكبيرة انحراف المقود تسعين درجة لكن الطريق عريض، والمغفرة واسعة، والتوبة قائمة، يمكن أن تستغفر، والانحراف السنتمتر الواحد لو أصررت عليه، وثبت عليه مع مسافة معينة تغدو في الوادي، لذلك الإنسان يجب أن ينتبه لأن الحديث:

((لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار))

[رواه ابن المنذر والديلمي عن ابن عباس]

أيها الأخوة الكرام، هذا من حيث الناحية النظرية، أما عملياً أنت هل تستطيع أن تجلس جلسة مختلطة، وتمتع عينيك بمحاسن النساء اللواتي لا يحللن لك، ثم تقوم كي تصلي العشاء ؟ طبعاً تتوضأ، وتقف في الصلاة، وتكبر، وتقرأ الفاتحة وسورة، وتركع، وتسجد، هل تستطيع أن تعقد مع الله صلة ؟ الحركات سهلة، الحركات والقراءات سهلة جداً يفعلها أي إنسان، أما إن كان لك صلة مع الله، إن كان لك خبرة مع الله، إن تعودت من الله أن يتجلى على قلبك، أن ينزل عليك السكينة، أن تشعر أنك مع الله، هل تستطيع بعد هذه السهرة المختلطة التي لا تجوز، وبعد أن متعت عينيك بمحاسن النساء اللواتي في هذه السهرة هل تستطيع أن تقوم وتصلي العشاء صلاة فيها صلة بالله عز وجل ؟ لا تقدر أنت محجوب.

حرمان الإنسان من ثمار الإيمان بسبب أخطاء صغيرة متراكمة:

صدق ولا أبالغ والحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، عامة المسلمين، دعك من بعضهم، عامة المسلمين لا يسرقون، ولا يزنون، ولا يشربون الخمر، ولا يقتلون، عامة المسلمون، شارع فيه مئة بيت، لا يوجد بيت فيه زنا، ولا قتل، ولا جريمة، ولا فحشاء، ولا خمر، لكن ما الذي يحجب الناس عن ربهم ؟ هذه التي تتوهمون أنها صغائر، لذلك في بعض الأحاديث:

((إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم))

[الترغيب والترهيب عن سليمان بن عمرو عن أبيه]

نحن من فضل الله في العالم الإسلامي لا يوجد عندنا إله منحوت من حجر نعبده من دون الله، أما بآسيا هناك مئات الآلهة، هناك إله صنم له صفات معينة، يعبدونه من دون الله، في العالم الإسلامي شرك جلي لا يوجد، لكن ما الذي يحجب المسلمين ؟ هذه التي يتوهمون أنها صغائر، هي حينما تصر عليها تغدو كبائر، حينما تصر عليها ينقطع الاتصال مع الله، وأنا أضرب مثلاً آخر بيت فيه مئة جهاز كهربائي، كل جهاز موجود بالسوق موجود بهذا البيت، لكن لا يوجد كهرباء، كل هذه الأجهزة لا قيمة لها، عبء تحجز مكاناً في البيت من دون فائدة، الآن لو جاءت الكهرباء تعمل كلها، الآن قطعت الكهرباء لو قطعتها مقدار ميليمتر واحد، أو مقدار متر النتيجة واحدة، الإنسان يقطع عن الله بكبيرة، ويقطع بصغيرة، أيعقل أن تحرم من كل ثمار الإيمان بسبب صغائر متراكمة؟

((إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

[الترغيب والترهيب عن سليمان بن عمرو عن أبيه]

أي أمر أمرك به أنت قادر على تطبيقه:

الكلام هذا خطير ودقيق وواضح ومعه أدلة، الإنسان ليس من الذكاء، ولا من العقل، ولا من الحكمة، أن يخسر كل ثمار الدين بتصرفات لا تقدم ولا تؤخر، إذا جاء ضيوف من أقربائك، ووضعت النساء في غرفة الجلوس، والرجال في غرفة الضيوف، ماذا يصير ؟ تنهار الدنيا، لا يصير شيئاً، يقول: هكذا ربينا، من أنتم ؟ أنتم مشرعون، هكذا ربينا، هكذا نشأنا، أبي لا يرضى التفرقة، هذا كلام غير صحيح، هذه امرأة أجنبية لا يحل لك أن تجلس معها، وأن تدير حديثاً وهي ليست محجبة، طبعاً أنا قلت: حالة واحدة.

أحياناً هناك مزاح رخيص، هناك تقليد، كل المعاصي فيها غيبة، فيها نميمة، فيها بهتان، فيها تدليس في البيع والشراء، أقسم لكم بالله أنواع الغش التي يمارسها المسلمون والله لا تعد ولا تحصى، أحياناً يضيفون مواد مسرطنة للمواد الغذائية كي يكون سعرها أعلى، أنا فهمت الدين أنك حينما تؤذي مسلماً وأنت تعلم لا قيمة لكل عباداتك، أو لن تقطف ثمارها إطلاقاً، أي تصلي، وتصوم، وتحج، وتزكي، وأنت مسلم، وفي البيت آية الكرسي، وفي المحل إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، وهناك مصحف معلق بالسيارة، خير إن شاء الله ، هذا الكلام قد لا يرضي بعض الناس، يقول لك: من الأفضل أن تأخذ الأمور ببساطة من دون تعقيدات، من دون تدقيق، من دون متابعة، لا يسعنا إلا عفوه، نحن عبيد إحسان لسنا عبيد امتحان، والله يستر، و ضع رأسك بين الرؤوس وقل يا قطاع الرؤوس، ماذا نفعل هكذا الله ابتلانا ؟ هذا كله كلام عند الله مرفوض، أي أمر أمرك به أنت قادر على تطبيقه:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (٢٨٦))

(سورة البقرة)

من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته:

لا تتصور أن هناك أمراً إلهياً يصعب تطبيقه، أنت لو تتبعت دقائق التشريع، عليك ضبط اللسان ضبطاً كاملاً، لأن هذه غيبة، اسكت، مرة تعين وزير ـ توفي رحمه الله ـ دخل وفد ومثل الوزير السابق بكلام لا يليق، فقال له: اسكت الوزير السابق أفضل مني، بقي في الوزارة ثمان سنوات لم يجرؤ إنسان أن يتكلم أمامه كلمة سيئة، يمكن أن تلغي الغيبة، يا جماعة هذه غيبة هذا لا يجوز، هذا مؤمن، دقق في هذا الكلام: فمن عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته.

أخ مؤمن صائم مصلٍّ لا نعهد عليه معصية، لماذا تغتابه ؟ متأكد ؟ لا لست متأكداً، لماذا ؟ لذلك قالوا: قذف محصنة يهدم عمل مئة سنة. وأنا والله متأكد إذا كان ذكر اسم امرأة بمجلس وقال إنسان: لا نعرف، ما تكلم ولا كلمة، طعن بها، ويستأهل أي عقاب.

السيدة عائشة وصفت السيدة صفية ـ رضوان الله عليهما ـ بأنها قصيرة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((يا عائِشَةَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ البَحْرِ لَمَزَجَتْه))

[رواه أبو داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها]

أنا أذكر لي قريبة طالبة في الابتدائي قالت لها المعلمة: أنت غبية، هي ليست غبية، تصور هذه المعلمة تقول هذه الكلمة أمام كل الطالبات، بقيت عشرين سنة معقدة، أنت قلت كلمة لكن حطمتِها. كنا مرة في الجامعة، هناك أستاذ كبير وعالم جليل باللغة، يبدو أن هناك طالبة قصرت، أو أجابت إجابة خطأ، فعنفها، هي الطالبة قالت يا أستاذ أليس النبي قال: رفقاً بالقوارير، وهي صحتها جيدة، قال: لا لم يقل رفقاً بالبراميل، حطمها.

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

يدخل إلى بيت كيف يسعك هذا البيت ؟ هو ساكن بهذا البيت، ومطمئن، ويحب زوجته، يقول: هذا البيت لا يسكن، تفضل قدم له بيتاً ثانياً، إنسان دخله محدود، أكرمه الله ببيت صغير، كيف يسعك هذا البيت ؟ تفضل قدم له بيتاً مقابله، تجد كلمات فيها استعلاء، فيها كبر، فيها تجريح، فيها نقد، ونصلي في الجامع، طول بالك:

قال عليه الصلاة والسلام:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم لسانه:

أحياناً كلمة مؤانسة ترقى بها على أعلى عليين، مثلاً زوج شكا لأخي زوجته زوجته ـ أي أخته ـ قال له: طلقها أريح لك، هو لا يريد أن يطلقها شكا لك، قل له: على عيني أنا آتي وأنظر في القصة، لا، طلقها، تجد عدم مبالاة، استعلاء، سخرية، تجهم، تجني، ليس متأكداً، حينما تؤمن أن كلامك من عملك تنضبط.

((لَا يَسْتَقِيمُ إيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

أنا لا أتصور مؤمناً موصولاً بالله عز وجل، حال واحد في ألف ـ إنسان موصول يؤثر بألف ـ أفضل من قول ألف في واحد، ألف متكلم فصيح، معه أدلة، معه نصوص، معه تحليلات رائعة، لكن ليس موصولاً بالله لا يؤثر.

حال واحد في ألف أبلغ من قول ألف في واحد. مؤمن يضبط لسانه، هذه غيبة، قال: من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته.

ما يسقط العدالة وما يجرحها:

الآن هذه العدالة تسقط إذا عاملتهم فظلمتهم، أو حدثتهم فكذبتهم، أو وعدتهم فأخلفتهم، لكن العلماء عدوا من فوق الثلاثين حالة لا تسقط العدالة لكنها تجرحها، هناك إبريق بلور تأتي بمطرقة تكسره، تكسير هذا الإبريق سقوط العدالة، أما أحياناً يصيبه شعر، جرح هذا الإبريق، صار مجروحاً، الأكل في الطريق يجرح العدالة، من مشى حافياً في الطريق يجرح العدالة، من بال في الطريق يجرح العدالة، التنزه في الطرقات لأن فيها غاديات ورائحات ومتبرجات تجرح العدالة، أكل لقمة من حرام تجرح العدالة، صحبة الأراذل تجرح العدالة، إنسان سفيه مزحه جنسي، تعليقاته خبيثة جداً، كيف تمشي معه ؟ تطفيف بتمرة، تبيع مادة غالية جداً، هناك مواد غذائية الكيلو بمئات الليرات، هناك مروحة موجهة على الكفة الثانية الزبون لا ينتبه، هذه المروحة الموجهة على الكفة الثانية تضغط على الكفة، أو يعمل له عبوة من ورق رخيص جداً وسميك ويبيعه هيل، معنى هذا الورق قبضت ثمنه بقدر الهيلات، تطفيف بتمرة جرح العدالة، إذا وزنتم فأرجحوا، أكل لقمة من حرام، صحبة الأراذل، من علا صياحه في البيت، تجد بيوتاً يكثر فيها السباب والشتائم، وخبط الأبواب وتكسير البلور، تجد بيتاً هادئاً ليس فيه كلمة خطأ، فيه انسجام، من كان حديثه عن النساء، هذه طويلة وهذه قصيرة وهذه فاتحة وهذه غامقة، ما هذا الكلام ؟ هذا يجرح العدالة.

ذكرت لكم قبل قليل ما يسقطها والآن ما يجرحها.

الصغائر تحجب الإنسان عن الله عز وجل كالكبائر تماماً:

أنا بهذا اللقاء الطيب أتمنى أن نعلم أن الكبائر مفروغ منها، أي: تسعون بالمئة من المسلمين ليس عندهم كبائر، وهناك تسعة و تسعون بالمئة من المسلمين غارقون بالصغائر ومحجوبون بها، فالأشياء التي لا تقدم ولا تؤخر تحجب عن الله، عندما يكون الإنسان صادقاً دائماً، ولا يمزح مزحاً رخيصاً، ولا مزحاً جنسياً، عندما لا يغتاب و لا ينم، سمعت ما حكى عنك فلان، كم أنت ساذج ؟

أنت ارتكبت كبيرة، النمام لا يدخل الجنة، تجد حياة المسلمين فيها خصومات، الأسرة الواحدة فيها عداوات، تجد في البيوت كلمات قاسية، هناك عداوة، هناك بغضاء، يصلون لكنهم محجوبون عن الله عز وجل.

ابتعاد الإنسان عن المخالفات التي تحجبه عن الله تعالى:

أريد أن أقول لكم فكرة خطيرة أنت تصلي لكن لأن لك مخالفات محجوب عن الله عز وجل ، لا يوجد صلة، أما تؤدي الصلوات الخمس تماماً، هذه فرض لا بدّ من أن تؤدى، لكن بين أنت تصلي و تشعر أن الله معك، وأحياناً تدمع عينك، وبين ألا تحس بشيء، فكل صغيرة غيبة، نميمة، إطلاق البصر، تابع مسلسلاً وقم صلي العشاء بعد ذلك أستحلفك بالله هل تقدر أن تصلي ؟ مشاهد ماجنة، مواقف جنسية فاضحة، بعد أن انتهى المسلسل تفضل صلِّ، تفضل ابكِ بالصلاة، لا تقدر، أنا أخاطب طلاب العلم، رواد المساجد، لا أخاطب عامة الناس، عامة الناس هذا الكلام لا يقبلونه إطلاقاً، أخاطب طالب علم يريد إرضاء الله عز وجل، يجب أن تضبط لسانك، تضبط عينك، لا يوجد إطلاق بصر، تضبط أذنك، لا يوجد غناء، لا يوجد كذب إطلاقاً، لا يوجد غيبة، لا يوجد نميمة، هذه أشياء منتشرة بين المسلمين، تجد سهرة للساعة الثانية ليلاً كلها غيبة، الجماعة مرتاحون، أين تمشون ؟ أنت متأكد من كلامك ؟ تأكد ثم تكلم.

إنسان أراد أن يتزوج من هذا البيت، قل له: عندهم أخطاء كثيرة، لكن لا أحد يسألك، إذا لم تسأل لا تتكلم، هناك شراكة، زواج، يجب أن تقول، أما لا يوجد سبب، ينهشون أعراض بعضهم بعضاً، يصلون لكن الصلاة صعبة الله عز وجل:

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥))

(سورة البقرة)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٢٩-٣١) : قاعدة اللذة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٩-٠٩-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

قاعدة اللذة:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى. يقول في هذه الفائدة قاعدة اللذة، من حيث هي مطلوبة للإنسان بل ولكل حي، هي مطلوبة للإنسان بل ولكل حي فلا تذم من جهة كونها لذة، الله عز وجل جعلها لذة، جعل في الطعام لذة، في الشراب لذة، في النوم لذة، في إلقاء نظرة على منظر جميل لذة، في شم وردة لذة، الله عز وجل جميل، ومنح ومضة من جماله لبعض المخلوقات، هناك جمال في الطعام، جمال بالشكل، جمال في اللون، جمال في التصرف.

اللذة موجودة والله جعلها لذة.

إذاً النقطة الدقيقة لا تذم اللذة من جهة كونها لذة، وإنما تذم ويكون تركها خيراً من نيلها، وأنفع، إذا تضمنت فوات لذة أعظم منها.

تصور طالباً غداً الساعة الثامنة صباحاً امتحان الرياضيات في الشهادة الثانوية، ويبنى على هذا الامتحان مستقبله، قد يكون طبيباً، قد يكون صيدلياً، قد يكون بفرع لا يرضيه، فأراد أن يأكل طعاماً من طرف المدينة الآخر، فركب سيارة أولى وثانية، وانتظر بالدور ساعة وأكل ورجع، ضيع ثلاث ساعات، هو ماذا فعل ؟ أكل طعاماً طيباً والله عز وجل جعله طيباً، لكن هل يعقل أن تستهلك ثلاث ساعات من أجل بعض اللقيمات اللذيذة، وأن تهمل المادة الأساسية في الشهادة الثانوية، وأن تأخذ مجموعاً قليلاً، وأن يكون لك فرع لا تحبه ؟ هنا المشكلة، لا يوجد خطأ إن أكلت طعاماً أما إذا ضيعت عليك مستقبلك من أجل هذا الطعام تكون في حمق كبير جداً، أنا أتيت بمثل صارخ طبعاً. لذلك اللذة لا تذم من جهة كونها لذة، اللذة لذة، وإنما تذم ويكون تركها خيراً من نيلها وأنفع إذا تضمنت فوات لذة أعظم.

هذا الطالب ـ طبعاً أضرب أمثلة من حياتنا الاجتماعية واليومية ـ الذي في العام الدراسي الحاسم ألغى كل علاقاته مع أصدقائه، ألغى كل الزيارات، والنزهات، والسهرات، وعكف على الكتاب فاته لذائذ كثيرة، لكن ما من لذة أعظم من أن يتفوق في دراسته، ويدخل الفرع في الجامعة الذي يتمناه،

ويكون ذا منصب مرموق، أو شهادة عليا، أو مهنة راقية، فحصّل لذائذ بالملايين، وفاتته بعض اللذائذ الآنية.

اللذة إما أن تفوت على الإنسان لذة أكبر أو أن يعقبها عقاباً أليماً:

إذاً نحن نذم اللذة لا لأنها لذة، نذم اللذة أحياناً لأنها تفوت علينا لذات أكبر.
شيء آخر لو أن هذه اللذة بالحرام بخلاف منهج الله، هذه اللذة تعقب ألماً حصوله أعظم من ألم فواته، الألم الذي يأتي مع العقاب أضعاف مضاعفة عن اللذة التي فاتتك منه، فهنا يظهر الفرق بين العاقل الفطن والأحمق الجاهل.
القضية بشكل مختصر ؛ في الدنيا لذائذ، وفي الآخرة حياة أبدية فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإذا حصلت لذة في الدنيا أبعدتك عن لذائذ الآخرة فأنت خاسر، وأنت مغبون، وأنت لست عاقلاً، فكيف إذا كانت هذه اللذة سبب شقاء أبدي ؟
نحن نقول: اللذة إما أن تفوت عليك لذة أكبر أو أن يعقبها عقاباً أليماً، إذاً اللذة مباحة تفوت عليك لذة أكبر، لذلك دائماً وأبداً الشيطان كما أقول لكم كثيراً يغري من يوسوس له بالكفر، فإن رآه على إيمان أغراه بالشرك، إن رآه على توحيد أغراه بالكبيرة، إن رآه على طاعة أغراه بالصغيرة، إن رآه على ورع أغراه بالمباحات، لا يوجد معاص أبداً لكن يمضي وقته كله في تزيين دنياه، فيأتي الموت ينهي كل هذه الدنيا.
هناك حالة اسمها المباحات من وساوس الشيطان، المباح يصرفك عن عمل صالح، هو في حدّ ذاته ليس حراماً لكنه صرفك عن عمل صالح ترقى به عند الله، أما إذا كانت هذه اللذة في محرم، هذا المحرم سوف يعقبه عقاباً أليماً، فكل إنسان يقتنص لذة آنية ويضيع سعادة كبرى يكون أحمقاً، وكل إنسان يُحصّل لذة آنية يعقبها شقاء أبدي يكون من أحمق الحمقى، فمتى ظهر الفرق بين اللذتين والألمين وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر هان عليه ترك الأدنى لتحصيل الأعلى.

اللذة والسعادة:

القضية كلها معادلة ؛ هناك لذائذ آنية ينكب عليها الجهلاء، ينكب عليها أهل الانحراف، ينكب عليها الكفار، ويستمتعون بها أشد الاستمتاع، والله عز وجل جعلها لذة لا ضير في ذلك لكن هذه اللذة فوتت سعادة أبدية، لذلك العلماء فرقوا بين اللذة والسعادة، اللذة أولاً حسية، طابعها حسي، أي اللذة طعام تأكله، اللذة منظر تستمتع به، اللذة بيت تسكنه، مركبة تركبها، ثياب تلبسها، السعادة شيء ينبع من القلب، اللذة تأخذها من خارج ذاتك، اللذة تحتاج إلى مال، لا يكفي مال بل وفير، اللذة تحتاج إلى وقت كي تستمتع بها، اللذة تحتاج إلى صحة، وسبحان الله دائماً وأبداً الإنسان يفتقد أحد

هذه الشروط في كل مرحلة من حياته، في البدايات الصحة طيبة والوقت مديد لكن لا يوجد مال، في منتصف الحياة صار هناك مال و صحة لكن لا يوجد وقت.

أقسم لي صاحب معمل قال لي: من خمس وعشرين سنة أفتح المعمل الساعة الخامسة وأغادره آخر عامل، اشترى بيتاً بمئة وستين مليون، لكن ليس عنده وقت يستمتع بالمال إطلاقاً، عندما يكبر يسلم أولاده، إذاً صار عنده مال و وقت لكن لا يوجد صحة، هذه الطعام ممنوع، وهذا يضر القلب، وهذه تعمل حموضة زيادة، وهذه أسيد أوريك، تجد معه علبة أدوية وقائمة ممنوعات، ومعه أموال طائلة، ومعه وقت فارغ، هذه اللذائذ دائماً تحتاج إلى العنصر الثالث يوجد صحة ووقت ولا يوجد مال، يوجد مال وصحة لا يوجد وقت، يوجد مال ووقت لا يوجد صحة، هذه اللذائذ، أما السعادة شيء ينبع من الداخل، أقسم لكم بالله قد تكون أسعد الناس، آتي بمثال من عندي إبراهيم عليه السلام وهو في النار:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

قد تجد السعادة الكبرى وأنت في النار إذا كان الله معك:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

أهل الكهف:

(يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا (١٦))

(سورة الكهف)

في الكهف، في غار ثور:

((يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدَمَيه أبْصَرَنَا تحت قدميه. فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

هذه السعادة معك في البيت، لا سمح الله ولا قدر معك بالمنفردة، تقول لي: أنا أسعد الناس، معك بالمرض، معك بالسفر، معك بالفقر، هذه السعادة أي السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء.

شرّ الناس من خافه الناس مخافة شره لأن المؤمن مصدر أمن و طمأنينة للناس:

فلذلك أيها الأخوة، القصة واضحة جداً، هناك لذائذ مسموح بها لا تتعارض مع السير إلى الله هذه لك أن تأخذ بها، أكلت طعاماً جيداً، ارتديت ثوباً نظيفاً، تزوجت امرأة صالحة تسرك إذا نظرت إليها، تحفظك إذا غبت عنها، تطيعك إن أمرتها، هناك لذائذ مباحة ومسموحة ولا تتعارض مع

الآخرة، هذه موضوع آخر، لكن هناك أيضاً لذائذ تعطل عليك سعادة كبرى تركها أولى من نيلها، لأنها تفوت عليك الآخرة، هذه أيضاً لذائذ، أما هناك لذائذ كالزنا مثلاً، شرب الخمر، أكل مال اليتيم، اغتصاب الأموال، انتهاك الأعراض، ظلم البشر، هذه لذائذ طبعاً القوي يشعر بنشوة، إذا كان هناك إنسان يؤذي الناس تخاف منه، هو يترنم و الناس كلها تخاف منه، لكن من حمقه يظن أن الخوف منه مكسب، شرّ الناس من خافه الناس مخافة شره، المؤمن مصدر أمن للناس، يلقي الأمن في قلوبهم، يلقي الطمأنينة، يلقي الرضا، يلقي المحبة، الإنسان يكون أحياناً جاهلاً أو أعمى، جاهل لم يحصّل العلم، أو أعمى لم يتصل بالله عز وجل، فيؤثر لذائذ آنية سريعاً ما تنقضي على عطاء أبدي، لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً ".

حدثني إنسان قال لي: أنا سافرت إلى بلد، وأخطأت، وارتكب الفاحشة، فأصبت بمرض جنسي، قال لي: أنا أكاد أموت من الألم مخافة أن تعلم زوجتي بذلك، كل مكانته عند زوجته وعند أولاده مبنية على أنه وفي للزوجة، فإذا اكتشف أن معه مرضاً سببه المعصية والفاحشة سرعان ما تتخلى عنه.

إنسان آخر سافر مع والدته للعلاج، وفي أحد الليالي ارتكب الفاحشة ثم اضطرت أمه إلى دم فأعطاها من دمه، دمه من خلال هذه العلاقة الشائنة مع هذه الفتاة فيه مرض الإيدز فنقل هذا المرض لأمه، أنا اقرأ له كلمة يكاد يموت من الألم أمه التي كانت سبب وجوده سبب لها مرضاً لأنه فسق.

ورد في بعض الآثار: " إن العار ليلزم المرء يوم القيامة حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى ".

محصلة الاستقامة على أمر الله عز وجل طمأنينة وسعادة ورضا:

أيها الأخوة الكرام، أنتم إن شاء الله تتمتعون بحالة سكينة رائعة جداً، سببها أنه لا يوجد معصية، مالك حلال، سلوكك مستقيم، تؤدي الصلوات، لك صلة بالله عز جل، لا تكذب، لا تعتدي على أحد، لا تحتال، لا ترائي، محصلة الاستقامة طمأنينة، سعادة، رضا، القصة كلها أنك أنت فيك جانب جمالي، أساساً العبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

فالله عز وجل خلقك من أجل الجمال، خلقك من أجل أن يسعدك:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية: ١١٩)

خلقهم ليرحمهم، لكن خلقهم لسعادة أبدية، أنا أقول لكم دائماً: لا يعقل أن يكون عطاء الكريم خالق السماوات والأرض ينتهي عند الموت هذا ليس عطاء، لا يليق بكرم الله إلا أن يكون عطاؤه أبدياً، لذلك:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

الله عز وجل أعطى الملك لمن لا يحب، أعطاه لفرعون، وأعطاه لمن يحب، لسيدنا سليمان، ما دام الشيء يعطى لمن يحب ولمن لا يحب لا قيمة له، أو لا علاقة له بمكانة الإنسان عند الله، أعطى القوة لمن لا يحب أعطاها لفرعون، أعطى القوة لمن يحب لسيدنا سليمان، أعطى المال لأصحاب رسول الله كعبد الرحمن بن عوف، كسيدنا عثمان، كسيدنا الصديق، أعطى المال لقارون:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ]

العقل والذكاء والتفوق والفلاح والنجاح أن تؤثر ما يبقى على ما يفنى:

لذلك أيها الأخوة، القصة الآن أنت حينما تحب ذاتك، حينما تؤثر مصلحتك ينبغي أن تضحي بلذة آنية عابرة ليس لها أثر مستقبلي، لو دعي إنسان إلى خمسين وليمة بالعدد وفي أحد الليالي تألم من أسنانه ألماً لا يحتمل اختل توازنه، لو تذكر هذه الولائم هل ينتهي الألم ؟

عندنا شيء أثره آني، وهناك شيء أثره مستقبلي، أنت قرأت كتاباً له أثر مستقبلي، تعلمت، كنت بجلسة طرح موضوع معك جواب، أما لو استمتعت بحوض المنزل بماء دافئ ساعة، ماذا بعد ذلك؟ إذا أكلت أكلاً طيباً و بعدها ؟ هناك أشياء ليس لها أثر مستقبلي، الدراسة لها أثر مستقبلي، العبادة لها أثر مستقبلي، القرآن الكريم له أثر مستقبلي، التفكر في خلق السماوات والأرض له أثر مستقبلي، أما تناول الطعام ليس له أثر مستقبلي، الاستماع بالحياة ليس له أثر مستقبلي، فلذلك الإنسان حينما يغفل عن ساعة الحساب في هذه الساعة قال تعالى:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠))

(سورة المدثر)

مثل بسيط: إنسان بيته في المهاجرين، والمركبة العامة تقف في المرجة، الموقف الأساسي لها باتجاه الشرق، في أيام الصيف الحارة تصعد إلى المركبة القسم اليمين شمس لا تحتمل، والقسم اليسار ظل ظليل، يصعد إنسان لا يفكر فيجلس في الظل، يصعد إنسان يفكر فيجلس في الشمس، لأن هذه المركبة عندما تتحرك لدقيقة واحدة ستدور دورة حول المرجة ستنعكس الآية، فالإنسان إذا فكر أن يجلس في الشمس الذي جلس في الظل يتهمه بالحمق، وإذا لم يفكر فجلس في الظل لكن

بعد دقيقة يتحمل أشعة الشمس طول الطريق، القصة كلها هكذا، الدنيا والآخرة لذائذ آنية ممتعة محببة، الله عز وجل أودع فيها جمالاً، وهناك لذائذ كبرى، فكل إنسان يضحي بلذة عظمى، بسعادة كبرى مستمرة أبدية من أجل لذة آنية طارئة يكون أحمقاً، فلذلك العقل، والذكاء، والتفوق، والفلاح، والنجاح، أن تؤثر ما يبقى على ما يفنى.

الدنيا سنوات معدودة فالعاقل من آثر آخرته على دنياه:

ملخص الملخص، خيروك بين سيارة تركبها ربع ساعة، وبين دراجة ملك تملكها دائماً، ماذا تختار؟ الدراجة، هذا أول خيار، خيروك بين سيارتين سيارة تركبها ربع ساعة وسيارة ملك، ماذا تختار ؟ هل من الممكن أن تختار الأولى ؟ مستحيل، الخيار الثالث بين دراجة تركبها ربع ساعة وسيارة تتملكها دائماً هل تختار الدراجة ؟ تحتاج إلى مشفى الأمراض العقلية، والله هذه الدنيا هكذا سنوات معدودة فيها لذائذ، انكب على هذه اللذائذ ونسي الآخرة، يأتيه ملك الموت كل شيء حصّله في الدنيا ينتهي في القبر، يأتي المؤمن هو شاب صلى، أطاع الله، عمل الأعمال الصالحة، أنفق من ماله، ارتقت معرفته، أكرمه الله بأعمال صالحة كبيرة، يأتي الموت، له جنة عرضها السماوات والأرض، اللهم اجعلنا من هؤلاء الفالحين الناجحين.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٣٠هـ - الفوائد - الدرس (٣٠-٣١) : الابتلاء -١

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٠١-١١-٢٠٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

كل إنسان أمام زمرتين من الابتلاءات ؛ ابتلاءات إيجابية وابتلاءات سلبية:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى.

هذه الفائدة متعلقة بآية كريمة هي أصل في الابتلاء قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣))

(سورة العنكبوت)

أول حقيقة من خلال هذه الآية أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الأصل في الدنيا الابتلاء، أنت ممتحن، أنت ممتحن فيما آتاك الله، ممتحن فيما زوى عنك، أنت أمام زمرتين من موضوعات الابتلاء، أمام زمرتين، الزمرة الأولى التي آتاك الله إياها، آتاك صحة، أنت ممتحن بالصحة، آتاك مالاً، آتاك سلامة في أجهزتك، آتاك مأوىً، أتاك زوجة، آتاك أولاداً، أنت ممتحن فيما آتاك الله، وممتحن أيضاً فيما زوى عنك، فأنت أمام زمرتين من الابتلاءات، ابتلاءات إيجابية وابتلاءات سلبية، الذي نلته من الله أنت ممتحن به، والذي لم تنله أنت ممتحن به أيضاً.

توزيع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء و في الآخرة توزيع جزاء:

لكن هذا يقودنا إلى موضوع دقيق هو أن في الحياة حظوظاً، المال حظ، العلم حظ، الصحة حظ، القوة حظ، الوسامة حظ، الذكاء حظ، طلاقة اللسان حظ، يسميها علماء النفس القدرات الخاصة، بالإنسان قدرات عامة وقدرات خاصة، الذي يتمتع بذاكرة قوية جداً، الذاكرة القوية حظ، الذي يتمتع بقوة إقناع هذه قدرة بالإنسان، هذا حظ، الحقيقة الأولى أن الله وزع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسيوزع هذه الحظوظ بالآخرة توزيع جزاء، فالحظوظ هي القدرات، الله عز وجل وزع الحظوظ في الدنيا، هناك إنسان قوي بجرة قلم يحق حقاً ويبطل باطلاً، إنسان ضعيف لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فالقوة حظ والضعف سلب لهذا الحظ، أنت ممتحن إذا كنت قوياً وإذا كنت ضعيفاً، والغنى حظ، والضعف حظ، الغنى حظ إيجابي وانعدام هذا الحظ سلبي، أنت ممتحن إذا كنت غنياً، ممتحن إذا كنت فقيراً، الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء لقوله تعالى :

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

لكن هذه الحظوظ سوف توزع في الآخرة توزيع جزاء:

(و لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ)

(سورة الأنعام الآية: ١٣٢)

البطولة من يحتل في الآخرة مقعد صدق عند مليك مقتدر:

أيها الأخوة الكرام، الحظوظ في الدنيا مؤقتة والحظوظ في الآخرة أبدية، الحظوظ في الدنيا قد لا تعني شيئاً ، والحظوظ في الآخرة قد تعني كل شيء، فلذلك البطولة من يحتل في الآخرة كما قال الله عز وجل:

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

(سورة القمر)

البطولة أن يكون لك حظ في الآخرة، أما أهل الدنيا مالهم في الآخرة من خلاق، فلذلك الله عز وجل حينما يرسل أنبياءه ورسله إلى البشر الذي آمن آمن والذي كفر كفر، الذي آمن هناك إيمان شكلي، هناك إيمان ظاهري، هناك إيمان حقيقي، فالذي آمن مع أنه آمن إنه مبتلى، ممتحن، هل هذا الإيمان حقيقي أم هذا الإيمان شكلي ؟ فإذا كان هذا الإيمان شكلي قد يأتيه تأديب من الله عز وجل، وإن لم يؤمن قد يأتيه تأديب من الله عز وجل، لا لأنه لم يؤمن بل لأن عدم إيمانه سيقوده إلى عذاب الله وبئس المصير، فلذلك الآية:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

الفتنة هي الامتحان فالإنسان يمتحن:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣))

(سورة العنكبوت)

المؤمن الصادق راسخ كالجبل و ثابت على الحق في إقبال الدنيا وفي إدبارها:

قال تعالى:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(٢٣))

(سورة الأحزاب)

ثابت، راسخ كالجبل، كالسفينة العملاقة، لا تتأثر بالأمواج، موقف مبدئي، ثابت على الحق في الرخاء وفي الشدة، في إقبال الدنيا وفي إدبارها، في الصحة وفي المرض، في القوة وفي الضعف، في الغنى وفي الفقر:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(٢٣))

(سورة الأحزاب)

من كان في قلبه مرض يمتحن فلا ينجح:

لكن وأما الذين في قلوبهم مرض ماذا قالوا ؟

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

(سورة الأحزاب)

إن أحدهم قال: أيعدنا صاحبكم أن تُفتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟ ما قال أيعدنا رسول الله، أيعدنا صاحبكم أن تُفتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ هذا الذي امتحن فلم ينجح.

أيها الأخوة، آية أخرى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤))

(سورة البقرة الآية: ٢١٤)

الآية الثانية دقيقة جداً:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

المسلمون اليوم في امتحان صعب جداً:

هناك آية ثانية:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١))

(سورة الأحزاب)

ونحن أيها الأخوة في هذه الأيام في امتحان صعب جداً، أحد هذه الامتحانات الصعبة أن الله يقوي الطرف الآخر يقويه يقويه، أسلحة فتاكة، أقمار صناعية، أموال فلكية، إعلام بيده، التحالفات كلها

طوع بنانه، يقوي الطرف الآخر حتى يفعل ما يقول، إلى أن يقول ضعيف الإيمان أين الله ؟ ترون يحتلون البلد، ينهبون الثروات، يهدمون البيوت، يقتلون الشباب، ويتصدرون الشاشات ويتبجحون أنهم أتوا من أجل حريتنا، ومن أجل الديمقراطية، وهم مجرمون، إرهابيون، كذابون، أتوا من أجل النفط، في بلد في أفريقيا جرت فيه حرب أهليه ـ راوندا ـ أعتقد في سبعة أيام تمّ ذبح ثمانمئة ألف إنسان، أنا استمعت إلى تصريح لزعيم غربي كبير قال: لقد تمّ قتل ثمانمئة ألف إنسان، وكان بإمكاني أن أتدخل، وإذا تدخلت حقنت دماء أربعمئة ألف لكنني لم أتدخل، السبب في هذا البلد ليس هناك نفط، أما في بلاد أخرى على وهم الأسلحة الشاملة، ثلاثون حليفاً، جاء واحتل البلد، ونهب النفط، ونهب الثروات، ودمر كل شيء، فلذلك هذا الامتحان صعب جداً:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ(١٠)هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(١١)وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(١٢))

(سورة الأحزاب)

على كل مسلم معاهدة رسول الله على السمع والطاعة في المنشط والمكره:

ثم يقول الله عز وجل:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣))

(سورة الأحزاب)

لذلك عاهدنا رسول الله على السمع والطاعة في المنشط والمكره، أي في إقبال الدنيا وفي إدبارها، في الفقر والغنى، في الصحة والمرض، في القوة وفي الضعف، هذا قرار بالتعبير المعاصر استراتيجي، أنت تعامل خالق السماوات والأرض، اتخذت قراراً بالإقبال عليه، والإيمان به، والدعوة إليه، وأنت صابر على كل ظرف صعب، وأنت تتطلع إلى كل هدف كبير، هذا هو الابتلاء، فالآية الثانية:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤))

(سورة البقرة الآية:٢١٤)

ونحن في هذا الامتحان الصعب، الطرف الآخر قوي جداً، وغني جداً، وذكي جداً، بيده أسلحة فتاكة، بيده الإعلام، بيده الأموال، بيده الأقمار، فالبطولة أن تبقى مؤمناً أعلى إيمان، أن تبقى واثقاً من الواحد الديان، أن تبقى واثقاً أن الله لن يتخلى عن عباده المؤمنين:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

الامتحان الصعب أن يقوي الله الطرف الآخر فيبطش والامتحان الثاني أن يظهر الله آياته:

ومن الآيات التي تبشر:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨))

(سورة آل عمران)

الله عز وجل يطمئن، لكن الامتحان ليس سهلاً، الامتحان الصعب أن يقوي الله عز وجل الطرف الآخر فيبطش، ويحتل، ويجتاح البلاد، ويدمر، ويتهدد، ويتوعد، والامتحان الثاني أن يظهر الله آياته حتى يقول الكافر: لا إله إلا الله، أي حينما انهار النظام المالي الغربي أكثر من خمسة وعشرين ترليون قد فقد العالم من ثرواته بانهيار النظام المالي الغربي، صار هناك جرعة منعشة، الله عز وجل على كل شيء قدير، ولما الله عز وجل أيد فئة قليلة في غزة فانتصرت على أقوى جيش في المنطقة، أيضاً هذه جرعة منعشة كأن الله عز وجل يقول لنا أنا موجود، لا تخافوا:

(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

طريق الجنة طريق محفوف بالمكاره:

ومن الآيات المتعلقة بالفتنة قوله تعالى:

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النحل)

هناك فتنة، و مجاهدة، و صبر، أولاً اعتقد يقيناً أن طريق الجنة ليس محفوفاً بالورود، طريق الجنة محفوف بالمكاره لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ألا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ألا إِنَّ عَمَلَ النَّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

الإنسان إذا استرخى، وأكل ما يشتهي، وأطلق بصره في الحرام، ولم يعبأ لا بحرام ولا بحلال، ولم يعبأ لا بخير ولا بشر، وعاش وفق شهواته:

((ألا إنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ألا إنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية:

أيها الأخوة الكرام، شيء آخر لحكمة أراد الله إيقاعها أن الله عز وجل سمح أن يكون حتى لأنبيائه أعداء، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(١١٢)وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ(١١٣))

(سورة الأنعام)

أحياناً الله يسمح أن يكون للنبي أعداء، وللدعاة الصادقين أعداء، لأن الله عز وجل كما تعلمون هو واجب الوجود، لكن ما سواه ممكن الوجود، ومعنى ممكن الوجود أي ممكن أن يكون وممكن ألا يكون، وممكن إذا كان أن يكون على ما هو كائن، أو أن يكون على خلاف ما يكون، فلذلك انطلاقاً من القاعدة الثانية أن ما سوى الله ممكن الوجود، الله عز وجل قادر أن يجعل الطرف الآخر في كوكب آخر، على الأرض مؤمنون و على المريخ كفار، أو قادر أن يجعل الكفار في قارة بعيدة، أو أن يجعلهم في حقبة معين، لكن شاءت حكمة الله أن يكون المؤمنون مع الكافرين في كل مكان وفي كل زمان، يبنى على هذه الحقيقة أن معركة الحق والباطل معركة أزلية أبدية، كل مؤمن صادق يوطن نفسه على أنه لا بد من أن يواجه خصوماً، لذلك اعتقدوا يقيناً أن معركة الحق والباطل في كل بقاع الأرض معركة أزلية أبدية مستمرة، لكن الله مع المؤمنين، ويسمح للكافرين أن يهددوا المؤمنين، يسمح لهم أحياناً أن يكونوا أقوياء لكن لا يمكن، ولا يعقل، ولا يقبل أن يسمح الله لقوي في الأرض من آدم إلى يوم القيامة أن يكون قوياً، إلا وأن يوظف قوته لخدمة دينه والمؤمنين، وأقوى دليل على ذلك الآية الكريمة:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦))

(سورة القصص)

تنوع الامتحانات في الدنيا:

أيها الأخوة الكرام، قيل للشافعي: يا إمام، أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى.

وطن نفسك أنه لا بدّ من امتحان صعب في الدنيا، والامتحانات متنوعة، ونعود إلى أول آية في هذا اللقاء قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ(٢)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣))

(سورة العنكبوت)

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

التأديب و الابتلاء و التكريم:

أيها الأخوة الكرام، مع فائدة جديدة من فوائد كتاب الفوائد القيّم لابن القيم رحمه الله تعالى.

هذه الفائدة تتعلق بالابتلاء أيضاً، فالحقيقة الأولى التي ينبغي أن تكون واضحة أن المؤمن يمر بمراحل ثلاث، هذه المراحل قد تكون متداخلة، وقد تكون متمايزة، هناك مرحلة لا بدّ منها مرحلة التأديب، أن المؤمن إذا قصر في أداء واجباته، أو تجاوز الحدود، أو وقع في مخالفة حينما لا يكون كما ينبغي، قصر في أداء واجباته، أو تجاوز حدود الله عز وجل، أو أهمل ما ينبغي ألا يهمله، فالمؤمن يعالجه الله بالتأديب قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

هذه حالة، والحالة الثانية أن المؤمن لو استقام على أمر الله، لو اصطلح مع الله، لا بدّ من أن يمر في مرحلة الابتلاء ـ الامتحان ـ كما عندما سئل الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى.

والمرحلة الثالثة مرحلة التكريم، فأنت بين التأديب وبين الابتلاء وبين التكريم.

اجتماع تعظيم الله و الخوف منه و المحبة له في قلب المؤمن:

هذه المراحل الثلاث تتداخل أو تتمايز، يمكن في اليوم الواحد أن تؤدب صباحاً، وأن تبتلى ظهراً، وأن تكرم مساءً، نقول: هذه المراحل متداخلة، وأحياناً تكون هذه المراحل متمايزة، في حقبة من عمرك هناك التأديب، وفي حقبة أخرى الابتلاء، وفي حقبة ثالثة التكريم، إذاً وطن نفسك أنك بين التأديب والابتلاء والتكريم، في بعض الآثار القدسية:

((قال: يا ربي أي عبادك أحبّ إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحبّ عبادي إليّ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحبّ من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحبّ من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

[ورد في الأثر]

أي ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، معنى ذلك أنه لا بدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله من خلال آياته الكونية، ومحبة له من خلال نعمه الجزيلة، وخوف منه من خلال البلاء والمصائب.

الحياة حركة:

أيها الأخوة الكرام، الآن في موضوع الابتلاء في أي مجتمع يستنبط من حركة الحياة فيه، الحياة لها حركة، في الحياة أقوياء و ضعفاء، أغنياء و فقراء، أتقياء و فجار، والناس يعيشون مع بعضهم بعضاً، فالحياة حركة، السبب أن هناك دوافع، هناك دافع إلى الطعام والشراب هذا يوجد حركة في الحياة، انظر إلى الطرقات صباحاً كل الناس يسعون إلى كسب أرزاقهم هناك حركة، وهناك حركة ثانية إلى زواجهم، و حركة ثالثة إلى تأكيد ذواتهم، فالحركة قائمة، لكن من خلال هذه الحركة قد نستنبط بعض القوانين، قوانين أرضية قد لا يعترف عليها الشرع، أي القوي إذا مدحته يطمئنك، فإذا انتقدته يقيم عليك الدنيا، هذا قانون، الإنسان إذا أعطيته مالاً يسكت على أخطائك، بأي مجتمع يوجد حركة من خلال هذه الحركة تستنبط بعض القوانين، مثلاً: كان التابعي الجليل "الحسن البصري" عند والي البصرة، فجاء توجيه من الخليفة يزيد، الرسالة مرعبة، يبدو أنه لو نفذ أمر الوالي لأغضب الله عز وجل، ولو لم ينفذه لأغضب الخليفة، وربما عزله، فوقع في حيرة من أمره، وعنده الإمام الجليل الحسن البصري فسأله، فأجابه إجابة تكتب بماء الذهب، تعد منهجاً، قال له: " إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".

انتهى الأمر، فهناك حركة في الحياة، وهناك قوانين، وهذه القوانين قد تتناقض مع منهج الله عز وجل، فالذي لا يعبأ بهذه القوانين ويخضع لقوانين الله عز وجل، و لمنهج الله قد يعرض نفسه إلى خسارة كبيرة، لكن الذي يحدث أن الله جلّ جلاله له قانون أنا أسميه العناية الإلهية، فيحفظه من مغبة عمله، يكون قد أرضى الله ونال الدنيا، مثلاً:

هذا التابعي الجليل الحسن البصري أدى رسالة العلم، بيانه أغضب الحجاج، فقال لجلسائه: يا جبناء والله لأروينكم من دمه وأمر بقتله، وجاء بالسياف، وجيء بالنطع ومُدّ، وجيء بالحسن البصري ليقتل، فلما دخل على مجلس الحجاج حرك شفتيه بكلام ما سمعه أحد، فإذا بالحجاج يقف له، جيء به ليقتل، جيء به ليقطع رأسه، فإذا بالحجاج يستقبله، ومازال يقربه من مجلسه حتى أجلسه على سريره واستفتاه، وأكرمه، وعطره، وشيّعه إلى باب القصر ، من الذي صُعق بما جرى ؟ السياف والحاجب، تبعه الحاجب قال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لقص رقبتك، ماذا قلت لربك ؟ قال له: قلت: " يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم".

من آثر طاعة الله على الخضوع للقوانين الفاسدة يخضعه الله لقانون العناية الإلهية:

أيها الأخوة الكرام، أنا أريد أن أؤكد لكم الإنسان حينما يعيش في مجتمع معين، وهذا المجتمع تحكمه قوانين قد لا تتماشى مع منهج الله، الآن أبسط مثل ببعض البلاد هناك قضية تعرقل أمامك، تدفع تمشي، لا تدفع لا تمشي، هذه مشكلة، دفع المال له إشكال وقبضه فيه إشكال، فيأتي المؤمن يرى أن هذه القوانين التي تسود هذا المجتمع لا ترضي الله فيؤثر طاعة الله، وبحسب هذه القوانين يخسر وسيدمر، فإذا بالله جلّ جلاله يخضعه لقانون اسمه قانون العناية الإلهية، فيتألق لذلك قال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ)

(سورة الإسراء)

قد يقول أحدكم أليس من الإيجاز أن يقول الله عز وجل: ربي اجعلني صادقاً ؟ هناك معنى دقيق، أنت أحياناً تدخل مدخل صدق، وأنت بعد أن دخلت تزل القدم، ولا تخرج صادقاً، قد تدخل صادقاً وتخرج ليس بصادق لذلك الآية الكريمة:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً)

(سورة الإسراء)

من هنا من حديث عائشة موقوفاً ومرفوعاً:

((من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً))

[الترمذي في السنن كتاب الزهد عن عائشة]

قوي إذا أرضيته بسخط الله سخط الله عنك، وجعله يسخط عليك، الآن إذا أرضيت ربك بسخط القوي، يرضى الله عنك، ويجعل هذا القوي يرضى عنك، كيف ؟ بالحكمة الإلهية، بالعناية الإلهية، إذاً يمكن أن نجد قوانين مستخلصة من حركة الحياة، هذه القوانين قد لا تتفق مع منهج الله، فيأتي المؤمن ويؤثر طاعة الله عز وجل على الخضوع لهذه القوانين التي هي من صنع البشر، فيخضعه الله لقانون آخر هو قانون العناية الإلهية، فينجح في إرضاء ربه وفي كسب دنياه.

حلاوة الإيمان وحقائق الإيمان:

لذلك الله عز وجل يبين أن في الدين شيء اسمه حلاوة الإيمان، تحدث عنه النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

لحلاوة الإيمان ثمن باهظ، حلاوة الإيمان شيء وحقائق الإيمان شيء آخر، بأوضح مثل حقائق الإيمان كورقة كبيرة على الطاولة فيها مخطط قصر، هذا المكان ثمانية بثمانية، هذه شرفة كبيرة، غرفة استقبال كبيرة جداً، غرفة نوم كبيرة، إطلالة رائعة، لكن كله ورق، فحقائق الإيمان كهذا الورق، معلومات دقيقة مبنية على مخططات، على رسم، على علم هندسي، لكن حلاوة الإيمان هي القصر نفسه، بين الذي يملك حقائق الإيمان وبين الذي يملك حلاوة الإيمان كمن يملك الخارطة، والثاني يملك القصر نفسه وهو يسكن فيه، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

أن يكون الله في قرآنه، والنبي في سنته في الأمر والنهي أحب إلى هذا المؤمن من أي شيء آخر، إذاً هذا الذي يؤثر طاعة الله وطاعة رسوله على مصالحه المتوهمة في الدنيا يكون قد دفع دفعة من حلاوة الإيمان:

((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا))

[مسلم عن عبد المطلب]

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

الولاء والبراء:

لكن بالمناسبة أن يكون الله في قرآنه ـ في الأمر والنهي ـ والنبي في سنته الصحيحة ـ في الأمر والنهي ـ أحب إليه مما سواهما عند التعارض، أي حينما تتعارض مصلحتك المادية مع النص الشرعي تؤثر طاعة الله، ولا تعبأ بهذه المصلحة المتوهمة، عندئذ تكون قد دفعت ثمن حلاوة الإيمان، عندئذ تذوق حلاوة الإيمان، والبند الثاني:

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

هذا اسمه في علم العقيدة الولاء والبراء، أي هو يوالي المؤمنين ولو كانوا ضعافاً وفقراء، ويتبرأ من الطرف الآخر ولو كانوا أشداء وأقوياء وأغنياء:

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

فمن علامة المؤمن وهو في دار الامتحان أنه يعطي لله، ويمنع لله، ويصل لله، ويقطع لله، ويرضى لله، ويغضب لله، أما الثالثة:

((وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

صار هذا الحديث:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

الدنيا دار ابتلاء لا دار جزاء:

أيها الأخوة، لازلنا في الفائدة التي تتحدث عن الابتلاء:

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧))

(سورة الكهف)

هناك أشياء مزخرفة جميلة جداً، وقد قال الله عز وجل:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس)

آية ثانية:

(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨))

(سورة الأعراف)

تأتيك حسنة أنت ممتحن بها، لا سمح الله تأتيك سيئة أنت ممتحن بها، الآن الهدى ابتلاء:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤))

(سورة طه)

أيها الأخوة، هذا الموضوع موضوع الابتلاء من أدق الموضوعات، وأنت حينما تنطلق في تعاملك مع الله أنك في دار ابتلاء ولست في دار جزاء، دار الجزاء في الآخرة، نحن في دار ابتلاء، نحن في العام الدراسي، العام الدراسي طبيعته الدارسة، والجهد، والمتابعة، والحفظ، وأداء الواجبات، بعد الامتحان يكون التكريم.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس